[illegible]

تأليف

محمد فريد [illegible]

الطبعة الثانية

الإسلام دين عام خالد

تحليل دقيق لأصول الدين الإسلامي تحت ضوء العلم والفلسفة

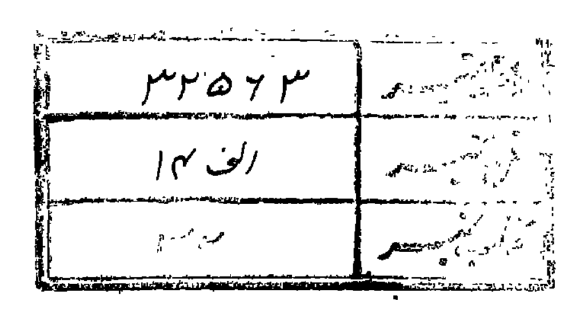


تأليف

محمد فريد وجدي

الطبعة الثانية

. الاعتماد


۳۲۵۶۳
الف ۱۴

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بحمده تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه محمد صاحب البينات ، الداعى لوحدة الانسانية والديانات ، وعلى جميع إخوانه المرسلين الذين أرسلوا للعالمين على اختلافهم فى الأجناس واللغـات ، صلاة وسلاما ، وعلى آلهم وتابعيهم مادامت الأرض والسموات .

(أما بعد) فقد كنا ننزع دائما إلى وضع رسالة تكشف عن كنه الاصلاح العام الذى جاء به الاسلام للعالمين كافة ، فيكون بيد كل طالب للحق نبراس يهتدى به فى ظلمات الشكوك التى طمت فى هذا الزمن الأخير حتى أيأست أهل الثقافة من صحة الدين ، وحملتهم على نبذه والمضى فى أغراضهم الدنيوية ، منطوية قلوبهم على الريب والشبهات . وهذه الحال تنافى الحياة الكاملة ، فان للروح مطالب معنوية كما للجسم مطالب مادية . فمن لم يصل الى درجة التوفيق بينهما عاش معيشة ضنكا ، وحشر يوم القيامة أعمى . فضلا عن أنه يمضى حياته يدفعه شك ، وتتلقفه شبهة ، على حال لا تتفق والطمأنينة ، ولا تستقيم والحكمة . قلنا : كنا ننزع إلى وضع رسالة تشفى الصدور من تارات الشكوك ، وتقيها وخزات الشبهات . حتى دعانا واجب الدفاع عن ديننا الحنيف أن نتصدى لدحض شبهات جاءت فى كتاب وضعه بعض دعاة الأديان

تحت اسم «مسائل فى الدين» ، ورأينا أن ننشر ذلك فى جريدة الجهاد

ثم رأينا أن دحض تلك الشبهات يجب أن يتبع بكتاب يبين حقيقة الاسلام ، فوفقنا الله لوضعه تحت اسم « الاسلام دين عام خالد » ونشرناه تباعا أيضا فى جريدة الجهاد .

ثم ارتأينا أن نشفع ذلك الكتاب بثان نبين فيه هداية القرآن ، والأصول الكريمة التى يدعو العلم اليها معززة بالأدلة العلمية ، على أنها أقوم الأصول وأكملها ، وأنها الغاية التى ليس وراءها مذهب . وما كدنا ننشر منه فى جريدة الجهاد بضعة عشر بحثا حتى دعينا لتولى ادارة مجلة الأزهر ، فلم نستطع الجمع بين عملين . فوقفنا نشر تلك البحوث اكتفاء بما ننشر فى تلك المجلة الرسمية .

فلما نفدت الطبعة الأولى من كتاب « الاسلام دين عام خالد » رأينا أن تصدره ببحوث كنا صدرنا بها تلك المقالات تحت عنوان «القرآن ومحمد» لصلاحيتها لأن تكون مقدمات له . وهانحن نبدأ بها هذه الطبعة

فالله أسأل أن يجعله عملا صالحا لوجهه ، موفيا بالغرض من وضعه ، إنه ولى الكفاية ، ومنه الهداية . وهو المستعان .

محمد فريد وجدى

مقدمة هذا البحث

يظهر لنا من الاحتفال العظيم الذي قوبلت به كتاباتنا هنا تحت عنوان (الاسلام دين عام خالد)، فى جميع البلدان الاسلامية، أننا قد أنجحنا بحول الله وقوته الي حد بعيد فيما حاولناه من إقامة أصول الاسلام على أساس العلم العصرى، لتتناسب ودرجة الثقافة الراهنة التى وصل اليها الناس فى هذا العهد الاخير. وهى الغاية التي رمينا اليها منذ محاولاتنا الاولي لهذا المطلب الخطير.

وقد جئنا اليوم نحاول إكمال بناء هذا الصرح العلمى بتناوله من ركنيه الرئيسيين وهما القرآن ومحمد، أى ينبوع الدين والرسول الذى جاء به على فترة من الرسل. وإننا لاننكر أن محاولة هذا الامر من الناحية العلمية، على ماينهمه المعاصرون من هذه الكلمة، ليس بالامر الهين، ولكن اقتحامه أصبح من أشد الضرورات الاجتماعية لتمرد العقول على كل مالايقوم على أسلوب العلم الراهن، ولايوفى بشروط الفلسفة الوضعية. وهو تمرد ظهرت بوادره فى كتابات بعض الكاتبين، وكمنت بذوره فى نفوس ناشئة، ولايبعد أن تبدو طفيلياتها فى السنوات العشر التى تلى هذا العهد، فلا تصادف أمامها حائلا يحول بينها وبين أن تصبح مذهب المتعلمين، فيضحى الاسلام ضعيفا فى أحصن معاقله، وهو أمر لايتفق والحق ومصلحة المجتمع معا.

لقد توكلنا على الله فى اقتحام هذا المطلب الجلل، مستمدين منه

روحا نقوى بها على الاضطلاع بأعبائه ، ونورا نسترشد به فى كشف أخفى أحنائه « ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور »، تحقيقا لوعده الحق « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » فنقول وهو المستعان :

أن الذى يحاول أن يلم بأثر القرآن من بناء هذه الامة ، ويدرك حقيقة العوامل الخفية والظاهرة التي صورت منها جسما حيا ناميا، قابلا لاحداث ماأحدثته من الامور الكبرفى حياة النوع البشرى، بعد ان كانت جماعات متخاذلة ، بل أوزاعا متناحرة ، ويتطلب أن يعرف نصيب محمد صلى الله عليه وسلم من هذا التطور العالمى المحير للعقل ، لايستطيع ذلك إلااذاوجه بحثه الي هذين العاملين مجتمعين ، فان القرآن صنع محمدا ومحمد صنع الامة الاسلامية ، فكان أحدهما العقل المدبر والآخر الارادة المنفذة ، وقدجعلا ليكونامتكافلين شأنهمافى الفردالواحد.

وبما اننا نرمى بمحاولاتنا هذه الي بناء هذه المباحث على قاعدة علمية على الاسلوب المقرر فى الدستور العلمى، فقدوجب علينا أن نبين ماقلناه بايراد نظرية العلم الاجتماعى فى بناءالجماعات الانسانية فنقول :

إن بناء الجماعات فى علم الاجتماع يشبه بناء الكائنات الحية من جميع الوجوه ، فكما أن كل كائن حى ، كما تقرر فى البيولوجيا (علم حياة الكائنات)، يتألف من خلايا أولية: لكل منها حياة خاصة، وصفات متميزة، تخضع كلها فى مجموعها للروح العامة لذلك الكائن، وتنفعل بها، وتتكافل فى اقامة وجوده على حالة وحدة حاصلة على

مقوماتها النوعية والجنسية ، فكذلك كل جماعة انسانية تتألف من خلايا أولية، هم الآحاد الداخلون في تركيبها ، لكل منهم حياة خاصة ، وصفات متميزة ، يخضعون لروح عامة تتألف في تلك الجماعة، وتجعل منهم وحدة كاملة المقومات، أهلا لان تعيش بين مثيلاتها من الجماعات.
وكما أن الكائنات الحية يبدأ وجودها بخلية أولية واحدة، تنشر حياتها في البيئة المحيطة بها ، وتستطيع بما متعت به من الصفات أن تحول موادها الجامدة الي مواد حية تنشيء منها خلايا جديدة ، وكل خلية جديدة تعمل عمل سابقتها في التوليد ، ولا تزال هذه الحركة مستمرة حتي يبلغ الكائن أشده ، فكذلك كل جماعة بشرية تبدأ بخلية أولية ، هو انسان منها يمده روح الوجود لأن يكون أصلا لها ، فتظهر بخصائص مقدرة تناسب الوجود الاجتماعي العام ؛ وتدعى لتعمل فيه عملا يستدعيه العمران العالى فى كل دور من أدوار البشر.

اذا فهمنا هذا، قلنا إن الامة الاسلامية لم تشذ عن هذه القاعدة ، فان الروح العام اصطفى من ذلك الركام البشرى من الخلايا المفككة العربى، التي كانت مبثوثة فى بلاد العرب، خلية تصلح ابناء هذه الامة ، هى محمد بن عبد الله ، ونفحها بروح منه، ووالاها الامداد، حتي قامت على سنة الخلايا المولدة للجماعات ، فنشر صلى الله عليه وسلم الحياة حوله، وولد خلايا جديدة على مثاله، تألف منها وجود اجتماعى صغير ، ومازال هذا التوليد مستمراً تحت تأثير هذا المدد السماوى وهو القرآن حتي تم بناء الامة الاسلامية.

فهذا البيان يفسر معني قولنا في أول هذا البحث بانه لا يستطاع

بحث القرآن ومحمد من هذه الناحية الاجتماعية الامقترنين معا .

قلنا إن اقتحام هـذا البحث ليس بهين ، نعم الا أن ذلك ليس من ناحية الموضوع نفسه، فانه ثرى الي حـد الاعجاز ، ولـكن من ناحية القدرة على ابرازه فى جميع تفاصيله، وعلى الاسلوب العلمى المحض، وفى معرض يرضى مطامع العقول فى هذا العصر . فاذا كانت دراسة الثورة الانجليزية والثورة الفرنسية قد كتبت فيهما ألوف من الاسفار، ولا تزال تصدر فيهما مؤلفات الي عهدنا هـذا ، وهما لم تتعديا حدود نظم الحـكم، ولم تتجاوزا تخوم بلاديهما الا فى أجيال، وعلى وتيرة أمثالهما من التمشى التدريجى؛ فـكم كان يجب أن يكتب من الاسفار فى بيان ثورة عالمية ليس لها نظير فى تاريخ البشر ، هى الثورة الاسلامية التى كان من أثرها تـكوين أمة جديدة حاصلة على أرقى مقومات الاجتماع ، وحدوث انقلاب عالمى عام تغيرت معه خريطة العالم تغـيراً ذريعا بتلاشى دول وقيام دول ، وفناء أمم فى أجساد أمم، وزوال أصول تحت تأثير أصول ، فى سنوات معدودة ، وكانت ثمرة ذلك كله انتهاء دور تاريخى عتيق، وميلاد دور جديد بلغ فيه العقل أشده ؛ ونال فيـه سلطانه الـكامل ، وبعثت علوم كانت فى أجداثها ، وا كتسبت حياة جديدة، وارتقاء بعيد المدي، انبعثت منه هذه المدنية الراهنة حافلة بالمحتملات التي لايمـكن تقديرها . أليس كل هذا كان ، كما أجمع عليه المؤرخون ، من آثار هذه الثورة العالمية الضخمة التي أوجدها القرآن ومحمد ؟ فاذا أردت أن تعرف خطورة الموضوع الذى نريد أن نعالجه اليوم؛ ونخوض منه بالقارئين بحراً مثعنجراً، فتخيل العوامل والقوي

التى عملت أولا لايجاده ، ثم مازالت به تترقي وتتطور معه حتي أوصلته الي أبعد غاياته ، وجعلته يثمر أينع ثمراته .

ان قصر الكلام فى هذا الامر الجلل على الامة الاسلامية وحدها يكاد يكون متعذراً، اذا أريد فهم حقيقة العوامل التى عملت فيها على وجهها الصحيح، بعيدا عن التعصب والقصور ، فما ظنك بالكلام على جملة ماأحدثته هذه الثورة فى العالم كله ، وماتأثرت به كل أمة منــه ؟

قد يرى بعض الذين لابصر لهم بالامور الاجتماعية ، ولا بالتطورات النفسية، أن من الغلو الذهاب هذا المذهب فى تجسيم الحوادث ، ولكن أهل العلم الملمين بصعوبة قيادالامم ، وشدة شكيمة الجماعات ، وكنه استعصائها على الانتقالات السريعة ، يعلمون الي أى حـد يصعب تعليل هــذا الامر بحيث يرضى به المتعودون على النظر فى الامور على الاسلوب العلمى البحت .

ان الذى يتأمل فى حالة القبائل العربية قبل القرآن ومحمد، فى تفرقها وتناحرها ، ثم فى اجتماعها وتوحدها بعدهما، يدهش الي حد بعيد، إذ لايجد له نظيراً فى تاريخ البشر فى سنين معدودة . ويجب أن يكون الناظر عالما اجتماعيا ليدرك ضخامة هذا الامر ، ولكن ذلك الناظر اذا كان فوق علمه بالاجتماع عالما بالنفس ، ورأى أن هــذه الجماعات البشرية قبل القرآن ومحمد كانت لاتتنفس إلا ريح الحروب والغارات ، ولاتتذاكر إلا المعارك والثارات ، ولايسمع الذى كان يجوس خلال مضاربها الاقعقعة اللجم ، وصليل الصوارم ، ولايلمح الابريق

الاسنة ، واشتجار الاعنة ، وهي بعيدة كل البعد عن دين يلطف من خشونتها ، وفلسفة تطأمن من غلوائها ، وتكسر من عرامها ، ثم رأى هذا الناظر بعد سيادة القرآن ومحمد عليها،أى بعد سنوات معدودة، أن هذه القبائل نفسها قد استبدلت بجاهليتها هذه مساجد تغص بالمصلين ، وكتابا يتلى على السامعين الخاشعين ، وحلقا تتألف حول الواعظين والمعلمين ، ونفوسا أدركت قيمة الحياة فآثرت الزهد على النعيم ، واتصلت بالنور فاشتغلت بعد الفروض بالنوافل ، وأحيت الليل بالتهجد المتواصل ، ان هذا الانقلاب الذريع فى بيئة كانت أبعد البيئات عن ايقاظ العاطفة الدينية ، ولدى شعب جمد على المادة بقدر حاجته اليها،وحرمانه منها ، ثم لو أردفت هذا بأن هذه الامة التي كانت فى زاوية قصية من الارض ، وبعيدة عن العلم والعمران ، تنتدب لاحداث (ثورة عالمية) لا تقف تطوراتها عند غاية ، كل هذا يعتبر بحق من أغرب مارأى الراؤون، وروى الراوون من تاريخ البشر . فلاجرم إن تعليل حدوث هذا الامر الجلل، بهذه السرعة، يحتاج لا الى بيان ساحر فقط ، ولكن الى سريان بعيد فى عالم العلل والقوى الادبية ، ليلم ببعض مايجب أن يتخذه مادة لما يقول.

يقول قائلون وفيم هذا الجهد كله وراء أمور أصبحت أثرية محضة ، وليس فى تمحيصها الى هذا الحد من فائدة عملية فى حياتنا الراهنة ، ولا من المطموع فيه أن يعود الناس الى حظيرة الدين فى عصر صار قياد الشعوب فيه فى يد العلم وحده ؛ بل ربما كان من وراء هذه الجهود بعث للميول الدينية فى كثير من النفوس، فترجع القهقري ؛

على حين اننا نرمي لان نستقبل حياة جديدة تجرى فى تيارها خالصين من جميع القيود التي تربطنا بهذا الماضى البعيد؟ الخ .

فنقول لهؤلاء مهلا ، فان كل نهضة فكرية ونفسية لامة من الامم لاتكون صحيحة ومؤدية الي الثمرات المنتظرة منها الا اذا وصل بين ماضيها وحاضرها برباط يسمح لها بالاستمداد من ينابيع حياتها الاولية قوة تواصل بها حركتها فى تطوراتها الجديدة . فهى كالفرد الواحد من هـذه الناحية لايستطاع أن تقطع صلته بماضيه، حيث مصادر وجوده، ومناشيء مواهبـه ، ومثارات قواه وقابلياته، فليس فى العالم أسلوب من أساليب التربيـة يستطيع أن يخلق لفرد ينابيع جديدة لحياة جديدة ، وأن يصبه لوقته فى أى القوالب أراد ، لان كل مافيه من القوى الراهنة ، وماهو عليه من القابليات، يرجع عهدها الي ميلاده وطفولته ، وما اكتسبه من مـيراث أبويه بل آبائه، ومن تقاليد اسرته وتقاليد قومه ؛ وماطبعته هـذه التقاليد الموروثة فى صميم معناه من أسباب الترقى والانحطاط والبقاء والتلاشى . فكذلك الامة لايمكن أن تقطع عن ماضيها، ويفترض أنها خلقت لساعتها، لان فى ذلك الماضى مصادر كل القوى التي يراد استخدامها لترقيتها، وابلاغها الي غاية مرجوة، بالدخول فى تطورات يقتضيها ذلك الانقلاب نفسه. فاذا كانت أمم اسلامية برمتها أظهرت اليوم جمودا ظاهراً حيال الحياة العالمية الحاضرة ، واستعصت أدواؤها على جميع العلاجات التى عوملت بها ، واذا كانت الحياة الجديدة أثمرت فى بعضها ثمرات معكوسة، فتحول اندفاعها وراء الترقى الي اباحة مهددة لوجودها كله ، فلا يرجع

ذلك الي انها أمم غير قابلة للترقى، أوالي أن دينها يحول بينها وبينه ، وكيف ذلك وهو الذى أوجد هذا العهد الجديد بما بث فى العالم بثورته من الاصول الخالدة والمبادىء المحيية ، وانما يرجع ذلك كله الي أن الرجال الذين يدعون الي نهضة الشرق يحاولون أن ينشئوا شعوبه انشاء جديدا يقطع كل صلة بينها وبين ماضيها ، وهل فى ماضيها إلا ينابيع حياتها ، ومصادر قواها ، ومذخور تقاليدها ، فكيف تندفع فى باحات الوجود مقطوعة الصلة بذلك كله كمن يخلق لساعته ، على أن من يخلق لساعته لا يقبل الترقى طفرة ، فهو بحاجة الي تطورات عديدة يحصل بها حياة ومواهب وتقاليد يعتمد عليها فى كل خطوة من خطوات وجوده .

فنحن بعملنا الجديد هذا انما نعمل على مايتطلبه علم الاجتماع منا لانهاض أمتنا بالصلة بينها وبين مذخور قواها الكامنة ، واذا كان هذا الماضى الذى نحاول كشفه، وربط وجودنا به، أحفل ماض لامة بأصول الحياة الصحيحة ، وينابيع القوى الادبية الكاملة ، وعوامل الانتقالات السريعة ، فهل نتجاهله متابعة منا لتعاليم ضالة لاثمرة لها الاجموداً مستعصيا، أوإباحة لاتجد حداً تقف عنده؟

أماقول المعترضين بأن وراء هذه الجهود منا احياء لعاطفة الدين التي يريد المصلحون المعاصرون اماتتها لتتخلص الامة الى الترقى مطلقة من جميع القيود ، فندخر الكلام فيه الي الفصل التالي بعونة الله .

الدين لايزال عنصرا
من عناصر الاجتماع

لو كانت أمم تستطيع أن تعيش مجردة من دين، لكانت تلك الامم هى الشعوب الاوربية والامريكية العريقة فى المدنية ، وصاحبة الخلافة الفلسفية والعلمية فى الارض اليوم ، وبخاصة لانها عانت من عنت الحروب الدينية ، والمقاومات الكهنوتية ، مالم يتفق حصوله فى الشرق فى أى عهد من عهوده . وقد حاولت أعرق الامم فى الحضارة والعلم ، وفى أثناء غليان مرجل ثورتها الكبرى ، هى الامة الفرنسية ، أن تحذف الدين من بقية اجتماعها فلم تهتد الي ذلك سبيلا . فكيف يمكن فهم هذا الحدث الاجتماعى الجلل فى أمم هى منبت الشكوك والريب ، ومبعث العلم الصحيح بالمعلولات والعلل ، وبيئة جميع المذاهب المتطرفة ، وفى جو لايحد حرية النظر والفكر فيه شيء من الاعتبارات العقلية ولاالروحية ؟ الطريق الى فهمه سهل، وهو أن الدين اختلط بكيانها الاجتماعى فأصبح عنصراً من عناصر تركيبها العقلى والقومى ؛ فلايستطاع تجريدها منه الا بتحليل وجودها الي عناصره الاولية ، وصب كيانها الاجتماعى فى قالب جديد ، وهذا مالاسبيل اليه الابحت تأثير تطور خطير لم يحدث بعد ، ولايتوقع حدوثه فى الحالة العقلية والنفسية الراهنة . فلذلك تجرى هذه الامم على سمتها الاول ، وعلى الاصول التي كانت عليها ، محتفظة بجميع مظاهر تقاليدها الموروثة ، وان كانت قد خلصت فى الواقع

من كل القيود التى كانت تشل نشاطها، وتعطل من حركتها من قبل تلك التقاليد .

فاذا كان من المسلمين اليوم من يتخيلون أنهم يستطيعون أن يدفعوا بأممهم فى تيار لاتندفع فيه أمم الارض ، بمهاجمة الدين من طريق غير مباشر ، وبث الشبهات عليه دسا فى كتاباتهم ، فانما يعملون فى الوقائع على حل جماعتهم ، ومساعدة القوى الخارجية العاملة على تحايل وجودهم بكل الاسلحة المعروفة .

ولقد كنا نعذرهم لو كان للدين فى هذه البلاد أثر ظاهر فى تأخير نهضة ، أو تقييد نزعة ، أو معاكسة وجهة . ولقد رأى الناس كلهم أن محمد على باشا موجد مصر الحديثة قد اقتبس جميع ما يمكن اقتباسه من علوم أوروبا وصنائعها وفنونها ونظمها فلم يسمع صوتا دينياً ارتفع لمعاكسته فى وقت كان لرجال الدين فيه سلطان تنحنى له الرؤوس ، وتخنع النفوس ، لافرقا من بطش الداهل المجدد ، ولكن لان تاريخ الاسلام حافل بهذه المظاهر العلمية والصناعية ، وعهده الاول مضرب المثل فى وجوب الاقتباس والاخذ عن الامم الاجنبية . ورجاله اليوم أشد طواعية للظروف ، وأكثر علما بضرورة انتهاز الفرص ، وعدم اضاعة الوقت سدى ، فاستشعار الحفيظة عليه أو عليهم باثارة الشكوك لامعنى له الاجهل هذه الشؤون الاجتماعية .

لقد تكلمنا فى مقالاتنا السابقة هنا تحت عنوان (الاسلام دين عام خالد) على الاصل النفسانى الفطرى الذى يرتكز عليه التدين ، وأقمنا الدليل من الفلسفة العملية على أن هذا الاصل

قائم على أكرم ميول النفس، وأبقاها مابقي الانسان ، وعلى أنها فوق متناول الشبه العلمية ، واستشهدنا على ذلك بأقوال كبار الفلاسفة المعاصرين فى هـذا الشأن فلانعوذ اليه اليوم ، ولـكننا نحاول أن نثبت لأولي البصر بأننا أصبحنا بحاجة ماسـة الي الدفاع عن الدين من طريق العلم والفلسفة ، لامؤاتاة للناس بغـذائهم الروحى الذى هم فى حاجة اليه فحسب ؛ ولـكن حياطة لمجتمعات المسلمين من التصدع بانتشار الشـكوك التى يبثها بعض الـكاتبين عليه عرضا وعن عمد :

نعم أن هذه الشـكوك لخطرة على بناء مجتمعاتنا باعتبار أن الدين كما قدمنا قد امتزج بعناصر الاجتماع امتزاجا لايمـكن استخلاصه منها ، حتي ولو كان وثنيا ، دون أن تصاب هذه المجتمعات بتحلل ذريع ، وهو لاسبيل اليـه كما قلنا الابتطور بعيد المدى لايوجد مايدل على قرب حدوثه الي اليوم .

فاذا انتدب جماعة من أبناء هذه الملة لتجريد مجتمعاتنا من الدين تحت أى عنوان كان ، ونحن فى تيار الافتتان بالمدنية الغربية ، كان أثر ذلك علينا وقوعنا بين براثن الاباحة الصرفة، فتنطلق بنا بسرعة تذهلنا عن وجودنا بحيث لاتدع لنا وقتا لإعمال الروية ، فنهوى هويا تبطل معه الارادة الشخصية والاجتماعية معا . ولقد يرى أوسعنا عقلا وأرسخنا قدما ان الارض تميـد تحت قدميه ، وانه مدفوع ضد ارادته بقوى لايعرفها لعمل مالايسيغه له ، ولا يرتضيه تورعه . هـذا ونحن فى أول الحركة ، فما قولك اذا اشتدت الفتنة واجترفه تيارها ، أفيجد عندئذ وقتا حتي للاسترجاع والحوقلة ؟

لو كان هـذا التنوير الاكبر ، لتحصيل مادة أغزر ، أو سلطان في الحياة أوفر ، لامكننا أن نسيغه ، ولوجد منا أنصاراً كباراً ، فماذا نقول وهو يجرى بنا الي املاق مؤكد ، وضياع وجود محقق ؟

إن في أوروبا وأمريكا على ضخامة سلطانهما ، ورسوخ أقدامهما في كل مجال ، الوفا من رجال العلم يبحثون في خصائص الانسان النفسية عمليا ، وقد وقفوا منها على رسوم العالم الروحانى من طريق الدستور العلمي البحت ، وعلى أسلوب الفلسفة الوضعية الصرف ، ونحن لسنا بمجردين من مثل هـذه الجهود فحسب ؛ ولكن يعمل بعض كتابنا على طمس ابحاث هؤلاء الباحثين واحاطتها بالشكوك ، كأننا أصبحنا نعلمهم كيف يشكون ؛ وكيف يرجعون الى أحضان المادية وقد نبذوها ظهريا بعد أن أثبت لهم العلم انها لاتساوى المداد الذى يبذل في دحضها . (راجع كتابنا على اطلال المذهب المادى) .

ولاننسى أيضا أننا تحت خطر الافتتان بالمبادىء والاصول التي يسرف في الدعوة اليها رجال الاصلاح الاجتماعي في القارتين بعلم واسع واطلاع كبير وعبارات جذابة ، مما لوقورن بحالة الصمت المطلق التي نحن عليها لخيل الى أمثالنا اننا في املاق مدقع من أمثالها ، واننا نخلو من مثل عليا في الاجتماع والعمران : فندفع لنقل أقوال غيرنا واحاطتها بجميع الجواذب الكلامية ، والزواق الفلسفية ، جاهلين أن لدينا مايفوقها لفتا للانظار واجتذابا للقلوب وتأثيرا في العواطف ، مما لوعنينا بالنظر فيـه ، والشغل به ، لشهد العالم كله أن لدينا منها مايصغر جميع ماينقل عن كبار العقول الاجانب في هذه الشؤون الانسانية .

لذلك رأينا أن نوجه اهتمامنا في مقالاتنا الجديدة إلى كشف هذه الكنوز المكنونة، التي لم يجعلها في حكم الاثريات إلا جهلنا بها، وانصرافنا عن النظر فيها، وعرضها في المعرض العام للآراء والمذاهب العالمية . واننا لواثقون أننا لو اشتغلنا بها لخدمنا مجتمعنا أجل الخدم ، وأشهدنا العالم من معجزات الاسلام وأثره الخالد في تجديد البشرية على مالم يصل اليه العالم المتمدن الي اليوم ، ويصبح مثلا أعلى يسقط كل مثل اعلى غيره درجات كثيرة .

فنحن والحالة هذه مضطرون أن نتكلم عن الاسلام من نواح أخص من النواحي التي عالجناها في مقالاتنا (الاسلام دين عام خالد) ، فسنتناول اليوم بالبحث بنية الاسلام الصميمة ، ومميزات الامة التي قام بتأليفها ، ومثلها العليا ، وحوافظها ، وأسباب اعتلالها وحيدها عن سمتها ، ووشك عودها الى صحتها، والجرى على سابق سنتها ، والتدليل على أن أصولها هي الاصول الاجتماعية التي سينتهي اليها العالم محفوزاً بالعوامل التي تعمل على تكميله وتعديل أوده .

هذه وعود تشبه أن تكون من توليدات الحماسة الدينية ، ولكن القراء سيرون ان شاء الله اننا سنعالجها حافظين لا كبر حظ من الاتزان العقلي ، وعلى أوفر قسط من الدستور العلمي . فاذا كان العلماء الاوربيون قد كشفوا لنا أن آباءنا الاولين كانوا يشتغلون بمذهب النشوء والارتقاء، وهو أحدث المذاهب العلمية ، وفي مجال أوسع مما هو عليه الآن ، كما نقلنا عنهم ذلك في مقالاتنا السابقة، فليس يستغرب أن يقوم مسلم عريق في الإسلام فيكشف من

الشؤون الخاصة ببنية هـذا الدين مايرى الباحثون المعاصرون لنا في الاجتماع انهم لم يصلوا بعد الي مثله .

لنقل هنا بصراحة ان هذا الدين إما أن يكون في ذاته حقا أو باطلا . فان كان باطلا أوانقضى زمنه فليس أمامه إلا أن يزهق أو أن يضمحل يسـيراً يسيراً، حتى يمحى أثره في العقول، وكان حقا علينا أن نتركه وشأنه يقضي أيامه في نفوس العامة حتي يزول رسمه ، كما وقر هذا الرأى فى نفوس بعض أعلام كتابنا، متابعة لآراء علماء الغرب في جميع الاديان المعروفة . وأما ان كان حقا فهو ينص على أن الرسول الذى جاء به خاتم المرسلين ، وعلى أن القرآن خاتمة الوحى الالهى ، وما كان هـذا شأنه وجب أن يكون حاصلا على أشـد مايفتن عقول الناس فى كل جيل ، وبخاصة فى أحفل عصور البشرية فى العلم والفلسفة والمخترعات، وهو القرن العشرون ، فهـل الاسلام ملىء بذلك نصا بغير تأويل ؟

أما نحن فنقول بملء فينا نعم ، ولو كان فى أدوات الاثبات ماهو فوق نعم لأتينا بهـا . واذا أنجحنا فيما تصدينا له فلسنا فى حاجة بعده لان نرجو بعض المنكرين منا أن يقلعوا عن التشكيك فيه ، لأنهم سوف يندفعون مجفوزين بجماله الباهر الي زيادة تجلية حقائقه وإبرازها في أجمل قوالب السمو بقدر ماتمكنهم كفاياتهم العلمية ومقدرتهم الكتابية .

موعدنا بالبدء فيما تصدينا له الفصل التالي إن شاء الله .

بنية الامة الاسلامية

قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون « الآية »

اذا كان للأمة الانجليزية أن تباهى سواها بأنها أول من وضع بثورتها فى القرن الثالث عشر أسس الدستور ، واذا كان للامة الفرنسية أن تفخر بأنها بثورتها المشهورة أول من استن بسنة انجلترة من دول القارة فى أواخر القرن الثامن عشر ، فان للمسلمين أن يساموا أمم الارض قاطبة فى انهم قاموا فى مستهل القرن السابع تحت املاء القرآن وقيادة محمد بثورة لا محلية كهاتين الثورتين ، ولكن ثورة (عالمية عامة) ، ليس لوضع نظام للحكم كما فعلت هاتان الامتان فحسب ، ولكن لقلب جميع النظم العتيقة فى كل ضرب من ضروب المحاولات البشرية فى العالم كله ، فى الدين والسياسة والاخلاق والاصول والمبادىء ووجهات النظر والمثل العليا أيضا .

نعم هى ثورة عالمية عامة ـ ولا يمكن أن يسمى ظهور الاسلام بغير هذا الاسم فى عرف العلم الاجتماعى ـ مخضت العالم كله مخضة عنيفة أسقطت بها عروشا كانت تعتبر مخلدة ، ونسفت صروحا كانت تحسب أثبت من الشواهق رسوخا ، ونسخت لغات كانت تعد لغة الملأ الاعلى ، وغيرت خريطة العالم فى سنوات معدودة تغييراً لم تحدثه الحروب فى أجيال كثيرة ، وامتد تأثيرها الي الاصول الموروثة والمبادىء الممترجة بالارواح ، والعقائد السارية فى النفوس مسري

الحياة ، فقبلتها رأسا على عقب ، ومست الطوائف والفرق والجماعات التى كانت تعتقد ، ويعتقد الناس أن لها حقا فى استعباد النفوس ، وتسخير العقول ، فزعزعت أركانها ، وبثت فى مستعبديها كيف ينازعونها سلطانها . ومرت هذه الثورة الي العلم والفلسفة فأقامت دولة العقل والنظر الحر المستقل ، وجعلت الطبيعة ومانصب فيها من أعلام الحق مرجعا لكل خلاف ، وميزانا لكل حقيقة .

أن هذه الثورة عالمية محضة غير مصطبغة بصبغة محلية ، فكانت معدة لحالة جمود عقلى ، وتحجر كان الناس عليها منذ قرون تأدت بهم الي أن يكونوا فى أيدى قادتهم أشباحا يستغلون قواها ، ويسخرونها لشهواتهم ، ويدفعونها جماعات جماعات الي المجازر تحصيلا لفخر زائل ، أو تثبيتا لسلطان حائل ، أوشفاء لحسد قاتل . وقد نقلنا عن البحاثة الجليل المسيو (جول لابوم) ما كتبه فيما كان عليه العالم كله ابان بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فراجعها فى صفحة ٩٤ ومابعدها فى كتابنا (الاسلام دين عام خالد) ، لتتحقق أن العالم كان فى حاجة الى صاخة تخلصه عن حالة جمود كان عليها لاينفق ومايجب أن يكون عليه ليتابع طريقه فى الحياة .

نعم هى (ثورة عالمية) غير محلية أمارأيت أن القرآن كان يوجه الخطاب الي الناس كافه لافرق بين أبيضهم وأسودهم وأبعدهم وأقربهم فيقول :

« ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

« ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا » .

ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه، ومن ضل فانما يضل عليها » .

« ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » .

« وماأرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

« وماأرسلناك إلارحمة للعالمين » .

ثم ألم يكتب النبي صلى الله عليه وسلم الي الامم المعروفة على عهده يبلغهم انه أرسل الي العالم كله ، ويحملهم تبعة تقاعسهم عن الاخذ بما جاء به ؟ .

لقد جرت سنة الخالق أن يفتتح كل دور من أدوار الانقلابات العالمية بحادثة جلى ترتج لها الارض ، وتميد رواسيها ميدا ، ليتسنى لمن أعمتهم الكبرياء ، وأصمتهم الغشمرة من القادة، ولمن خدرتهم الذلة ، وأماتتهم المسكنة من الشعوب ، أن يفيقوا من غشيتهم ، ويتنبهوا من رقدتهم ، فكانت هذه الحادثة الجلى فى مفتتح العهد الاخير للبشرية، هى ظهور (أمة عالمية) تألفت فى قاصية من الارض ، وفى غفلة من الامم ، فى بيئة ليست مظنة لانبعاث أية حركة محلية فضلا عن قارعة عالمية تملى على العالم ارادتها ، وتوجب عليه حركتها ، ولكنها فى هذه المرة ليست بارادة المتغلب يهلك الحرث والنسل ، ولابحركة الفاتح يستذل الامم والجماعات ، وانما هى صيحة الحق تنبه الامم الي وجودها ، وتوقظها من سباتها ، وتثير فيها قواها الادبية ،

وتستجيش ملكاتها الفطرية ، وتعيد الحياة الي ماتحجر من غرائزها ، وتعطل من عواطفها ، تحمل اليها نوراً تستبين به مابين يديها وماخلفها ، وتهبها شعوراً تدرك به القهر الواقع عليها من سادتها ، فهى لاترى فى هذه المرة جيوشا تنساح فى بلادها ، وتهين مقدساتها ، وتنتهك حرماتها ، ولاقادة يجعلون أعزتها جزرا للقشاعم فى ساحاتها ، وخولا أذلاء أمام أعينها ، ولكنها ترى اخوانا يأتون لنجدتها ، وايقاظها من رقدتها ، وتخليصها من أيدى قتلتها ، وقد أدركت هى ذلك فشرعت تستدعيهم لتحريرها ، ولم يؤثر مثل ذلك عن الامم من قبل . ومإن استقر بالمسلمين المقام فى بلادها حتى شرعوا يقيمون العدالة فى مواطنها ، ويستنون بسنة الانصاف فى معاملتها ، ويشيدون دور العلم لانفسهم ولها ، ويستخرجون مادفن من الكنوز العقلية لاوائلها ، ويستعيدون مادرس من فنونها وصنائعها ، لم يجبروها على ترك دينها ، ولم يحرموا عليها اقامة شعائرها ، ولم يهدموا معبدا من معابدها ، فكانت حركة لم يحلموا بمثالها ، وحالة لم ينعموا بشبيهها ، وكان مابقى من أجزاء العالم التى لم تطأها أقدامهم قد أحست بهذه الرجفة العنيفة حولها ، فهبت تستجمع قواها لدرء ما كان يدعوه قاداتها خطرا على وجودها ، فنبه ذلك شعوبها للنظر ، ودفعها الي اليقظة والسهر . ثم ماعتمت أن رأت على مقربة منها أنوارا تتألق ، ومعين حياة يتدفق ، وكرما للعاشين اليه ، والحائمين حوله ، وأيديا تمتد اليها بالترحيب ، ونفوسا تتلقاها بالمرحمة ، فكان رجال منها يترددون الي بلاد المسلمين يعبون من مناهلهم ، ويستنيرون بمعارفهم ،

ثم يعودون الي بلادهم عاملين على ايقاظ أقوامهم، وأحياء مواتهم ، وماهي الاسنين حتي عمت هـذه الحركة المباركة أكناف الارض ، وحدث بسببها فى الشعوب بعدها ماحدث من الاصلاحات الدينية ، والنهضات العقلية والعلمية، التي تولدت منها المدنية العصرية . فهل كذب مؤرخوهم حين قالوا أن أول جامعـة أسست فى بلادهم كانت بأيدى المسلمين ؟ وهل غلوا فى دعواهم أن المسلمين كانوا أساتيذهم ومعلميهم ؟ (راجع كتاب الاسلام دين عام خالد) .

هذه (الثورة العالمية العامة) التى قام بها الاسلام احتار الله أن يكون مصدرها جزيرة العرب حيث لاتوجـد حياة اجتماعية ، ولاعلوم عقلية ولانقلية ، ولاعمران ولامدنيـة ، فهى زاوية من الارض قاحلة كانت قد استنفدت كل مواردها فى تنازع البقاء ، والتناحر على أحقر الاشياء . لم يقم فيها قائم بدعوة الى الاجتماع فضـلا عن الانتداب لاحياء الامم و بعث الرمم ، وهـذا ماحمل عاهل الفرس اذ ذاك ، وقد قرأ كتاب النبي صلى الله عليـه وسلم الذى وجهه اليه لدعوته الى الاخذ بما جاء به ، على أن يمزق ذلك الـكتاب و يقذف به وجه حامله .

فى هذه البقعة شاء قيم الوجود أن يؤلف أمة لاعلى طراز الامم ، ولاعلى الاصول المقررة لها ، ولـكن على غرار لم تقم على مثله أمة الي اليوم ، (أمة عالمية) لاتقوم على الجنسية ، ولاعلى الرابطه اللغوية ، ولاعلى التقاليد القومية ، ولاعلى الوشائج التاريخيـة ، ولـكن على المبادىء الانسانية الخالدة ، والحقائق الاولية العامة ، بحيث تمتزج

فيها الاجناس بالاجناس ، وتختلط الاصول بالاصول، وتندمج الميول فى الميول ، لاتفرق بينها الالوان ، ولايعتد فيها باختلاف الموالد والبلدان ، تجمعها أخوة الآدمية ، وتضمها ربط الفضائل النفسية ، تتضافر على بلوغ غرض عال هو الكمال بأخص معانيه ، وتتعاون على تحقيق مراد سام هو الاصلاح العام للجماعات الانسانية .

تألفت هذه الامة تحت املاء القرآن ورعاية محمد عليه الصلاة والسلام، فكان فيها الزنجى والديلمى والهندى والفارسى والعربى وغيرهم ممن كانت تفرق بينهم الاجناس والالوان ، فى بحبوحة من الوحدة والاخاء، تحركهم روح واحدة الي تحقيق غرض جلل لم تنتدب لمثله ولالما يقرب منه أمة الى اليوم ، ولم يطف بخيال مصلح من قبل ولامن بعد .

أن أية ثورة قامت فى الارض لم تتخط دائرتها الي مرام عالمية ، ولم تعن بشىء غير المصالح المحلية ، ولكن الثورة الاسلامية التي سبقت أقدم ثورة بقرون كثيرة قامت على مبادىء لم تقم عليها أية أمة وتعتبر أقصى مايمكن أن تتخيله فلسفة انسانية ، فمحقت الفوارق بين الاجناس ، والامتيازات بين الطبقات ، والحقوق المغتصبة للطوائف ، والاوهام الموروثة بين الجماعات ، والحوائل الوهمية بين الالوان ، فصبت العالم كله فى قالب فذ ، ظهرت على أهلها بسبب ذلك مدهشات تشبه المعجزات : فتألفت من هذه العناصر المختلفة لاول مرة فى تاريخ البشر اخوة عامة بين الفطر المتباينة، آتت ثمراتها في سنين معدودة، كانت أعمالا ضخمة لم يسجل تاريخ الانسانية مثلها

فى سجل أية أمة من الامم . فرأينا من كانوا فى أمسهم عبدانا سودا وموالي أذلاء ولاة وملوكا وأئمة وقادة ، وشهدنا الذين كانوا أفرادا فى شعوب توارثت الاحقاد آماداً طويلة، اخوانا متماسكين بأرقى الربط الادبية ، لتحقيق أغراض عالمية لم تطف فى خيال أكبر الفلاسفة من قبل . ألم يجعل النبي صلى الله عليه وسلم بلالا الذى كان مملوكا حبشيا واليا على المدينه ؟ ألم يول أسامة بن زيد وهو أحد الموالي قيادة جيش كان فيه أبوبكر وعمر ؟ ألم يكن عبادة بن الصامت سفير المسلمين الي المقوقس اسود فاحم اللون ، حتى قال عاهل القبط أبعدوه عنى وقدموا غيره ، فقال له أعضاء وفده لانستطيع ذلك لانه رئيسنا وأفضلنا عقلا وأسدنا رأيا ؟ ألم يقل عمر وهو يجود بنفسه وقد شغله أمر خلافته : والله لو كان سالم مولي أبي حذيفة حيا ما جعلتها شورى ؟ ألم يتول كافور ملك مصر وكان مملوكا زنجيا وفيها عدد لا يحصى من ذرية النبي ونسل على ولم يعترض على ذلك أحد ؟ ألم يول النبى صلى الله عليه وسلم رجالا من الفرس والديلم الولايات والخطط فى بلاد العرب الذين كانوا الي عهد قريب من ذلك يحسبون حسابا دقيقا للفروق القبيلية ، فما ظنك بالعبدان السود ، ومن لا يعرف له أصل من جالية الامم ؟ ألم تك جمهرة أئمة الدين وعلمائه وأصحاب الحديث من أمم شتي ؟

تلك بعض آثار الثورة العالمية التي قام بها الاسلام قبل نحو أربعة عشر قرنا ، فاذا كانت الامم تنقب عن أصولها الماجدة ، وأعمال الخالدة ، وآثار قدمائها فى ترقية الانسانية ، فأي سابقة لامية

تعلو هذه السابقة ، وأي مجد بعد هذا المجد الباذخ ؟ فاذا لم يبحث كتابنا فى القرآن وهو ينبوع كل هذه الاصول العالية ، فأى موضوع للبحث أعظم منه فى نظرهم ، وأعود فائدة منه على أمتهم ؟ واذا كان محمد لاتدرس شخصيته، وهو الذى قام بأضخم عمل سجله التاريخ لواحد من البشر ، فأيه عبقرية يجب أن تدرس وتحلل قبل هذه العبقرية ؟

هذا أمر عظيم يجب أن يتناوله كتابنا بالبحوث المستفيضة ، وأن يتدارسوه وينشروا اعجابئبه بين البشر، لانه أكبر الحوادث التاريخية وأولاها بالعناية، وأفعل فى اعادة مجد هذه الامة من كل محاولة يقوم بها أهل الثقافه منا فى هذا العهد الذى تفخر كل أمة فيه بماضيها ، وتعمل على تسجيل مجدها فى صفحة الوجود بأحرف بارزة .

شروط الانضمام الى هذه الامة

قلنا إن الاسلام قصد الي تأليف أمة عالمية تقوم بثورة عامة على كل عوامل الجمود والفساد التى كانت منصبة على الامم تشل من حركتها ، وتحط من كرامتها ، وتمسكها فريسة مخدرة بين أيدى المتحكمين فيها تحت عنوانات مختلفة، ولما كان لكل جماعة تتألف لبلوغ غاية معينة شروط لابد من توافرها فى كل واحد من آحادها ، فكيف لا يكون لامة تتألف لاصلاح سكان الارض قاطبة شروط يتعهد افرادها بالوفاء بها ؟

نعم وشروط الانضمام لهذه الامة العالمية خمسة : (١) الاسلام (٢) واقامة الفطرة الانسانية ، (٣) واعتبار حكم العقل ، (٤) والاستقامة على طريق الحق ، (٥) والعمل على جعل كلمة الله هي العليا فى الارض .

الاسلام ، أهو دين جديد تزيد به شقة الخلاف بين الشعوب اتساعا ، وتضاف بهصفحات جديدة الي الآلاف المؤلفة منها في العلوم الكلامية فى الارض ؟

لا لا ، الاسلام انما جاء ليرفع هذا الخلاف غير المعقول ، ويمزق هذه الآلاف من الصحف كل ممزق .

الاسلام طهور معنوى للارواح يكشط ماتلبد من التعاليم الضالة على العقول فتحول بينها وبين النور الالهى الذى غمر الوجود كله بامسا كها فى ظلمات التقاليد المقررة ، وغياهب العقائد الموروثة ، وسدف الشروح والمذاهب التي قصد بها تسخير الارواح لشهوات القادة .

الاسلام ليس بدين جديد ، ولاشرح لآراء سابقة ، ولا تأويل لمذهب مقرر من قبل ، ولكنه الدين الذى أوحاه الحق لأول رسول الي أولي الامم فى فجر التاريخ الانسانى ، ثم والي تجديده على لسان جميع الرسل ، فى جميع الشعوب ، لاخراجها من سجن الآراء الضالة ، والمذاهب المصنوعة ، والمنازعات التى جعلت من كل منها عدوا للآخر ، ومأأمرت الابترك التشيع لآراء القادة ، وأن تعيش جميعا على بساط الاخاء ، متكافلة القوى لبلوغ أبعد مرامى الحياة ، متكاملة المواهب لتحقيق العهد الذهبي فى الارض : « شرع لكم

من الدين ماأوصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ماتدعوهم اليه ، الله يجتبي اليـه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وماتفرقوا الامن بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمـة سبقت من ربك الي أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الـكتاب من بعدهم لفى شك منـه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولاتتبع أهواءهم ، وقل آمنت بمـا أنزل الله من كتاب ، وأمرت لاعدل بينـكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولـكم أعمالـكم ، لاحجة بيننا وبينـكم ، (أى لامحاجة ولاخصومة) الله يجمع بيننا واليه المصير » .

« ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء » .

« قولوا آمنا بالله وماأنزل الي ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، وماأوتى موسى وعيسى ، وماأوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقـد اهتدوا ، وان تولوا فانمـا هم فى شقاق فسيكـفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

فالاسلام بنص هـذه الآيات لايدعو الي دين جديد ، ولـكن الى دين الانسانية الاول ، وهو أن يكون الآخذ به خالصا من جميع التقاليد والاوهام والآراء والمذاهب والشيع ، مؤمنا بجميع كتب الله وبجميع رسله غير مفرق بينهم ، ولامتعصب لبعضهم على بعض ، ضاربا بكل صنوف النزاع بين أهل الاديان عرض الحائط لانها تولدت كما يقول الـكتاب من البغى والعدوان بين رؤساء الاديان . ومعنى

هـذا أن يقوم الانسان على مقتضى الفطرة السليمة كما هو الشرط الثانى من شروط الانضمام الي هذه الامة العالمية ، ونصها من الكتاب : «فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وقد شرح النبي معنى الفطرة فقال « كل مولود يولد على الفطرة ، وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» . فراد الاسلام أن يقوم كل انسان على مثل ماعليه الطفل ساعة ولادته ، خالصا من جميع القيود الفكرية ، والربط المذهبية . وليس بعد هذه التصفية العقلية والنفسية مرمى لمريد الخلاص من جميع الاضاليل والاهواء . أليس هذا مرمى أرفع فلسفة وأكمل دستور علمى فى الارض ؟ أليس هذا مبدأ لكل سالك لادراك الحقائق، والسريان فى سرائر الاشياء؟

ولكن هل يطالب الاسلام الناس أن يقيموا على هـذه الحالة من الصفاء المطلق ، والتجرد التام ، فلا تكون لهم عقائد ولا آراء ولا مذاهب ؟

لا ، ولكنه بعد تحقيق هذه التصفية التي هى وسيلة كل طالب لادراك الحق ، ناط هذه الحاجات الروحية والعقلية بالعقل، وربطها بالدليل، فالمسلم بعد هذه التصفية أن ينظر هل يقوم الكون بلا قدرة موجدة ، وهل يقوم الانسان بلا روح مدبرة، مثله كمثل المدر والحجر، وهل تفنى هـذه الروح بفناء الجسد، أم تبقى بعده فى عالم أرفع من هذا العالم ، وماهى أصلح النظم لتدبير شئون الجماعة، وأكمل الاساليب فى الحكومة ، وأعـدل الاصول فى المعاملات ، وأحكم الدساتير

فى طلب العلم ؟

لا ، لا يستطيع أن يقوم مجرداً من كل هذا ولكن الطريق اليه العقل ، وقد قدس الاسلام حكم العقل الى حدأن أمرأهله أن يؤولوا نصوص الكتاب ان دل ظاهرها على مخالفتها له ، وليس بعد هذا احترام لسلطانه فى مذهب من مذاهب البشر .

وقد زاد فى سلطان العقل الي حد لم تقل به ملة الي اليوم ، فقرر عدم قبول إيمان المقلد ، ولو كان مقلداً فى حق ، وطالب كل معتقد أن يعقل عقائده وأن يقيم على صحتها الدليل، كل على قدر وسعه .

وأما الشرط الرابع فهو الاستقامة، قال الله تعالي : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة » وقال : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير » ، والاستقامة فى الاصطلاح الاسلامى هى التخلق بأخلاق الله ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « تخلقوا بأخلاق الله » ، وإنما أخلاقه القيام على الصراط السوى كما وصف بذلك نفسه فقال : « ان ربى على صراط مستقيم » . وقد فصل هذا الاجمال فى آيات كثيرة ذكرت فيها صفات العدل والرحمة والصفح الجميل، ان كان يقوم فى الاصلاح مقام العقوبة، وايثار الا كمل من كل شيء ، وتوخى الارفق فى كل محاولة ، وتحرى الاحسان فى كل عمل ، والبر بالضعيف ، والاصلاح بين الناس ، واستعمار الارض، واقامة العمران وتوطيد دولة الحق الخ . .

أما الشرط الخامس وهو الانتداب لجعل كلمة الله فى العالم هى العليا، فهو الذى دفع رجالا من متعصبة الامم لنقد الاسلام من هذه الناحية .

ولاأدرى كيف يسوغ لهم هذا النقد فى عصر أصبح الانتداب فيه للتدخل فى شؤون الامم سنة محترمة بين الدول ؟ على أن هنالك فرقا عظيما بين الانتدابين ، فالانتداب الاسلامى كان أمرا لابد منه ، ان لم يقم به المسلمون قامت به أمة أخرى لازالة حالة تحجر وفساد عالمية عامة كانت لايمكن أن تزول إلا بقارعة تحل بالعالم فتحطم كل ماأقيم فيه على أساس الغصب والقهر والتضليل . بهذا جرت سنة الله فى العالم ، وعليه قامت طبيعة الاجتماع قديماً وحديثا، رضى الناس أم سخطوا . ولكن الانتدابات البشرية التي يتردد صداها اليوم تقوم على أساس مادى محض ، فأين هى من الانتداب الالهى الذى قام به المسلمون وكان أساسه اعلاء كلمة الله على كلمة الشيطان التي كانت ترفرف على جو الارض فتمسك الشعوب فى أوهاق القصور والجهل؟ فهل حابى مؤرخو الفرنجة المسلمين حين قالوا أن اكتساحهم الأرض كان من آثاره خروج شعوبها من الظلمات الى النور ، واستقامتها على طريق التكمل حتي وصلت إلي مدنيتها الحاضرة ؟ (راجع كتابنا الاسلام دين عام خالد فى الصفحات من ٥٦ الى ٦٠ ومن ١٠٣ الى ١١٠ ومن ١٥١ الي ١٥٩) . وأى دليل تريد على أن الانتداب الاسلامى كان الهيا أكبر من آثاره الخالدة ، وآياته الباقية إلى اليوم؟

لاجرم إن أمة تتألف على هذه الاصول العالمية من التجرد عن الضلالات الموروثة ، والجرى على سمت الفطرة الخالصة من الشوائب ، وإقامة سلطان العقل ، والاستقامة على الصراط السوى بالتخلق بأخلاق الله ، مع عدم الاعتداد بالفروق الجنسية والمغوية

ولابأى اعتبار من الاعتبارات التي أوجدتها الاوهام القومية ، فهى أمة عالمية مختارة لاحداث أكبر الاحداث الاجتماعية والادبية فى الارض . فان اتفق أنها لم تنتدب لرفع الآصار عن كواهل الامم، وكسر المقاطر التى فى أعناقها ، والاغلال التي فى أرجلها، لرفعتها قيمتها الذاتية الى بلوغ هذا الشأو ، وللاذت بها الامم تقتبس من نورها ، وتستمد من حياتها، محفوزة بدوافع من غريزة التقليد وحب البقاء .

ثم لاعجب مع قيامها على هذه الاصول العالية أن يبلغ ملكها بعد ثمانين سنة من تألفها إلى مايفوق مابلغه ملك الامة الرومانية فى ثمان مئة عام ، وأن تنال بعد قرنين زعامة العلم والسياسة والفلسفة والفنون فى العالم بأسره . أفلا يدل هذا الاثر التاريخى الضخم على أن الاصول والمبادىء التي كانت تقوم عليها تلك الامة كانت مستمدة من ينبوع الخير المحض بحيث تصل بذويها الي أعلى ذروة من المجد فى سنين معدودة لاتتجاوز حياة الفرد الواحد ، وتجعلها فى حالة تصلح معها أن تكون قدوة للمقتدين، وأسوة للمتأسين ، وعلم هدى يهتدى به من دفعت بهم العوامل المفسدة الي مكان سحيق ؟

مميزات الامة الاسلامية

قلنا أن الامة الاسلامية عالمية لامحلية ، تألفت على أعم المبادىء الانسانية ، وأشمل الاصول الاجتماعية ، وانها كلفت بالقيام بثورة عامة لاخراج العالم من حالة تحجر كان فيه ، الي حالة حياة وحركة

طبيعيتين ليتابع طريقه في الترقي ، ويصل الي ماقدر له من الغايات البعيدة . والاغراض القصية . فما هي مميزات هذه الامة التي انفردت بها بين أمم الارض قديما وحديثا ؟

أولي تلك المميزات الانتداب للدعوة الي توحيد الاديان السماوية كافة ، في جو لم يكن فيه لهذه الدعوة خيال في مخيلة أي مصلح في الارض ، ولم تكن تلك الوحدة مرغوبا فيها حتي في أعم الامور المادية التي تعود على الناس كافة بالخير والبركة .

وقد بنى الاسلام محاولته هذه على أصل يمكن التسليم به لاول وهلة ، وهو أن الاديان السماوية لا يعقل أن تكون متخالفة في جواهرها مادام ينبوعها واحدا وهو الله تعالى ، والغرض من إيجادها واحدا ، وهو تربية الانسانية واقامتها على طريق التكمل ، في وحدة شعوبها في الغرائز الفطرية ، والميول الجبلية. فاذا شوهد في أديانها تخالف فانما جاء ذلك من بغى قادتها ، وذهابهم في تأويلها مذاهب شتي . من هنا نشأ بين هذه الاديان الشقاق ، وهبت عواصف المنازعات ، وذهبت كل أمة تؤيد مالديها بالحديد والنار .

وبما أن مصلحة الانسانية تقضى عليها بالتوحد في دياناتها كما هي متوحدة في أصلها ، ونواميس اجتماعها ، فيجب على أممها أن ترجع الي ذلك الاصل القيم ، ليبطل من بينها التناحر عليها ، وتفرغ لاستكمال أسباب رقيها ، وبلوغها الغايات التي خلقت لادراكها . أما هذا الاصل الاصيل فهو مقتضى الفطرة الانسانية التي تتفق فيها الاجناس قاطبة ، وتؤدي الي كل ماهو حق وصالح وجميل من الامور ، مدفوعة اليها

بخصائصها الذاتية دون تعليم معلم ولاهداية مرشد. قال تعالى : «ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » (الآية) ، وفيها تنبيه للشعوب الي وحدة أصلها ، ومن كانوا كذلك وجب أن يكونوا في مجموعهم أمة واحدة ، فقال تعالي : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » فما الذى أوجب هذا الاختلاف رغما عن هذه الوحدة فى الاصل ومقتضى الفطرة ؟ فقال تعالي : « وماختلف فيه إلا الذين أوتوه (أي الكتاب) من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم» ، فبين الله بهذه الآية أن علة الخلاف هم رؤساء الاديان الذين انتحلوا الوساطة بين الله وخلقه ، وسلمت لهم الشعوب أنفسها يتحكمون فيها ماشاؤا ، فنعى الله عليها استسلامها اليهم ، واهدار عقولهم فى سبيل اشباع مطامعهم، فقال : « إذ تبرأ الذين اتبعوا (بالبناء للمجهول) من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب . وقال الذين اتبعوا (بالبناء للفاعل) لوأن لنا كرة (أى رجعة الى الدنيا) فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار » . وقال تعالى حاكيا مايقوله المقلدون وهم يعذبون على تقليدهم الاعمى : « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » . وقال تعالي: « كلما دخلت أمة (أى فى جهنم) لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون» ، أى أن لمن أضلوهم ضعفا بما ارتكبوا من إثم اضلالهم ، ولمقلديهم ضعفا عما أهملوا من عقولهم ، وهذا أبدع مايستطاع التأثير به في

النفوس لتكريه الامم فى الوسطاء بينهم وبين خالقهم، ولفتها لاستعمال عقولها فيما خلقت له ، وعدم الاستخذاء للمتحكمين فى أرواحها . وهذا ثانى المميزات لهذه الامة العالمية لم تشاطرها الفضل فيها أمة الي اليوم ، اللهم إلاماقضى به التمرد العلمى فى العهد الاخير .

وقد قرر القرآن أن هذا الخلاف الذى أوجده رؤساء الاديان بغيا بينهم هو الذى كان يدعو الي ارسال النبيين فى خلال العصور ليعملوا على رفعه، واحالة الناس الي الوحدة الدينية ، فقال تعالى : « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » .

ثم نص على انه بعث خاتم النبيين لابدين جديد ، ولكن بدين الانسانية الاول الذى غير وبدل فيه المتأولون افسادا له ، فقال تعالي : «شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا » ، ونوح هو الاب الثانى للبشرية ، وهو الذى قام على رأس النوع الانسانى بعد الطوفان .

فوظيفة خاتم المرسلين محمد كانت العمل على إرجاع دين الانسانية الاول الى وحدته ونقائه ، لابهدم مالدى الامم من الوحى، ولكن بتصديقها جميعا والهيمنة عليها ، أى ومراقبتها والمحافظة عليها من تأويل المتأولين ، وتحريف المحرفين ، فقال تعالى : « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب (أى من الكتب السماوية)، ومهيمنا عليه (أى ومراقبا عليها)، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » .

ثم أمر المؤمنين به أن يؤمنوا بكتب الله جميعا ورسله كافة ،

فقال : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » .

وليسمح لي القراء أن أعيد عليهم ذكر آية سبق لي الاستشهاد بها مراراً،لانها روح هذا البحث، والاصل الاصيل فى هذا الدين ، وهى التي تنص على أعظم إصلاح عرفه البشر الى اليوم ، وهى تحت هذا النور القوى من البيان فى هذا الموطن تعتبرأقوى عامل فى نشر الاسلام وهى :

« قولوا آمنا بالله وماأنزل الينا، وماأنزل الي ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، وماأوتى موسى وعيسى ، وماأوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

ثالث مميزات الامة الاسلامية العالمية استباحة اقتباس كل حسن ونافع من أية أمة من الامم ولوكانت أعدى أعدائها، واستجماع ماتفرق منهما فى الشعوب تحقيقا لشخصيتها العالمية العامة ، قال الله تعالي : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الالباب » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذ الحكمة ولايضرك من أى وعاء خرجت » ، وقال : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها » . فتأمل

فى جمال هذا التعبير بالضالة، وهو الشيء الذى يفقده الانسان ويظل يبحث عنه حتي يجده ، فهل يمنعه أن يسترد ضالته أن تكون لدى كافر أوعدو ؟ وقد جرى المسلمون على هذا الاصل فلم يدعوا حسنا ولانافعا فى أمة إلا اقتبسوهما، وأقاموا منهما لانفسهم وللعالم كله مدنية ترى فيها كل الشعوب ثمرات ثقافتها يانعة جنية ، وصورة جهود آبائها حية غنية، فتقبل عليها ، ولذلك دخل الناس فى هذا الدين أفواجا ، وانتشر حيثما وصل أهله ، فتراه فى كل مكان حتي فى الصين ، وفى جزر وبقاع لاترد على بال الاكثرين . وقد حافظ الاسلام على هذه الصبغة العالمية إزاء العلم والفلسفة فى جميع عهوده، أيام تفرده بالسيادة الارضية ، وأيام ضعفه فى العصور المتأخرة .

رابع مميزاتها حرية العقل والعلم، فقد رفع الاسلام من شأنهما الي حد أن جعلهما مناط الاعتقادات، وأساس المعاملات ، وأباح لاهله تأويل النصوص الكتابية إن دل ظاهرها على خلاف أحكامهما . فلم يجد المسلمون أمامهم حائلا دون اقتباس كل ما صادفهم من الآراء العلمية ، والمذاهب الفلسفية ، ولم يتحرجوا أن يتناولوا ذلك عن أية نحلة كانت حتي الوثنية منها . وهذه ميزة لم تتحل بها ملة قبل الاسلام . لذلك بلغت مدنيتهم الي مدى لم تبلغه مدنية قبلهم، وفى أمد لايتجاوز عمر الفرد الواحد .

خامس مميزاتها اعتبارها التكاليف الدينية مشروعة لتطهيرها ، وإيصالها إلي غاية كمالها ، لا لتسخيرها وتقييد إطلاقها ، قال الله تعالي : « مايريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم، وليتم

وليتم نعمته عليكم» وقال: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر».

فهذه المميزات دفعت بالمسلمين أحراراً مطلق القوى والمواهب فى باحات الرق الصورى والمعنوى، فنالوا منها خير ماوجدوه موزعا بين الامم، وحفزتهم لاستثارة ماثوى بين جدران المكتبات الاجنبية من معارف الاوائل التى أهملت دراستها لغلبة قادة الاديان على أهلها، وكراهتهم أن يفتك الناس بوساطة الحرية العقلية والعلمية من القيود التي كبلوهم بها، فاستولي المسلمون على تلك الكنوز وتدارسوها وجمعوا بين أشتاتها، وعملوا بأحسن ماعثروا عليه فيها. فشهد الناس أجمعون أن حركة هذه الامة عالمية علمية، لا محلية دينية، على النحو الذى ألفوه فى الاديان المعروفة لديهم، حتى لو كانت أمة تألفت لمحض إحياء العلم والفلسفة لما استطاعت أن تفعل أكثر من هذا.

فهذه المميزات الخمس وجهت هذه الامة توجيها عالميا، حتى لا يجد أحد حرجا من الاشتراك فى إقامة بنيانها وتشييد عمرانها.

وقد جرت العادة فى الامم المحلية أن تمتص دماء الامم التي تقهرها، وتحولها الي مواطنها، لتتضخم على نفقتها، وتقوى باستنقاد حيويتها، ولكن هذه الامة العالمية اعتبرت العالم كله وطنا لها فأبقت كل مورد فى موطنه، وعمدت جاهدة الي تكميله، والذهاب به الي أبعد غاياته، فعمرت البقاع التي وطئتها أقدامها عمرانا لم تكن تعهده من قبل، بما نشرت فيها ما كانت كل أمة تحتكره لنفسها من وسائلها الفنية،

وذرائعها الذاتيـــة ، فازدادت كل بقعة رقيا على رقيها ، واستهدفت شأوا أبعد من شأوها .

ننظر في الفصل التالي في المثل العليا لهذه الامة العالمية ان شاء الله .

المثل العليا للامة الاسلامية

لـكل انسان حي مثل أعلى يسعى لتحقيقه يستمد منه القوة كلما أدركه الونى لمـكافحة الحوادث ، ومكاوحة الـكوارث ، ويستلهمه الصبر على الشدائد ، والجرأة على اقتحام العقبات . كذلك لـكل أمة في مجموعها مثل أعلى تخوض في سبيل الوصول اليه الغمرات ، وتستهين في طريق بلوغه بالهلـكات . وقد تتفاوت الآحاد والجماعات في مثلها العليا تفاوتا لا يقف عند حد . فمن الآحاد من يكون مثله الاعلى الوصول الي الثروة . أو المجد، أو الي الشهرة ، ويندر من يندفع في هذه السبل متوخيا الاصول المشروعة ، ويكثر من لا يبالي بالوسائل فيمضى الي مايريد قدما لا يـكترث لشيء حتى الجرائم المروعة ، والمخازى الشائنة . كذلك الامم ينـدر أن تـكون في توثبها لموافاة غاياتها مترسمة خطوات الـكاملين ، ولـكنها على وجـه عام لا تأبه في ادراك مناها بأية السبل سلـكت اليها .

وقـد جعل الله للمسلم مثـلا أعلى مقيسا على مهمته العالمية ، لا يعقل أن يكون لفرد مثـل أعلى منـه مهما حلق في جو الخيال ، واستلهم العلم والحـكمة ، وهو أن يكون (خليفة لله) في الارض ؛

فقال تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم مالا تعلمون ، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لاعلم لنا إلاما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم باسمائهم ، فلما أنبأهم باسمائهم ، قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض ، وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون ؟ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاابليس . الآية » .

هذه المحاورة تمثيل لما جاش فى صدور الملأ الاعلى عند خلق الانسان ، وماألهموه من الاجابات الالهية ، وفيه تصريح بأن الانسان مغروز فى جبلته من أنواع العلوم والمعانى والوسائل مالاتصل الملائكة اليه ، ومن كان كذلك صلح أن يكون خليفة لله دونهم فى الارض ، فاطمأنت قلوبهم وسجدوا لآدم سجود اجلال لاعبادة .

وكذلك جعل المثل الأعلى لجماعة المسلمين تحقيق معنى هذه الخلافة، فقال تعالي : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض » .

فهذا المثل الفردى والمثل الاجتماعى أسمى مايتخيل من مثل أعلى فى الارض ، وأكرم مايدفع الافراد والجماعات الي بلوغ أبعد الغايات، وأقصى الكمالات، من طريق الاخلاق النبيلة ، والاغراض الشريفة من أى مثل غيره .

فإن الفرد متي علم انه خليفة الله في أرضه، أي نائب عنه فيها، اضطر

أن يتخلق بأخلاق موكله من العلم والنزاهة والعدل والرحمة والمساواة بين الناس والسعي لاصلاح شؤونهم والبر بمؤمنهم وكافرهم ، بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ، وعدم التقصير في تربيتهم وتكميلهم ، بعيدا عن كل الصفات الحيوانية من القسوة والبطش والغشمرة والعصبية والصلف والجهل والجبرية ، وهي مهمة عالمية محضة كما ترى فان الله رب العالمين ، لارب قوم دون آخرين ، ولامناص لخليفته من أن يتحرى طريقته في التنزه عن الاغراض، والترفع عن السفاسف، واستهداف شرائف الامور ، وكرائم الصفات ، وتوخي أقرب السبل وأصلح الاساليب في جميع الاعمال ؟ ثم إن هذه الخلافة يمتد سلطانها على جميع الكائنات الحية والجمادات، فان لكل منها كمالا لابد من إيصاله اليه .

وإذاذكر الانسان انه من سمو الفطرة ، وشرف التكوين بحيث تسجد له الملائكة، فأي وازع أقوى من هذا يزعه عن مقارفة الرذائل، ومقاربة الخسائس ؟ وأي دافع أشد منه يدفعه لطلب الغايات البعيدة ، وبلوغ النهايات القصوى ؟

ثم إن هذا المثل الاعلى حق في ذاته من ناحية فلسفية ، فان الكائن الذي يحمل بين جنبيه قلبا مشحونا بأكرم العواطف ، وأكمل الغرائز ، وفي رأسه عقلا مليئا بأن يتعرف هذا الكون ، ويستبطن جميع أسراره ، ويسخر مايرى تسخيره من قواه العظيمة ، وليس يوجد في الوقت نفسه كائن أعلى منه كعبا في الطبيعة ، يعتبر بحق وبدون تردد أينع ثمرة للقدرة الخالقة ، وأبدع صورة للمدبر

الأعظم، ولوفى هـذه الـكرة المحدودة. ولوأضفت الي هذا مامنحه من السلطان البعيد المدى على الطبيعة ، والقوة على التصرف المطلق فى مواردها، وماوهبه من وسائل التدبير والتربية لـكائناتها ، تحققت انه خلق ليتولي حـكومتها ، ويضطلع بسياستها ، ويبلغ بهـا أقصى مايصل اليه كمالها . فـكيف بعدهذا كله لا يدعى عن جدارة واستحقاق بخليفة الله فى أرضه ، ونائبه على خليقته فيها ؟

فاذا عنى الانسان باحياء هذه الحقيقة فى نفسه ، وبثها فى معناه ، فـكيف لاترفع بضبعه عن الدنايا ، وتسمو به الي أعلى مكانات المجـد الصحيح ، وهل يهون عليه بعدها أن يشاطر الحيوانات فى غفلاتها ، صادفا عن الغايات الشريفة والاغراض الـكريمة ؟

كذلك الامة صاحبة الخلافة الالهية، يجب أن تمـتن بسنة الله فى تربية عباده، والبر بهم، والسعى فى تـكميلهم لاتعبيدهم ، والتيسير لهم لاالتعسير عليهم ، وتحرى أدق نظم العدل ، واستخدام أضبط موازين الحق ، والتوجه للوجود على انه مظهر القـدرة الالهية ، ومصدر الأنوار العلوية ، لاعلى انه مسرح الميول البهيمية ، ومرتع الشهوات الجسدانية ، ومجال الصفات الوحشية ، كل هـذه كما ترى أغراض عالمية لاعملية ، لم توصف بها امـه قبل الاسلام ولابعده الي هذا اليوم، حيث لانزال نرى الناس افرادا او جماعات كل يعمل لنفسه ، ويجر الزيت الي قرصه ، غير مبال بما يفضى اليه عمله من تدهور الاخلاق ، وفساد النظم ، وتفاقم شهوات الفئام ، وتناحر الطبقات.

ولما كان هذا المثل الاسلامي الاعلي سواء أ كان للافراد ام للجماعة

يؤدى الي التي هى أقوم من طرق الحياة ، والي التي هى أكمل من نظم الاجتماع ، فقد ناط الله بهذه الامة مهمة خطيرة تعتبر وحدها مثلا أعلى لاعظم أمة يطلب اليها أن تتخلق بأخلاق الله ، ناحيا بها هى الاخرى منحى عالميا ، وهى أن تكون (شاهدة على الناس) في غلوهم وتقصيرهم، وافراطهم وتفريطهم ، فقال تعالي : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » .

هـذا المثل الاعلى لايصح أن يكون لغير أمة عالمية تتولي قيادة العالم كله ، لاجماعة محدودة منه ، فان حياة الجماعة المحدودة لا تقتضى أن يكون مثلها الاعلى خلافة الله فى الارض ، ولا أن تكون فى قيامها على صراط العدل المستقيم شاهدة على الناس كافـة ، بل يهمها أن تكون الامم بعيدة عن طريق الكمال لتسرع عوامل الفساد اليها، فتتمكن هى من تدويخها وامتصاص حياتها ، بل هى تبث تلك العوامل بيديها متذرعة لذلك بكل ماأوتيت من حول وحيلة، جاهدة فى انماء جراثيمها لتصيب تلك الجماعات الغافلة بكوارث تقتضى تدخلها فى شؤونها، والقبض على مخنقها، بحجة المجاورة أو بحجة وقوفها عثرة فى سبيل المدنية الانسانية ، فتزيد تلك الامم الواقعة فى هذه الاحابيل فسادا على فسادها ، بل من الامم من فنيت على بكرة أبيها تحت نير آسريها من الامم الاستعمارية . هـذا هو الذى يتضح جليا لكل من يتتبع تاريخ الامم قديما وحديثا، وينعم فى دراسة أسباب تبسطها فى الارض .

ولكن الامة التى تحليها شريعتها بمثل هـذه الاصول الكريمة

من قوله تعالي : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين » وقوله : « ولا يجرمنكم شنآن قوم (أى ولا تحملنكم كراهتكم لقوم) على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ، وقوله : « ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها » وقوله « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » . ثم تحكى هذه الشريعة لها حال الامم التى أصابها الانحلال ، معللة ذلك بارتكابها أثم الفساد فى الارض كقوله تعالى : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الارض، أولئك هم الخاسرون » ، وقوله : « واذا تولي سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد » ، وقوله : « ويسعون فى الارض فساداً والله لا يحب المفسدين » ، وقوله : « ان الله لا يصلح عمل المفسدين » الخ

قلنا أن الامة التى تحليها شريعتها بمثل هـذه الاصول ، وتزعها عن الافساد بمثل هذه المثلات ، انما تؤهلها لأن تقوم بحق خلافة الله فى العالم ، متخلقة بأخلاقه تعالي من السعى فى اصلاح خليقته وتكميلها، وإيصالها الى أبعد ماتتخيل أن تصل اليه من مراتب الكمال الصحيح، والوجود السليم.

وقد قام المسلمون بحق هذه الخلافة فى عهد قوتهم فملأوا الارض علما ونوراً وعمرانا ، وخلصوا أهلها من الآصار التي كانوا يرزحون تحتها ، ودفعوهم فى طريق التكمل حتي شهد مؤرخوهم بأن المسلمين كانوا أساتيذهم ومعلميهم ، وموجدى عوامل كل نهضة دخلوا فيها

من بعد . فهل حابى المسلمين مؤرخو تلك الامم حتي المعاصرين منهم الى هذا الحد ، ورفعوهم الى مكانة لم تحصل عليها أمة الي اليوم في الارض ؟ أليس هذا تحقيقا ماديا محسوسا لمعنى الخلافة العالمية ، ومصدقا لقوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ؟ » .

المنطق الاجتماعى لهذه الامة

ربما ظهر هذا العنوان غريبا لبعض القارئين ، ولكن أمة تتألف تألفا عالميا على غير مثال سابق ، خلواً من الاعتبارات الجنسية واللغوية ، والوشائج القومية ، والعوامل المحلية ، ويوكل اليها احداث ثورة عامة على جميع النظم الاجتماعية ، والعادات الطائفية ، والعقائد الوراثية ، لتحل محلها الفطرة الانسانية التي يشترك فيها الناس كافة ، وتجتمع عليها الامم عامة ، توحيدا لوجهتهم وغايتهم ، وتطهيراً لعقولهم وقلوبهم ، وتخليصا لها مما ران على صدورهم من بقايا عصور الجاهلية ، والضلالات المحلية ، والشروح والتأويلات والتحريفات الدينية ، مما أوجبه تنازع الطوائف وتنافس الفرق ، قلنا ولكن أمة تتألف على هذا النحو لاحداث أكبر الاحداث العالمية لا يعقل أن يدفع بها لتحقيق هذه المهمة الخطيرة دفعا بغير دستور ينظم محاولاتها ، ويقوم اتجاهاتها ، ويطأمن من غلوائها ، ويقيد من اطلاقها ، ويعدل من حماستها ، ويكشف لها من أسرار الاجتماع البشرى ،

ومساتير الوجود العالمي، ماهي في أشد الحاجة اليه في حركاتها ، وخاصة في وقت لم يكن للاجتماع علم محرر ، ولا للعمران نظام مقرر .

أجل، وإن أول أصل وضعه القرآن من هذا المنطق الاجتماعي الذي انفرد به، أن العامل الحقيقي الذي يصد الناس عن قبول النور الذي يحمله المصلحون اليهم، هو الرين المتلبد على القلوب من جراء ما اكتسبت من الآثام ، والكسف التي غشيت العقول من طول ماتسممت بالضلالات ، والجهل الذي حط بكلكله على الصدور ، فصرفها عن فهم الامور ، لذلك أكثر الكتاب من تنبيه أهله الى أن علة استعصاء الناس عن قبول الحق الذي يفضون به اليهم هي ماأشرنا اليه فقال : « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » والرين هو الدنس . وقال في آيات لا تكاد تحصى : « ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » « ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » « ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » .

وقد زاد الكتاب هذا الاجمال بيانا والنبي في معمعان الدعوة ، وأصحابه يداونونه في بثها في النفوس ، فقال : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا»، أي لعلك قاتل نفسك غما وكمدا ، وقال : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ؟ «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين». وقال: « وان كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقا في الارض أوسلما في السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » ، وقال سبحانه: «انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » .

ثم زاده تعديلا في اندفاعه بتحديد مهمته ، ورفع التبعة عنه

فقال : « وماجعلناك عليهم حفيظا وماأنت عليهم بوكيل »، « وماأنت عليهم بجبار »، « فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » .

فهذا وأمثاله فى الكتاب الكريم عدل من حماسة المسلمين ، ورد من تطرفهم ، وملأهم علما بأن أعداء دعوتهم الرحمانية فى الواقع هو الرين المتلبد على القلوب ، والجهل الحاجب لانوار النفوس ، وضعف العقول عن إدراك الحقائق ، وقلة فقه الامور . وهذه أعداء لايفل من غربها الحديد والنار ، ولكن الذى يهزمها نشر العلم وبث النور فى كل مكان . وهذا هومذهب الفلسفة ، والاسلوب الذى توخاه المسلمون حيثما حلوا ، فلم يجبروا أحدا على ترك دينه ، ولم يهدموا معبدا ، ولم يقتلوا كاهنا ولامتبتلا ، ولكنهم نشروا العلم والنور بكل ماأوتوا من قوة .

الاصل الثانى من المنطق الاجتماعى للاسلام، هوأن الامم فى تخالف عقولها،وتفاوت أفهامها ، وتأثرهابعوروثاتها لايمكن أن تكون أمة واحدة ، وأن هذا الاختلاف هو مراد لله ، لانه أقوى عوامل التطورات الاجتماعية التي لابدمنها لابلاغ هذا النوع الى كماله المنشود فقال تعالى : « ولوشاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولايزالون مختلفين الامن رحم ربك ، ولذلك خلقهم » ، وقال : « ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم (اى ليختبركم فيما منحكم) ، فاستبقوا الخيرات (أى فتنافسوا فيها) . الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

الاصل الثالث من هذا المنطق، هوأن التدافع بين الامم لازم

من لوازم الاجتماع لما يستدعيه من الاصلاح المتبادل ، فقال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » . وهذا فى الواقع مانص عليه علم الاجتماع وسماه (دارون) بتنازع البقاء لكيلا يبقى إلا الأصلح، ودعا جملة ذلك بالانتخاب الطبيعى ، وهو مانص عليه الكتاب الكريم فى قوله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون » .

ومراد الكتاب بالصالحين هنا الصالحون فى عرفه، من الذين تخرجوا فى مدرسته، من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وأبى عبيدة وخالد وسعد ابن أبى وقاص وعمرو بن العاص وغيرهم من قادة الحروب ، ومصلحى الجماعات ، وبناة المجد الخالد ، وغطارفة الثورة على التقاليد ، لا الصالحون فى عرف الناس اليوم من المستضعفين المستكينين المنقطعين للعبادة. الذين لا يجلبون خيرا ولا يدفعون شراً ، ولا يغنون عن أنفسهم ولا عن غيرهم شيئاً ، ولا يصلحون لادارة شؤونهم فضلا عن الانتداب للمهام الخطيرة، والخطط العالمية ، فهؤلاء لا يحسنون وراثة آبائهم بله وراثة الارض .

فانظر كيف أفضى الله لهذه الامة العالمية بسر من لب العلم الاجتماعى، لم يقف عليه العلماء إلا بعده بثلاثة عشر قرنا . فكشف فى كلمات قليلة وفى بيان باهر أرقى الآراء العلمية التي اعتبرت فى القرن التاسع عشر من أكبر فتوحات العقل الانسانى .

وقد يبطل مابناه دارون على هذه النواميس من مذهبه فى نشوء

الانواع الحية ، ولكن هذه النواميس نفسها تبقى حقائق ثابتة لايتطرق اليها الشك . وقد رأيت أن القرآن سبقه اليها بنصوص لاتحتمل التأويل .

الاصل الرابع من هذا المنطق الالهى، أن للاجتماع سننا لاتتغير بتغير الازمان ، ولاتتحول بحؤول الحدثان ، فقال تعالي : « فهل ينظرون إلاسنة الاولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » ، وقال : « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » ، وقال : « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم والله عليم حكيم » .

هذا الفتح العلمى لم يهتد اليه علماء الاجتماع البشرى،ولم يدون إلافىالقرن التاسع عشر،أي بعد وحىالقرآن بثلاثة عشر قرنا ، وكان الناس قبله فى عماية من هذا الامر،يحسب كل فاتح ومتغلب انه يستطيع أن يقلب العالم من حال الي حال بما أوتيه من حول وطول ، فلايلبث أن يساوره الفشل فيموت غرقا فى الدماء التي سفكها ، ولات ساعة مندم .

الاصل الخامس من هذا المنطق العلوى، هو أن تغيير أحوال أى مجتمع يجب أن يسبقه تغيير فى نفسيته ، فقال تعالى : « إن الله لايغير مابقوم حتي يغيروا مابأنفسهم » وهذا من ألزم التعاليم لأمة تنتدب للدعوة إلي توحيد الاديان ، والثورة على كل قديم بال، من بقايا الضلالات الاولي ، ولتجديدعقلية النوع البشرى تجديدا يتناسب وسنه من الاجتماع ، ليكون عمل هذه الامة المنتدبة للاضطلاع

بهذه الاعباء الخطيرة متجها قبل كل شيء الى التأثير في نفسية الشعوب التي يريد إصلاحها ، وهذه النفسية لاتتغير الابعوامل أدبية محضة كالتي تتنزل من رؤيتها القدوة الصالحة ، والنظم الحكومية العادلة ، والدعوة الحكيمة الهادئة ، فأمر المسلمون أن يكونوا من ذلك كله على أكمل ماتكون عليه أمة صالحة ، فأسسوا في البقاع التي احتلوها حكومات آست بين الكافة في العدل ، وساوت بينهم في الحقوق والواجبات ، فلم تر الشعوب التي حكموها تفاوتا في المعاملة بين قاهر ومقهور ، ولا بين شريف ووضيع ، ولا بين مسلم وغير مسلم ، بل آنسوا انهم قد اكتسبوا حقوقا لم تكن لهم على عهد حكوماتهم الوطنية، حيث كان التفاوت بين الطبقات ، والتمايز بين الطوائف ، والتباين بين البيوتات على أشد ما يكون عليه من محاباة الاقوياء ، وتعبيد الضعفاء ، مما أفضى الي احتكار الأعلين لكل سلطان ، واستيلائهم على جميع موارد الثروة ، ورزوح المستضعفين تحت نير العبودية والفاقة المدقعة .

فكان هذا التخالف بين الحالين في نظر هذه الشعوب داعيا لدخول الناس في دين الفطرة أفواجا ، فأصبحوا أغير على هذا النظام العالي من أهله أنفسهم ، فأيدوه بقلوبهم وأرواحهم ، وانتشر الاسلام في مثل لمح البصر في ارجاء الارض ، وقامت له فيها دول كان لكل منها أثر في اقامة بناء صرحه الخالد ، وبث مدنيته الفاضلة .

هذا المنطق الاجتماعى الاسلامى هو الذى أخذ بيد طائفة ساذجة، خرجت من أعرق بيئة جاهلية محرومة من كل نور علمي ومدني غير

ماالنبيهامن وحي سماوى ، تملى على العالم أصول العلم ، وقواعد الحكمة ، وأتت فى سنين معدودة بأكبر عمل سجله التاريخ لأمة ، والأعدل أن يقال بعمل لم تعمل مثله أمة، ولم يطف خيال منه فى رأس أكبر مصلح فى الارض ، واعتبرت مثلا يضرب فى المساواة بين الغالبين والمغلوبين ، وفى العدل بين الضعفاء والاقوياء ، وفى الاضطلاع باعباء حكومة عالمية ، وفى القيام بتبعاته على أقوم الاصول ، وأحكم الاساليب، بحيث أثمر فى سنوات معدودة للعالم كله مالم يثمره أى حكم غيره فى قرون كثيرة،فاذا كنا ونحن نملك فى القرن العشرين أدق موازين التقدير لاندرك هذه الفروق ، ولاننوه بغرابتها ، ولانظهر كل مافيها من روعة واعجاز ، باعتبار انها من الامور الدينية التى لايأبه بها أصحاب العقول الجديدة ، كنا جد واهمين ، لان أئمة الجديد من أهل الغرب أنفسهم لايأنفون أن يشتغلوا بهذه الشؤون ، وهم لوعلموا انها تبلغ من السمو الي هذا الحد لسمعنا لهم بها دويا يملأ الخافقين ، ولتألفت لبحثها جمعيات ومؤتمرات ، ولاشتغلت بنشر ابحاثها التيارات الاثيرية ، فهل نكون أقل منهم اهتماما بما يمسنا ويتعلق بحياتنا ومجدنا ؟

الحوافظ الاجتماعية للامة الاسلامية

كل مجتمع عرضة لان تتطرق اليه العلل كما تتطرق الي الكائن الحى ، ولكليهما مناعة ترد عنه العاديات الي المدى الذى تسمح به

بنيته الاصلية ، فاذا استشرت تلك العلل عليهما أهلكتهما ولا كرامة .

هذه العلل الاجتماعية ضروب شتى ، منها علل اقتصادية تتأثر بها مواردها المعيشية فتظهر أعراضها فى مبادلاتها ومعاوضاتها ومعاملات آحادها ، فيحدث فيها من جرائها اضطراب خطير يعوز العلاجات المعجلة والوسائل الفعالة .

ومنها علل اجتماعية تنتاب طبقاتها وطوائفها بسبب فساد أصيل أو عارض فى نظمها ، فتضطر لتنقيحها أو تبيد .

ومنها علل مدنية تأتيها من ناحية الافراطات والتفريطات التى تدفع اليها حياة الترف، فتنشأ منها حالة مرضية تستنزف ثروتها ، وتعدو على رجولتها ، فتحتاج لمكافحتها بالملطفات الشديدة الفعل ، وإلا حقت عليها الكلمة فأصبحت فى الغابرين .

ومنها علل أدبية أكثر ماتحل بها من ناحيــة تأبيها عن تجديد تراثها الادبي، وجمودها على ماأخذته عن آبائها الاولين ، لاعتبارات دينية ، فتجمد حيث هى ويسبقها غيرها فى باحات الوجود الانسانى ، فينالها الاعياء وتصبح غرضاً للمستعمرين والمتغلبين، فيمتصون حيويتها فتموت هزالا بين أيديهم .

ومنها علل بنيية تصيب بنيتها فان لم تكن قائمة على أصول راسخة زعزعتها لاول عارض من فتنة ، أو لبادرة من حركة تطور لابد منه .

ولقد احتاط الاسلام فى مجتمعه العالمى الذى دعا اليه لكل هذه المهلكات ، فأرصد للعلل الاقتصادية أصلين من لب العلم الاجتماعى وهما التعاون والزكاة ، فأتى عنهما بما لا يؤثر عن سواه فى حدود غاية

فى الاحكام . فقرر أولا أن المؤمنين اخوة ، وانه يجب أن يكون بينهم من الترابط الاقتصادى ماتقتضيه هذه الصفة . فيحرم على كل واحد منهم أن يبيت شبعان وجاره جائع ، ويوجب عليه أن يكون فى ماله حق معلوم للسائل والمحروم ، وقد سماه حقا فانفرد الاسلام بهذه التسمية ، وهى تسمية يعرف قيمتها الاقتصاديون والاجتماعيون. وقد أفضنا فى الكلام على هذا النظام التعاونى المالي فى كتابنا الاسلام دين عام خالد فليرجع اليه فيه .

لهذا السبب لم يظهر فى أى دور من أدوار الاسلام ذلك الداء الوبيل ، داء الفقر الذى أورد الامم حتي الراقية منها الموارد ، وولد فيها المذاهب الاقتصادية المتطرفة .

وأما العلل الاجتماعية التى تأتى من ناحية الطوائف والطبقات ، وماتدعيه من الحقوق الموروثة والامتيازات ، فقد نفض الاسلام يده منها جملة بتقريره المساواة المطلقة بين آحاده ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « المسلمون فى تساويهم كأسنان المشط ، ويسعى بذمتهم أدناهم » ، ولم يعتد لا بالقبائل ولا بالأسر ولا بالالوان ولا بالموالد ، ولكن بالتقوى والعمل الصالح : « لافضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على اسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » .

ولم يأبه حتي بما أبهت به كل ديانة من اقامة طائفة تهيمن على الدين وتحتكر وظائفه ، فناط الامامة فيه والفتوى بالولاة والقائمين بشؤون المجتمع المدنية ، وبكل قادر عليهما . لذلك لم تطرأ على المسلمين علل لا من ناحية الاوتوقراطية الحكومية ولا الاتوقراطية الدينية ،

اللهم إلا ماحدث بعد وحيه بزمان طويل معاصاة لاصوله وخروجا عليها .

وأما العلل المدنية التي تتسرب الي المجتمع من تطور العادات ، والاخلاد الي الترف والملذات ، فقد وقف الاسلام منها موقفا من الاعتدال جديرا بوحي سماوى من مصدر عليم بضعف الانسان ومايحتوشه من عوامل قاهرة لاقبل له بدفعها ، فأباح منها ماير تكز على فطرة النفوس من حب الزينة والميل الي النعيم ، فقال تعالي : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ، ولكنه حرم منها مالايليق بكرامة الانسانية من الاغراق فيها ، وماتدعو اليه الشهوة البهيمية الجامحة منها ، ومايميت فى نفوس الرجال صفات الرجولة ، ومايخرج بالنساء الى حدود التهتك والاباحة ، مما تحرمه كل فلسفة فى الارض حتي فلسفة الملحدين ، ومالايتفق والغرائز الشريفة للنفس من الخلاعة والتخنث ، ومايعدو على الاموال والاعراض ، ويغرى بالاسراف واضاعة الوجود ، ويعرض المجتمع كله لخطر الانحلال والتلاشى .

وقد انفرد الاسلام من بين الاديان بهذا الطريق القصد ، فلم يسن لاتباعه شرعة الاخشيشان المحض ، والزهد المطلق ، وانكار حق الطبيعة فى النعيم المباح ، مما يقرأ فى الكتب ولايعمل به ، ومما يجعل الامة التى تتمسك به بمعزل عن البشرية . ذلك لان الاسلام دين جعل ليعمل به الناس ، ويجرون على سننه ؛ فيتأدون باتباعه الي أرقى ضروب الحياة الارضية ، لادين خيالي يقرأ فى الاوراق تعبدا ويكون بين الناس وبين العمل به هاوية سحيقة ، فتجرفهم جوارف الاباحة

الي مالا يتفق والمدنية الفاضلة .

أما العلل البنيية التي تصيب بنى الامم (بكسر ففتح جمع بنية) فتفكك أوصالها، وتوهن أركانها ، وتضطرها للثورة تلو الثورة، لتجديد أصولها كلما تسرب اليها البلى ، وهى أحوال تعرض الجماعات لاخطار عظيمة ، وتحملها على ارتكاب ضروب من الشطط لا تتفق وما يجب أن تكون عليه من الاتزان فى مضطرب المزاحمات الدولية، ومعترك المنافسات العالمية .

احتاط الاسلام لكل ذلك فأقام بنية جماعته على المبادىء الانسانية العامة ، والاصول الطبيعية الخالدة، التي لايعتريها تبدل ولاتحول ، وتصلح لأن تسع الامم كافة مابقيت السموات والارض، لاأمة واحدة فى ردح من الزمن محدود . فأقامها على طابع الخير المحض ، والكمال المطلق ، والحقوق الطبيعية ، وماتقتضيه من العدل والمساواة والاخاء والحرية ، بصرف النظر عن الاجناس والالوان والبيئات والموالد والاديان والمذاهب ، فهو للكل على حد سواء ، وشارته (الرحمة للعالمين) .

فهذه البنية يمكن أن يجهلها الناس فى عهد من العهود ، ويهملون الدعوة اليها ، ولكنها تبقى ثابتة لايعتريها الضعف حتي ينتهى اليها البشر فى يوم من الايام ، فتصبح شعار الامة العالمية المستقبلة .

وقد تفرد الاسلام بأمر لا يأبه به الناس اليوم لقلة صلتهم بدينهم، وشغلهم الشاغل عنه بالأعراض الفانية ، الاوهو سنه شرعة التجديد فيه ، فقال النبي صلي الله عليه وسلم : « أن الله يرسل علي رأس كل

مئة من يجدد لهذه الامة أمر دينها » .

فهذا الاصل الذى لم يردفى دين من الاديان المعروفة ، ولا فى مذهب من المذاهب الاجتماعية المقررة ، يعتبر من ناحيـة أعجب مايؤثر عن نحلة من النحل ، إذ المعروف أن الاديان محافظة بطبيعتها على كل قديم وان عارض الواقع ، ومقيمة على طريقة أسلافها وان دعت طبيعة الحوادث الي تغييرها ، طلبا لمصلحة الاجتماعية ، ويعد هذا الاصل من ناحية أخرى بابا مفتوحا على مصراعيه لقبول مايحـدث من التطورات الاجتماعية والادبيـة ، فيصبح الدين بذلك مماشيا للعـلم والفلسفة والثقافة فى كل دور من أدوارها كما كان شأنه عند آبائنا الاولين ، فلا يعتريه التحجر بحال من الاحوال .

وقد أدرع الاسلام لهذا الامر بكل مايسهله من الوسائل ، فأباح الاجتهاد فى الدين لـكل قادر عليـه الى يوم القيامة . ومنح العقل سلطانا مطلقا لا يقيده شىء حتي ولا نصوص الـكتاب الـكريم ، اذ أباح للناس تأويلها ان عارض ظاهرها حكم العقل والعلم الصحيح ، والمضى فى طريق التـكمل العلمى غـير مقيدين بشىء . لذلك لم يجد آباؤنا حرجا من القول بكل المـذاهب العلمية ، والآراء الفلسفية التى كانت رائجة على عهدهم ، حتي مذهب النشوء والارتقاء ، ويقول (درابر) انهم ذهبوا منـه الي أبعـد مما يقول به المعاصرون اليوم (راجع كتابنا ، الاسلام دين عام خالد) . وقد نقل ذلك مؤرخوا الفرنجة بكل اكبار واعجاب ، وهاهى كتب المسلمين الاولين بين أيدينا تثبت صدق مايذهبون اليه .

فسنة التجديد هذه شرعة اسلامية بحتة تدعو للدهش والتعجب من متانة هذا الدين واستجماعه لكل وسائل المناعة والغلب . والظاهر أنه لولا هـذه الشرعة ، وما أحيطت به من الوسائل المساعدة ، لما أقبل المسلمون فى أول عهدهم على العلوم والصنائع والفنون الاجنبية عنهم ذلك الاقبال العظيم ، حتى جمعوا بين مدنيات جميع الامم التي احتكوا بها ، ولم يتأثموا عن الاخذ عن واحدة منها حتى الجماعات الوثنية . ولم يقصروا أخذهم على ماوجدوه معمولا به منها ، بل نقبوا فيما أودعته خزائن الكتب فأخرجوا منها كل ما كان قد قضى القصور على أهله باهماله ، فترجموه الي لغتهم وتدارسوه وانتفعوا ونفعوا العالم به ، واعتبروا بذلك موقظى الاوربيين من سباتهم ، وواضعى أساس مدنيتهم الحاضرة ، ولم يقفوا عند مقررانها بل زادوها بجهودهم العقلية ، وا كتشفوا علوما لم تكن معروفة من قبل. فتأمل فى هذه الحوافظ التى استجمعها الاسلام وقل لى هل يمكن أن يتطرق الوهن الي دين كهذا ، أو يحل بأصوله التحلل ، أو تبلغ من صرحه العوامل ؟

واذا كان الاسـلام على مانذكر ، ولاسبيل لانكار الادلة المحسوسة ، فكيف اعترى شعوبه الضعف ، وألم بهـا التفكك ؟
ندخر الجواب على هـذا السؤال الي الفصل التالي إن شاء الله ،

اسباب تدهور الامم الاسلامية

قد خاض فى هذا الموضوع قبلنا كتاب فطاحل منهم عدد كبير من الغربيين ، فذهب الاسلاميون منهم الي أن أسباب تدهور الامم الاسلامية هو انحرافها عن صراط دينها القويم ، ونحا الاجانب نحوا آخر فرأى أكثرهم أن تلك الاسباب تنحصر فى تعاليم الاسلام نفسه باعتبار انها تصد عن الاخذ بكل جديد ، وتبث فى ذويه مذاهب الجبر الي أبعد ماترمى اليه من الاستسلام للقدر المحتوم .

وفى رأينا أن الاولين وان كانوا أصابوا الحقيقة الا أن السبب الذى أوردوه ليس بالسبب الاول ، إذ يقال لهم فما السبب الذى دعا المسلمين الى الانحراف عن دينهم ، وكيف اتفق أن تجمع شعوبهم عليه فى جميع البقاع ،حتي التي ليس بينها وبين غيرها اتصال ؟ وكيف تتشابه عوامل الجمود فيها الى حد أن تكون عامة ومشتركة بينهم؟ وهـذا الاجماع والتشابه هو الذى أغرى الباحثين الاجانب باتهام الاسلام نفسه باحداث هذا التحجر المستعصى فى جماعات المسلمين .

واذا كان الكتاب الاسلاميون قد قصروا فى البحث عن السبب الاول لانحراف المسلمين عن الدين ، فقد غفل الكتاب الاوربيون من ناحيتهم عن أمر جلل، وهو كيف يعقل أن يكون الاسلام هو نفسه محدث هذا الجمود وقد أوجد الامة الاسلامية العالمية من العدم ، ودفعها فى تيار من التقدم حصلت به علي خلافة العالم كله فى السياسة

والعلم والمدنية فى سنين معدودة ؟ وقد ظهر في أول أدواره ليس مجددا فحسب ، ولكن موجدا لأساليب وذرائع جديدة لم يكن يعرفها البشر ليصل ذووه الى غاية بعيدة تصلح معه لاداء مهمتها العالمية فى ردح قصير من الزمن .

أليس هو الاسلام الذى أوجد فى أقل من قرن لجماعته ملكا لاتغرب عنه الشمس ؟ أليس هو الذى بعث أهله لاستخراج مادفنه الرومان واليونان والكلدان والسريان وغيرهم من ثمرات عقول أوائلهم اكتفاء بالعيش فى جو قاتم من الظلام أكثر من ألف عام ، فعملوا عمل الجبابرة فى جمعه وترجمته ، والجرى على سنته وزيادة مادته ونشرها فى الخافقين ، حتى كانوا السبب المباشر لانهاض أوربا من سباتها العميق ؟

اذا كان هذا صحيحا ، وهو ماشهد به مؤرخو العالم كله ، فهل ينقلب الاسلام من عامل قوى في نشر العلم والمدنية ، الي عامل قاهر على طمس معالم العلم ، ومحق مظاهر المدنية ، والقضاء على ذويه بالتحجر والموت بعد أن كانوا بسببه محيي العلم ومجدديه وحاملى لواء الثقافة العالمية قرونا متوالية ؟

فى رأينا أن تدهور الامم الاسلامية كان العامل الرئيسى فيه انتحالها النظم والتقاليد الدينية التي جاء الاسلام لتحطيمها وقلبها رأسا على عقب ، واحلال نظام مدنى حر محلها ، تتأدى الامم بالجرى عليه الي الرقى الأدبى والمادي طلقة خالصة من القيود الوراثية ، والتحكمات الطائفية التي من طبيعتها تثبيط حركة الجماعات ، ومنع اندفاعها الي الغايات ، وقيامها حائلا منيعا فى وجهها متي اتجهت الي

طريق لم تكن رسمته هى لها من قبل ، واليك التفصيل :

كان الناس قبل الاسلام من ناحية الدين أسرى طوائف ممتازة احتكرت لنفسها حق قيادتها الروحيـة ، فاتخذت لتحفظ لنفسها هذا الحق قادة وجنودا منها بثتهم فى كل مكان ، فـكانت أوتوقراطية روحيـة مطلقة داخل اوتوقراطية حـكومية مطلقة ، وكان الناس بينهما فى شكيمتين على حالة من العنت ليس وراءها مذهب ، ففترت الهمم ، وكانت القوى ، وماتت النفوس ، فانحصر جهـد الانسان إذ ذاك فى أن يعيش مقوداً بغيره فى وجهتيه الروحية والجسدية ، لا فى أن يعيش حراً لينفع نفسه ويفيد غـيره ، فان تطلع واحد لان ينظر فى علم ، أو أن يقول برأى لم يقل به واحد من قادته الروحيين ، كان جزاؤه أن يحرق حيا أو يسلب أو يرمى من شاهق أو تربط أطرافه فى ذيول الخيول وتلهب بالسياط لتركض الي كل وجـه فتمزقه كل ممزق . وكانت السلطة المدنية تخضع لهذه الاحكام فتنفذها صاغرة .

هذا النظام النولاذى المحـكم قضى على أوروبا بأن تبقى فى الظلام ألف سنة لاترى النور ولا من مثل سم الخياط . ومثله كان فى كل بقعة من الارض ولدى كل أمة ، وهو الذى دعا الحق سبحانه وتعالي لتأليف الامه الاسلامية العالمية ، تحت قيادة خاتم رسله محمد ، لانقاذ الامم من شره ، اما مباشرة أو بالواسطة ، فقامت تلك الامة به خير قيام ، وكانت سببا فى نشوء المدنية الغربية بمـا هى عليه من قوة وثروة وعرفان ، وبمـا تبشر به من الوصول بالانسانية الي الـكمال .

وقد اقتضت طبيعة الاشياء على توالى القرون أن يقع المسلمون

فى كافة بقاع الارض فى مثـل النظام الدينى والمدنى الذى جاء دينهم لتحطيمه ، فوقعوا فى الجمود نفسه الذى وقع فيه أهل الاديان السابقة ، وكان ذلك مصداقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من كان قبلـكم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتي لودخلوا جحر ضب لدخلتموه » فسأله سائل أ كيت وكيت يارسول الله ، وسمى له أهل دينين عظيمين ، فأجابه النبي قائلا : « فمن ؟ » أى ان لم يكن هم الذين ستقلدونهم فمن يكونون ؟

فما هى العلل التي دفعت بالمسلمين الي الخضوع لهذا النظام الدينى والمـدنى الذى قام أوائلهم بتخليص الامم من شره ، فتأدوا به الي مثل ما كانت عليه تلك الامم من التحجر المنافى للسنن الالهية المرقية للجماعات، ففقدوا بسببه كل ميزة كانت لهم ، وأصبحوا من الجمود على حالة تستعصى على كل علاج ؟

أن معرفة هذه العلل ليس بالامر الصعب فاليك :

تألفت الامـة الاسلامية العالمية فقام عليها بعد النبي صلى الله عليه وسلم الخلفاء الراشدون ، ثم تولاها بنوأمية فلم يتسع لهم الوقت للتأثر بادواء الامم ، اللهم الاشيئا من سوء اختيار الرجال ، والرجوع الي شبح العصبية القبيلية الذى أباده الاسلام . ثم وليها العباسيون وهنا تجلى الملك بفواتنه الباهرة ، اذ لم يبق فى الارض دولة تقوى على أن لاتدين للمسلمين أوتنازعهم فى سلطان، فساغ التفرغ للترف،والتخلى عن الاعباء الحـكومية والروحيـة معا للانصار والاتباع ، وماقيمة هؤلاء وكان الواحـد منهم يتلخ من دست الوزارة أومنصة القضاء

الى السجن أو الموت، وتصادر أمواله لاقل بادرة من شبهة يدلى بها بعض الندمان ؟ فاضطروا للمداراة والمداورة ، وهاتان الخصلتان تقتضيان الاهمال والاغفال والتكالب على المصلحة الشخصية .

ولا ننس أيضا أن الذين قبلوا الاسلام دين لهم من مختلف الامم دخلوه مطبوعين على ذلك النظام الاوتوقراطى بناحيتيه الدينية والمدنية ، فعملوا على إيجاده مدفوعين بقوة الوراثة والتقليد ، وساعد على ذلك أن كثيراً منهم وصلوا الى درجات عالية من السلطان والعلم ، فنظموا شؤن الدنيا والدين على مقتضى ماانطبع فى نفوسهم ، لا على ماقضى به الدين الفطرى الحكيم ، فأصبح تركيب العالم الاسلامى صورة حقيقية لما كانت عليه الحال فى كل مكان .

ولم يلبث الملك الاسلامى موحداً أكثر من نحو قرنين ونصف قرن، ثم انقسم على نفسه تحت قيادة زعماء مغامرين من أجناس شتى، فكان الواحد منهم يكاد لاينتظم له الامر فى بلد حتى يدهمه مغامر آخر، فتقع الحرب بينهما سجالا ، فتدول الدولة لواحد منهما. فلايلبث أن ينازعه غيره وهلم جرا ، حتى أصبح الملك الاسلامى كله كساحة حرب لايخمد لهيبها ساعة من ليل أو نهار قرونا متوالية . فهل تعجب أن يصاب المسلمون بادواء الامم السابقة من الوقوع تحت نيرأوتوقراطيتين احداها مدنية والاخرى دينية، أمسكتا كلتاهما بمخنق المسلمين نحواً من الف سنة ، الى أن جاء العلم الاوروبى اليوم يهيب بهم الى مائدته، فيسارعون اليه قاطعين صلتهم بالاسلام، ظنا انه هو الذى قضى على آبائهم بالجمود ، وماقضى عليهم بذلك إلا خروجهم عليه، وبعدهم عن

صراطه ..

هذه هي العوامل الرئيسية التي عملت على وقف النهضة الاسلامية ، وعلى احداث هذا التدهور الاجماعي الذي نشاهد آثاره متشابهة في جميع الشعوب الاسلامية منذ أجيال كثيرة .

كل هذا ليس بشيء في جانب معرفة الوسيلة الفعالة التي تنقذ المسلمين عما تورطوا فيه .

هنا مبدآن اثنان لاثالث لهما، يدعو اليهما رجال من ناحيتين متناقضتين ، أحدهما انه لايرجى للمسلمين حياة إلا بعودهم الى حظيرة دينهم ، وثانيهما انه لاأمل في انهاض المسلمين إلا باضعاف الروح الدينية فيهم، حتي لاتقف عثرة في سبيل اقتباسهم كل مايجب اقتباسه من نظم المدنية الحاضرة، وهؤلاء يعملون على بث دعوتهم من طريق التشكيك في الاسلام ، والدس عليه في كتبهم ورسائلهم ، بأسلوب يخفى على غير البصيرين . وقد وضع هؤلاء نماذج كتابية ، وأساليب تحليلية ، وعبارات بيانية يسارع لاقتباسها عنهم أكثر الناشئين، حتي الدينيين منهم ، مدفوعين بغريزة التقليد ، ولكنها صور تطبع في النفوس ميلا للاستخفاف بالدين وبأهله ، وبالنظر الى تركيبه نظر المستهين الزاري ، أو بالاقل نظر الذي لايتوقع أن يجد فيه شيئاً يستحق التفكير .

وهذه الصور الكتابية ان لم تثمر اليوم ثمراتها من التمرد المكشوف، فستثمره في الغد القريب .

ولقد انتدبنا نحن لبيان حقيقة الاسلام على نور الثقافة العصرية

والعلم الغربي، وفلسفته الوضعية، لمعاكسة هذه النزعة الخطيرة ، فهل تنجح في لفت النشء اليها ، واقناعه بالاخذ بها ؟ وهو مدفوع في تيار الحياة لايلوى على شيء ؟ .

واذا أنجحنا في ضمه الينا ، وهـذا بعيد الاحتمال ، فماذا يغنى وسواد الامم الاسلامية في حالة مؤيسة من الامية ، وبمعزل عنا وعن غيرنا، فكيف ينفذ اليهم هذا النور ؟

فما هي إذن الطريقة العملية لاعادة مجد الاسلام واظهاره بمظهره الفاتن ، وهو الجـدير بذلك لأنه الآية الالهية الكبرى، وحجته الحية على الناس ؟ هل من طريقة عملية تتغلب على كل العوائق التي تقوم في وجهها ؟

نعم ، وهي طريقة فعالة الي حد أنها لاتقاوم ولاتخيب ، سنكشف اللثام عنها في الفصل الآتي إن شاء الله .

كيف يعود الاسلام الى مجده

ومتي تصبح كلمته هي العليا ؟

شرع الله الاسـلام ليكون دينا عالميا للبشرية كلها ، وضمنه (اصلاحا عاما) هو أقصى مايتخيله العقل، ويتجلى فيه الكمال الذى تندفع لبلوغه الفطرة الانسانية ، وقد دللنا علي ذلك بنصوص من الكتاب ، وأصول من العلم في عشرات من المقالات ، فهـل تقوى الفلسفة العصرية علي طمس معالم هذا الاصلاح الخطير ، والتعفية

على آثاره كما فعلت بجميع الاديان التي تقدمته ، فيصبح الناس بلادين كما يريد الباحثون اليوم اقناعنا به ؟ واذا كان الاسلام هو (الاصلاح العام) الذى تتحسس منه العقول ، وترمى اليه فطرة الانسان ، فكيف يعود اليه مجده ، ومتى تصبح كلمته هى العليا فى الارض ، وبأية وسيلة يعود أهله اليه وقد طوحت بهم الطوائح الى مكان سحيق ؟

هذا ماسنعالجه اليوم فنقول :

لقد وضع الاسلام قواعد ديانة عالمية ، وحلاها بجميع الاصول التي تبلغ أهلها الكمال فى حدود السنن الطبيعية ، وسن لهم جميع العوامل التي يتخيلها العقل ، ويثمرها العلم لتطور الجماعات . ديانة أقامها على المبادىء الانسانية العامة ، والاصول العمرانية الخالدة ، وليس على المصلحة المادية الخاصة ، ولا على المنفعة المحلية القاصرة على جيل أوجنس أوزمان محدود ، وفرضت العلم على الآخذين بها جميعا ذكورا وإناثا ، وحملت كل نفس تبعة أعمالها محرمة عليها التقليد للآباء ، والجمود على ماتوثه عنهم من الآراء ، وأحلت لهم الاتباع ولكن ليس المجرد من الدليل ، والعارى عن التعقل ، بل أعلنت على رؤس الاشهاد أن الايمان التقليدى غير مقبول ، وطالبت كل آخذ برأى بالحجة البينة ، والبرهان الصحيح ، فى حدود الامكان ، ولم تقصر النظر فى الدين وثمرأته على طائفة مختارة ، ولا حصرته فى قوم دون آخرين ، بل أباحت لكل قادر على النظر والاستدلال أن يدلي برأيه حراً خالصا من القيود ، فإن أصاب الصواب كان له

أجران ، وان أخطأ فله أجر البحث والاجتهاد ، رمت بذلك إلي بروز الكفايات الي ميادين العمل ، وتكاتف العقول فى الوصول إلى الحقائق ، غير مفرقة بين أبيض واسود ، ولا بين جنس وجنس ، حتي برز فى هذا المجال عبيد سود وموال ورجال ونساء من كل قبيل ، ممن كانوا لا يستطيعون أن يعشوا حتي فى بلادهم آمنين على أنفسهم ، بله التصدى لامامة الدنيا والدين ، أو لقيادة الاشياع والجماهير ، وحررت العلم والفلسفة من القيود فأباحت لأهلها العب من مناهلهما حتي إذا صح لهم منهما شيء وجب عليهم العمل به وان خالف نص الكتاب ، سامحة لهم بتأويله حتي لا يناقض حكم العقل والعلم الصحيح ، ولا يقيد من توثباتهما الي ادراك المجاهيل ، وأطلقت للناس الاخذ بكل نافع وجميل مما يصادفونه فى الامم التي يحتكون بها حتى ولو كانت وثنية أو لا تدين بدين . فجمع المسلمون بين جميع الخيور الموزعة فى الامم ، وأقاموا مدنية لا يحرم فيها شيء اللهم إلا الاخلق اذ فيها أو افراطا أو تفريطا ، مطالبة بالاعتدال فى كل غريزة ، وبالتوسط بين كل طرفين ، وبالاضطلاع بأعباء العدل والمساواة والاخاء والحقوق الطبيعية ، مطلقة غير مقيدة بجنس ولا بدين ، وأسندت الي الامة العالمية التي تتألف على هذه الاصول خطة لم تسند الي أمة فى الارض من يوم أن تألفت الامم إلى اليوم ، ألا وهى أن تقوم بخلافة الله فى الارض متخلقة باخلاقه تعالي ، وأن تكون شهيدة على الناس شعارها الخير المحض ، والرحمة للعالمين .

فأنت لو قارنت بين هذه الاصول الإسلامية الخالدة التي جري

عليها العمل، وتأدت الي خير للانسانية كبير ، وبين أصول العلم الحديث والفلسفة الوضعية ، وماأثمرته المدنية الحاضرة من المبادىء بعد أن جاهدت في سبيلها أربعة قرون ، وبعد أن هلك في اقامتها مئات الالوف من جلة العلماء والمفكرين ، رأيت أنها لاأقول هي هي فحسب ، ولكني أقول انها قد بزتها الى مدى بعيد . فكيف يعود سلطان هذه الاصول الاسلامية الي أمم لاتغرب عنها الشمس تدعى انها مسلمة وليست من الاسلام في كبير شيء ، وقد التاثت بادواء الامم التي جاء الاسلام لمعالجتها ، فوقعت في ظلام حالك وجمود عظيم ، وأصبحت بين يدى المستعمرين فريسة مخدرة يمتصون حيويتها ويكبلونها بالقيود ، ولايسمحون لها أن ترى من النور إلامايدفع بها الى دور من الفتنة جديد ، وقد عمتها الامية وساورتها الجهالة من مكان قريب ؟ فهل تستطيع هذه الامم أن ترجع الي تاريخها الاجتماعي ، أوتفكر في ماضيها الديني ، أوتصغى منها الي رجل رشيد ؟ وقد قضى عليها وهي تموج في هذه الغياهب المتلبدة أن ترى فجأة نورا يأخذ بالابصار ، وفنونا وصنائع دونهاماتسمع عنه من السحر في سالف الاعصار ، هونور المدنية الحديثة ومافيها من علوم وفنون وأساليب وذرائع أولت أهلها قياد الجواء وسلطان البحار . فهل يكون من آثار هذه المفاجأة الا أن يزداد سوادهذه الامم المستضعفة انزواء في اكسار دورها، جمودا على قديمها، مستعيذة بالله من شرهذا البدع الحديث ؟ وقد يرمى آحادمنها بأنفسهم في أحضان هذه المدنية، مفتتنين بقشورها، وهم خالو الذهن من كل أثارة من العلم بتاريخ قديم أوبمجد أثيل ،

فيقطعون بينهم وبين جماعتهم مايجب أن يكون موصولا ، اللهم إلاظاهروا من التحفظ حتي لاتنبذهم نبذالنواة ، فتراهم يعملون سرا على مساعدة المستعمرين لتدويخها، وحل وحدتها، بما يدسونه لها من السم في الدسم ، وبما يشككونها في قديمها ، ويصغرون لهامن شأن أوائلها ، تارة تحت ستار البحوث الادبية ، وطورا تحت برقع العلوم الكونية .

فهل عز المخرج من هذه الكرب ، وعمى المهرب من هذه النوب ، ويئس البصير منا بجلال الاسلام من اقامة حجته ، والاهابة بالناس الي محجته ، وان أمكن ذلك فماذا يجب أن تكون قوة العوامل التي تصلح للتغلب على سحر هذه المدنية وعلومها وفنونها ، فتلفت الناس اليها وقد ركبوا رؤسهم ، ومضوا في سبيلهم منها لايلوون على شيء ، ولايصغون الي نصيح ؟

هون عليك فاذا كان قد قيل إن الحرية تستفيد ممن يعمل لها أوضدها على السواء ، فكذلك الحق يظهره من يعمل له أوضده على السواء، « بل تقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » .

هذه المدنية الاوربية وعلومها الحديثة ، وفنونها التى تقتادالناس فى تيارها وهم صاغرون ، هى نفسها التى تعمل بغير قصد منها على اظهار الاسلام واعلاء كلمته الي أعلى مايمكن أن تصل اليه ، لانها كلمة الحق والعالم مسوق اليها طائعا ومكرها، ولابد من وصوله اليها، وتعويله عليها بعد حين .

نعم أن الذين يفتتنون منا بهذه المدنية يتخيلون انهم قدقطعوا صلتهم بالاسلام ، ويهيمون سادرين في تيار اللهو بل والاباحة ولا يقفون عند حد ، ولكن لكل اندفاع وقفة ، ولكل سكرة صحوة ، فاذا جرى هؤلاء شوطهم وتعبوا ثم تأملوا فيما غفلوا عنه من هذا الذخر الادبي العظيم ، وماوصل اليه آباؤهم من المجدالصميم، رأوا أن الذى فتنهم هو دون ماتركوه وماجهلوه ، فيعودون الى حظيرته لاأقول طائعين ، ولكن مكرهين ، فان الحق غلاب ولا يوجد في العالم شيء يقوى على طمسه .

هذه وسيلة محيرة لرجوع المسلمين الى دينهم، ولكنها الوسيلة الوحيدة القاهرة لظهور جلال هذا الدين،ولحلوله محل الآية الالهية الكبرى ، وحجته الناطقة للعالمين . واذا علمت أن المدنية الغربية وعلومها وفنونها دائبة على فتنة العقول وانتزاع الامم الجامدة من محجرها بقوة لايستطاع صدها ، وبسرعة لايمكن تثبيطها ، فهذا كله فى مصلحة الاسلام والمسلمين ، وان كان لايظهر أثر ذلك إلا بعد حين .

نعم أن خروج المسلمين مفتونين من احتكاكهم بهذه المدنية يؤلم النفوس ، ولكن ماذا تستطيع أن تفعل فى هدايتهم ولوأتيتهم، وهم فى جموحهم الانتقالي هذا ، بكل آية ماتبعوا قبلتك ومابعضهم بتابع قبلة بعض ، بل أصبح أقوى الناس نفسا اليوم لايستطيع أن يرد أقرب الاقربين اليه الي حظيرة الحق ، فما ظنك بمجموع الناس وقد اندفعوا في تيار لاتقوى على وقفه الرواسخ الشاهقة ، فهل

يقفه نصح ناصح، أواهابة مهيب؟ « وان كان كبر عليك اعراضهم ، فان استطعت أن تبتغي نفقا فى الارض أوسلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولوشاء الله لجمعهم على الهدى، فلاتكونن من الجاهلين» .

هنا قد يصيح صائح ماهذا الغرور ، أتأملون وقد انقضى عهد الاديان ، وسطع فى الكون نور العرفان ، وحلت الفلسفة محلها فى هداية الانسان ، أن يرتكس الناس الى دور السذاجة الاولي بعد أن اجتاوزه الي مابعده منذ قرون ، فيقررون الرجوع الي واحدمنها ؟

نقول لو كان الاسلام قائما على حادثة تاريخية ، أومبنيا على خيالات قومية،أوأوهام محلية ، أوداعيا الي مجرد أخلاق وآداب ، لخجلنا أن ندلى بهذا الرأى فى القرن العشرين ، ولاعتبرنا أنفسنا من غلاة الرجعيين ، ولكن الاسلام فى جوهره دعوة عامة الي القيام على مقتضى الفطرة الانسانية ، وتجريد النفس من كل ماركته عليها العادات والعقائد الوراثية ، ومواجهة الحقائق على حالة من الصفاء لاتشوبها شائبة تقليدية ، والعمل على تآخى الامم وارجاع أديانها الي وحدتها الاصلية ، واعتبار سلطان العقل مطلقا من كل قيد ، والتأدى على هذا النحو الى كل خير وصلاح من طريق العلم لا الاهواء النفسية ، ولا الخيالات الفكرية ، فهذا (اصلاح خطير عام) للطبيعة البشرية، يتناول كل مجالات النشاط العقلى والعملى للافراد والجماعات، فهو أعم من اصلاح (باكون) للعلم ، واقراره اياه على أصول راسخة من المشاهدة والتجربة ، والبعد به عن مسارح الظنون والاوهام . فهل

يقلل من قيمة اصلاح (با كون) للعلم ان أصبح بيننا وبينه أ كثر من ثلاثة قرون، أم هو باق مابقيت السموات والارض ، ومحكوم على الناس بالعمل به ماداموا يزاولون العلم ، ويعملون على اقامة صرحه ؟ وهل يعقل أن يبقي اصلاح (با كون) الجزئي خالداو يضمحل (الاصلاح الاسلامي العام)، بدعوى انه دين وان البشرية قدقطعت صلتها بالاديان ، هل الاشتراك فى الاسم يطمس الحقائق الخالدة ، ويسوق الاصول الضخام مساق الامور التي لاتقوم على أساس ؟

فأنا لست أقول إن المسلمين مهما افتتنوا بالمدنية الحاضرة وعلومها ، ومهما قطعوا صلتهم بالاسلام سيرجعون اليه فحسب ، ولكني أقول إن العالم كله سينتهى اليه ، لامقودا بتلمس دين يدين به ، ولاجريا وراء عقيدة ينتحلها لنفسه، ولكن حين يعلم أن كل الاصلاحات التي اهتدى اليها رجال العلم فى تهذيب أساليب النظر ، وكل النتائج التي تأدى اليها غطارفة الفلسفة فى تقويم الطبيعة الانسانية، واقامتها على الجادة القيمة المؤدية الي الخير المحض ، قدسنها الاسلام ودعا اليها بنصوص صريحة ، كما بينا ذلك تفصيلا ، فيرى الناس كافة إذ ذاك انهم فى الاسلام وان لم يعملوا للوصول اليه ، لانه صبغة الله التي لاتنصل ، وفطرته التي لاتنسخ ، وسنته التي لاتتبدل، فيقولون كما قال (جوث) الفيلسوف الالماني الكبير: «اذا كان الاسلام هو هذا فنحن إذن فيه » ؛ وستصبح كلمة (جوث) هذا شعارا لجميع الخلق حين يتضح الحق ، وقد أنبأ الكتاب الكريم نفسه بذلك فقد قال تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم

انه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ؟

أليست هذه الوسيلة هى الوسيلة العملية التى لاتخيب فى ارجاع مجد الاسلام ، وجعل كلمته هى العليا فى الارض ؟ : « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون » ؟

الى هنا انتهى الباب الاول وسيكون موضوع الباب الثانى من هذا البحث (نشأة محمد صلى الله عليه وسلم) .



الباب الثانى

نشأة محمد صلى الله عليه وسلم

لم أعهد نفسى ، وأنا أزاول الكتابة فى أى مقصد كان ، على مثل ما أنا عليه الساعة من التهيب والشعور بالقصور ، لا بسبب الوراثة الدينية التى طبعتنى على إكبار شأن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد حاولت أن أتجرد منها وأنا أكتب هذا البحث ، ليجىء حاصلا على شروط الأسلوب العلمى الدقيق ، ولكن بسبب جلالة الموضوع نفسه وخطره العظيم ، فانى حيال شخصية جمعت من ضروب العبقريات مالم يجتمع لشخصية سواها فى تاريخ الانسانية كلها . فقد يشعر الذى يزاول تحليل أية شخصية لعبقرى كبير فى ناحية من نواحى الشئون الاجتماعية بقدر كبير من التهيب ، ولكنى حيال شخصية عالمية أرى من أية ناحية نظرت اليها أنى إزاء شكل فذ من النبوغ يكفى وحده لأن يستوعب جهد الباحث كله فلا يدع له بقية يبذلها فى ناحية أخرى منه .

فمن أية النواحى أنظر الى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ أمن ناحية أنه فرد فى مجتمع ، أو من ناحية أنه مرب أو واعظ ، أو قائم بدعوة ، أو واضع لأصول ، أو مشترع ، أو قائد ، أو مجدد ، أو محدث انقلاب ، أو مؤلف جماعة ، أو صانع أمة ، أو رسول ديانة ، أو مؤسس دولة ، أو مثير ثورة عالمية لم تتطاول الى مثلها همة من قبل ولا من بعد ؟ لقد كان محمد كل من ذكرت ، وبلغ مما رمى اليه النهايات التى ليس وراءها مذهب ، وقد

كان فوق ذلك عاملا فى ناحية أعلى مما كان يتوقعه الناس من داع فى الأرض ، وهى الدعوة الى تآخى الأمم ، واجتماعها حول دين واحد هو دينها الأول ، دين الفطرة الانسانية التى لايعقل فيها الاختلاف والتفرق ، والى إقامة أمةعالمية ، على أعم الأصول الاجتماعية ، وأعدل المبادىء الأدبية ، لا على المصلحة القومية، ولاعلى الاعتبارات الجنسية والمحلية ، فهو من هذه الناحية مجدد ولكن لا كالمجددين ، فان قصارى أحدهم أن يدفع ماعليه الناس من شأن الى شأن أرقى منه درجة أو درجات . أما قلب نظام الاجتماع رأسا على عقب ، ووضع أسس جديدة له لم يفكر فيها النوع البشرى من قبل ، والانتداب للاهابة بالعالم كله الى تعاليم تصلح أسسا لكل الجماعات الانسانية ، فشىء أكثر من جديد لم يطف بخيال عبقرى إلى اليوم ، حتى بعد بلوغ العلم والفلسفة إلى أوجهما الأعلى ، وأكبر من هذا وأجل إنجاحه فيما تصدى له من هذا المقصد الأسمى إنجاحا بعيد المدى تسبب منه انقلاب لا نظير له فى تاريخ العالم ، لا تزال تجنى البشرية ثمراته إلى اليوم .

لقد كان محمد كل هذا، فهل من العجب أن يشعر كاتب وهو يزاول الكتابة عنه بقدر عظيم من التهيب والقصور معا ؟

لو كان كل هذا لم يخرج عن دائرة الكلام ساغ لباحث أن يقول: هو خيال شاعر من أهل التصور العالى ، وإن لم يخطر مثله ولا ما يقرب منه فى خيال أى شاعر إلى عهده ، ولكنه أخرجه من حيز التصور إلى حيز العمل ، وتولاه فى جميع أدواره تولى الواضع للشىء

المهيمن عليه ، ثم تركه حاصلا على جميع المقومات التى يتابع بها طريقه فى التطور حتى صار امرأ واقعاً ، فان ذلك العمل الضخم إذا منى بالوقوف بعد قرون ، أو التحجر ، فليس هذا من طبيعته ، ولكن من طبيعة الناس أنفسهم ، إلا أنه لم يتلاش ولم يصبح أثراً بعد عين ، ولكنه بقى مثلا أعلى للبشرية تحاول أن تصل اليه ، وستصل اليه بجهودها المتوالية فى يوم من الأيام ، فتصبح من أهل التعاليم القرآنية المحمدية طوعا وكرها ، كما بينا ذلك بالأدلة العلميـــة فى مقالاتنا السابقة هنا .

كبير أن يستحيل باحث علمى الى متحمس دينى ، ولكن الأمر ليس من هذا الضرب ، وذلك أن البحث العلمى متى انتهى الى مثل هذه النتائج التى تستولى على الشعور والعقل، طوح بالقائم به مثلى الى مطارح الدهش ، فظهر بمظهر المتحمس ، وماذا يضيره ذلك إذا كان ما يقوله حقا ، وملقيا نورا ساطعا على شئون ما كان يتخيلها الناس تخيلا ؟ .

على أن تاريخ العلم لا يخلو من مثل هذه الظواهر التحمسية ، فقد قرأت فى بعض المجاميع العلمية أن عالما نباتيا صاح يوما وهو فى معمله قائلا : « لقد رأيت الله » فدهش تلاميذ له كانوا على مقربة منه وسألوه عما أصابه . فقال لهم : لا تراعوا ، فقد أرانى المجهر من دقة الصنع ، وبراعة الوضع فى هذه الزهرة ، ما حير عقلى وأخذ بلبى وأثبت لى أن هذا الابداع كله لا يمكن أن يحدث بفواعل طبيعية

لا تدرك ما تصنع ، فعرانى من الهزة ما دفعنى الى الصياح بما سمعتم !

وقرأت من قبل عن الطبيعي اليونانى القديم أرخميدس أنه اتفق له أن اهتدى إلى حل مسألة علمية كانت تشغل باله وهو فى الحمام ، فازدهاه الطرب ، فخرج يعدو فى الطرق وهو يصيح : أوريكا أوريكا ، أى وجدتها وجدتها !

وها أنا ، وأنا مشتغل بهذه المباحث ، أشعر بمـــا شعر به المستكشفون قبلى من هزة العجب ، فقد رأيت تحت نور العلم العصرى الساطع ، والفلسفة الوضعية الصارمة ، أن الدين الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ، والأصول التى أصلها باعتبار أنها الدين العام للانسانية كلها ، وآخر كلمة ينزل ملك إلى الأرض بها ، يصح أن تكون دينا وأصولا لا لبشرية نصف حيوانية كبشريتنا الحالية فحسب ، ولكن لبشرية ارتفعت عن مستوى الأدناس النفسية والخلقية كلها ، والتحقت بالملأ الأعلى ، واستقبلت حياة فاضلة تعرج بها إلى الكمال الأقدس . وأنت خبير بأنى إذا ذكرت العلم والفلسفة فانما أذكـــر النقد المر ، والتمحيص المرهق ، والتحليلات المدققة ، والمقارنات الشاقة ، وإن دينا يمر من كل هذه الامتحانات ويترك كل وسائل الفحص عاجزة حياله ، لهو أمر يعتبر فى هذا القرن من الأمور التى تستهوى العقل ، وخاصة إذا كان أهله يعتقدون عقيدة راسخة أن الأديان لا تحتمل أهون نقد ، ولا تثبت أمام أقل تمحيص .

فهل ألام وأنا أعرض كل هذه الآيات البينات على القارئين أن يزدهيني الاعجاب بها فأعرب عن بعض ما أشعر به حيالها من الاكبار والتقدير ؟

لقد صاغ محمد بقوة الروح التى وهبها تحت هداية القرآن أمة على أكمل الأصول التى يمكن أن يدركها العقل الواسع ، وحلاها بكل ما يصل اليه التصور العالى من القوى الأدبية والعوامل الاجتماعية فتألفت كما يتألف الجسم الحى من خلايا صالحة للبقاء والنمو ، وتابعت طريقها فى التطور ، لم يقو على حلها ما كان يحيط بها من عوامل التحليل وأسباب الفساد ، فقطعت جميع أدوار وجودها قوية صالحة إلى أن حصلت على خلافة الله فى الأرض ، وأثرت فى العالم كله تأثيراً كان من ثمراته خروجه من الظلمات إلى النور ، وتوديه إلى حالة من الحياة تبشر بأيصاله إلى الكمال الذى قدر له . فهذا العمل إن جهله المسلمون اليوم فسيكون فى المستقبل القريب موضوعا لأبحاث مستفيضة ، وموجباً لدهش عظيم ، بحيث يصبح أعجب ما كشفه العلم للناس فى زمانهم الأخير . وستكون نفسية محمد صلى الله عليه وسلم محلا للتحليلات المدققة باعتبار أنه أكبر رجل فى تاريخ البشر .

وكيف لايكون كذلك ، أصادفت فى تاريخ العالم كله رجلا واحداً صنع أمة من قبائل متناحرة فى أبعد بلاد الله عن العمران وأعصاها على المصلحين ؟ إن صادفته فهل رأيته قد أقامها على أعم المبادىء الانسانية ، وأرسخ الأصول العالمية ؟ وهل حلاها بدين يقوى على

أشد ضروب النقد العلمى فى القرن العشرين ؛ وهل متعها من الحوافظ بما يضمن لها الحياة بعد وفاته ؛ ومن العوامل بمـــا يدفعها فى سبيل التطور لتبلغ إلى تأسيس أكبر امبراطورية ظهرت فى الأرض إلى اليوم ؛ وهل نصب لها من المثل العليا ما يصلح لأعلى الأمم كعبا فى المدنية ؛ وهل اتفق لمصلح أو فيلسوف أن أتى بتعاليم بأقامة العدل ، وحفظ الاجتماع ، وصون الحقوق ، وضمان حياة الضعفاء ، وتعديل عوج الأقوياء الخ الخ ، أرقى من التعاليم التى أوجدها العلم ووصلت اليها الفلسفة ؟

لا لا ، لم يجتمع هذا كله ولا بعضه لرجل واحد، وقد اجتمع لخاتم النبيين محمد ، فهل يضن عليه ضان بالنبوة وقد منحت لآلاف من آحاد النوع البشرى ليس فيهم من وفق لمثل ما وفق اليه من هذه الأعمال؟

يستطيع معترض أن يزعم أن محمداً لم يكن نبياً ، ولكنه تصنع النبوة واستخدم الحيل لانجاز ما يرمى اليه من نشر مبادئه، ولكنه لا يستطيع أن يثبت أن المحتال يوفق للاتيان بخير مما أتى به جميع المرسلين ، وأن أمره لا يفتضح وقد نيف على الستين .

لقد دلنا التاريخ على أن الرسول كان يلبث فى أمته عهداً طويلا فلا يؤمن به الا الأقلون . ثم يضطر أن يهاجر بقومه إلى حيث يأمن على نفسه وعلى من معه شر العادين ، وكان الله يصيب تلك الأمم بالمبيدات فتصبح فى البائدين .

فاذا كان هذا شأن أكبر المرسلين فما لمحمد اذا لم يكن رسولا حقا

يفرض كلمته على مخالفيه، ويرغم أنوف أعاديه، ثم يحيلهم الى تلك الثقة فيه ؟

إن تشدد متعنت فأصر على نسبة نجاحه الى فصاحته ومهارته وسعة حيلته ، فكيف يسيغ عقله أن يدوم المتصف بهذه الرذائل على زهده فى الدنيا ، بحيث كان يجوع الأيام المتوالية ولم يشبع طول حياته من خبز الشعير ، ويبقى على تواضعه بحيث لا يرى لنفسه ما يجب أن يرفعه على أقل أصحابه قدراً ، حتى قال وهو فى أمنع أيامه بعد فتح مكة لرجل أظهر الخوف منه : هون عليك أنا لست بملك ، ولكنى ابن امرأة كانت تأكل القديد !

العادة المألوفة ، بل السنة المعروفة فى البشر أن الكاذب يكذب ويتداهى ويرائى لنيل غرض يرمى اليه من ملك أو جاه أو ثروة . فماذا كان غرض محمد من تصديه لهذه الدعوة وقد وصل الى درجة من نفاذ الكلمة لم يبلغها ملك ولا رسول، وكان يسهل عليه أن ينال ما كان يتوق اليه من مال وملك ونعيم .

دع كل هذا وتأمل فى رجل أتى من الأعمال ما يكفى عمل واحد منه لأن يجعل الرجل من أبطال التاريخ ، فبأى قوة أتم هذا الاصلاح العظيم فى وقت كان كل أهله جامدين متعصبين !

بل كيف أنشأ أمة من قبائل متعادية فى عشر سنين ، وهذا عمل لا يتم الا بعد تمهيدات كبيرة من توحد المصالح ، وتهيؤ النفوس فى مدى مئات من السنين ؟ قال فولتير أكبر فلاسفة الفرنسيين فى كتابه على الطباع البشرية :

« لابد من حصول مساعدات كثيرة من الأحوال المناسبة فى مدى قرون (تأمل) ، لأجل أن يتم تكوين مجتمع خاضع لقانون واحد »

ثم كيف تسنى له إنشاء دولة فى أمة لا عهد لها بها ، وكيف يحكم بناء تلك الدولة بحيث تصبح بعد سنين قليلة دولة العالم كله ؟

ثم كيف أمكنه تهذيب شعب جاهلى بأسره ، وأكبر الفلاسفة عجز عن تهذيب أهل بيته وحملهم على طريقته ؟ جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية للعلامة (لاروس) وهو بصدد بيان الانتقالات الاجتماعية : « هذا الانتقال فى الأفكار والطباع الذى أنتج الحياة الاجتماعية فى أوربا قد استدعى تعاقب كثير من الأجيال حتى استعدت مخاخ الأفراد لقبولها »

إن ضن ضان على محمد بالرسالة بعد هذا كله ، فليسمح لى بأن أقول بأنه كان أرقى من رسول .

أشهد أن الله قد أحكم كل ما صنع ، فان رجلا يصطفيه خاتما للمرسلين ، يجب أن يكون من سمو التعاليم ، وعلو المبادىء ، والتفرد بضروب التوفيق ، والاستئثار بأعمال لم يوفق الى مثلها أحد إلى اليوم على مثل ما كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم ، ليسلم له أعلم العالمين ، وأرقى المتمدنين ، بمثل ما سلم له به أجهل الجاهلين ، وأحط المتوحشين . فرسالته عامة وخالدة معاً ، فان لم تقع من جميع العقول أرفع المواقع تبادر اليها الوهن ولم تقم بها الحجة ، فماذا تقول والأدلة على رسالة محمد فى القرن العشرين أقوى مما كانت عليه فى أى عهد كان ، وستكون فيما يليه أقوى فأقوى حتى تقوم الساعة ؟

الاسلام دين عام خالد

مدخل على هذا البحث

نشرنا مقالات كثيرة رددنا بها على شبهات أثارها على الاسلام مؤلف كتاب يدعى (مسائل فى الدين) . وأمثال هذه الحملات على الاسلام من حين لحين تدل على أن القائمين بنشر بعض الدعوات الدينية يتخيلون أن الاسلام يمكن ملاشاته وصد الناس عنه ، وهذا غرور كبير، فان ديناً جعله الله خاتماً للأديان . وعاماً لجميع بنى الانسان، وباقياً الى آخر الزمان ، لا يعقل الا أن يكون من المناعة بحيث لا يستطاع هدمه ، ومن استيعاب الحجج ومسايرة مذاهب العقول فى الاستدلال ، بحيث لاتنال منه شبهة ولا تلين قناته لغامز ، مهما توسع فى الأساليب . فان كان خارج دائرة المقررات العلمية رجال يبذلون أوقاتهم وأموالهم ليقطعوا الطريق عليه ، معتمدين على المغالطات والارجافات ، فهم أهون من أن يخشى منهم على هذا الدين ، فان الأصول القائمة على الحقائق العلمية الخالدة لا يمكن تقويضها بمثل هذه المعاول الواهية ، وقد أشار الكتاب الى ذلك بقوله تعالى فى أمثالهم : « ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » .

وقد رأينا أن ننشر مقالات أخرى نبين فيها ماهية هذا الدين ،

وكيف أنه يقوم على الحقائق الخالدة ، ونشير الى وجوه كونها تصلح لجميع البشر ، ونبين كيف أنها لا تقبل الهدم ، وأنهـا ستتغلب على جميع المذاهب فلا يكون غير الاسلام دين فى الأرض . وهو بحث طريف نرجو أن نبلغ منه الحـد الذى يبل الصدى ويشفى الصدور . ولـكن ليسمح لى القراء بتقدمة ثلاث مقدمات لا بد منها لاقامة هذا البحث على قرار مكين ، والله المستعان :

ما هو الدين على اطلاقه

نحن إن بحثنا فى الدين فانما نبحث عن الأصـل المعنوى الذى يقوم عليه من الروح الانسـانى الصميم ، لا عن الاشكال والمظاهر الخارجية التى لا تقف عند حد ، وتختلف باختلاف الامم ومكاناتها من التطورات المادية والأدبية .

انظر للانسان تر له وجودين متميزين ، أحدهما صورى مادى مرتبط بمادة الـكون ارتباطا وثيقاً بحيث تسرى عليه جميع نواميسه ، وتعمل فيه جميـع قواه كما تعمل فى أحقر ذرة منه . وثانيهما روحانى مرتبط بشىء أرقى من مادة الـكون ، وعالم أرفع من عالم النواميس والقوى التى لا تشعر بوجودها ، هى روح الـكون نفسه . تلك الروح التى أوجدت الـكون وأخذت فى تربيته وإعداده للحياة وتكميله على سنة التدرج حتى تبلغ به وبكائناته أوج الـكمال الذى أعدته له .

هنا يخطر للمفكر العصرى خاطر فيهمس فى نفســه : هل للوجود روح حتى يصـح أن ترتبط بها روح الانسان ؟ هذه شبهة مشروعة تستحق الحل والاعتبار ، لأنها ترد على كل من يفكر فى هذه المسائل .

نعم إن للوجود روحا كما له مادة ، ألا ترى فيه تحليلا وتركيباً ، وإيجاداً وإعداماً ، وتصويراً وإبداعاً ، وتوفيقاً ونظاماً ، وتدريجاً وإحكاماً ؟ وفوق هذه المظاهر كلها ألا ترى فيه ترقياً مطرداً ، وتكملا متواصلا ؟ أرأيت زهرة شذية فسألت نفسك كيف تكونت من هذه الأرض الميتة ، وكيف تألفت ألوانها المعجبة ، وتركب عرفها الفياح ، ولطفت حتى لا يحس بها ؟ أرأيت الماء الذى تشرب منه شبما زلالا : مم نشأ وكيف لا ينضب ؟ أنا أحدثك عنه : تبخر حرارة الصيف بعض مياه البحار ورطوبات الأرض فتصعد تلك الأبخرة إلى الطبقات العليا من الجو ماء خالصاً من جميع ما لا بسه من الأقذاء ، فتألف منها سحب لا ترى فى فصل القيظ ، ولكن متى جاء الشتاء تكاثفت ورؤيت على حالة غيوم ، ورحلت إلى حيث الجبال الشم ، وتراكم هنالك بعضها على بعض ، فنى ازداد الجو برداً هطلت ، لا أقول كأفواه القرب ، ولكن كالسيول الزاغبة . فما يسقط على الجبال يتحول بالبرودة إلى ثلج ، وما ينزل إلى الأرض يجرى على ظهرها رهواً حيث شاء . فاذا انقضى عهد المطر كان على رأس كل جبل جبل مثله من ثلج ، فاذا اشتدت عليه الحرارة ذاب منه جزء ونزل على سفحه فيملأ بحيرات هنالك ، فتفيض وتسوق الماء إلى النهر المتصل بها ، فيجرى عباباً متلاطماً ، فتقول الأمم التى تنتفع به رياً وزرعاً قد فاض النهر . . . ثم يقف عن الفيضان ولكن لا ينقطع ماؤه ، لأن تلك الثلوج المتراكمة على الجبال لا تفتـأ تذوب تحت حرارة الشمس يسيراً يسيراً لتمد الأحياء دائماً بالماء ، وإن كانوا لا يفكرون فى ذلك طرفة عين .

إحداهما مشتقة من الأخرى ، فالحياة الانسانيــة قبسة من الحياة الوجودية ، كما أن الجسد قطعة من مادته الأرضية ، فالشعور بهذا الترابط بين الروحين ، والحنين إلى زيادة توثيق عراهما ، وتعريض صغراهما للاستمداد من كبراهما ، هو أصل الدين وينبوعه فى النفس البشرية .

فالدين بهذا الاعتبارشعور بالارتباط الطبيعي بين الانسان وروح الكون .

وإذا كان الدين هو هذه العلاقة الطبيعية بين الانسان وروح الكون ، فى مستوى الشعور بالعلاقة الموجودة بين مادته ومادة الكون ، فلا يستطيع مهما بذل من الجهود أن يتخلص من الشعور بهذه العلاقة ، ولا أن يعفى نفسه من العمل لها . فاذا قلنا إن الانسان لا يمكنه أن يعيش بلا دين فلا نكون مغالين ، بل نكون مماشين لطبيعة الأشياء . فاذا كان قد أصاب الدين فتور فى بعض الأحيان فذلك فى مظاهره الخارجية لا فى جوهره وحقيقته ، ولا فى شعور النفس بالحاجة إليه .

وقد قال بهذا القول غطاريف الفلسفة العصرية التى نشأت فى ربوع المدنية المادية ، فهذا الفيلسوف الكبير (أجوست سباتييه) يقول فى كتابه فلسفة الدين :

« لماذا أنا متدين ؟ إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا وأرانى مسوقاً للاجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين لأنى لا أستطيع غير ذلك ، فالتدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون ذلك

أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج . فأقول لهم قد اعترضت على نفسى كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ، ولكنى وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها . وأن ضرورة التدين أشاهدها بأكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية . فهى ليست أقل تشبثا منى بأهداب الدين .

إلى أن قال : « واذن فالدين باق وغير قابل للزوال ، وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن ، نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعا وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجاريب الحيوية المؤلمة » انتهى .

وقال الفيلسوف الكبير (ارنست رينان) فى كتابه (تاريخ الأديان)

« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه ، وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الانسانى فى المضائق الدنيئة للحياة الارضية » . انتهى

بحث فى الوحى

أشد ما ترتطم به عقول المعاصرين من الشبهات العلمية ، مسألة الوحى ، فيستبعدون ان يكون الله قد أوحى إلى رجال منهم ليحملوا إلى الناس من التعاليم ما يقيمهم على الصراط السوى فى حياتهم الدنيا ، وما يفيدهم من العبادات فى حياتهم الأخرى . فلا بد لنا من وقف المقدمة الثانية من بحثنا هذا على هذه المسألة الخطيرة :

إن مبدع الوجود الذى صور الكائنات كلها على أى أساليب الايجاد شاء ، سواء أخلق كلا منها خلقا مستقلا أم اشتق بعضها من بعض على قاعدة التحول التدريجى ، لم يقطع إمداده لها طرفة عين . وكيف يعقل غير ذلك وهى مستمدة وجودها منه ، وسابحة فى ملكوته سبح النينان فى المحيط الزاخر ، منه وجدت وبه تحيا وإليه تؤب ؟

ومما يجب لفت النظر اليه أن تدبير روح الوجود للكائنات وشدة اتصاله بها ، أظهر ما تكون فى الكائنات الدنيا من الأحياء . ثم يأخذ اتصاله بها فى الخفاء حتى يصل الأمر إلى الانسان ، فيخيل اليه أنه مستقل عنه ولا يعتقد باتصاله به إلا باعمال الفكرة وإنعام الروية .

خذ فى يدك بزرة تفاحة وتأملها ، تجدها تكاد لا تفترق عن الحصاة الميتة . فان قيل لك ، ولم تكن رأيت ذلك من قبل : إن هذه البزرة توضع فى الأرض فتنبت ، ويأخذ هذا النبات فى النمو حتى يصير شجرة ثم تزهر فتنفرج زهورها عن ثمر التفاح اليانع فى مذاقه الشهى وأريجه الشذى ، ولونه الوردى ، وملمسه الحريرى ، لكذبت محدثك واتهمته بالازراء بك ، والسخرية من عقلك ، ذلك لأنك لا تعقل أن هذه البزرة الغافلة عن وجودها تنفرج متى غرست فى الأرض وسقيت بالماء عن جذير وسويق ، الأول يغوص فى الطين يتطلب مواده الذائبة وأملاحه المقومة ، ولا يرتفع إلى سطحه . والثانى يرتفع إلى سطحه متطلبا الهواء والنور ، ومهما حاولت أن تغير وضع هذين العضوين فلا تستطيع ذلك مهما جهدت فيه . أليس هذا

الأمر وحده الذى ليس له علة معقولة يدلك على فعل الروح الالهى فيه ، وإلى دفعه لكل من هذين العضوين إلى موضعهما اللذين لا بد من وجودهما فيهما لاداء وظيفتهما فى الانبات ؟

أليس هذا الأمر وحده يدل على هداية الحياة العامة لهذا النبات الضعيف ، وعلى دفعها لكل عضو فيه إلى موضعه ؟

ثم إذا تأملت كيف يهتدى ذلك الجذير وهو مغروس فى عيلم من المواد المختلفة التى لا تحصى كثرة لانتخاب العناصر التى تتألف منها شجرة التفاح ، وتنتج زهرتها وتثمر ثمرتها ، وتؤاتيها بعرفها المعروف ومذاقها المعهود ، لو تأملت فى هذا وفى جميع شئون المملكة النباتية ، فاجأت الروح المدبر وهو يهدى هذه الكائنات الضعيفة إلى ما يصلحها ، ويفعل فى تكوينها فعلا مباشراً لا يغنى عنه إلا من ليس له بصر .

ثم دع المملكة النباتية وارتق إلى المملكة الحيوانية ، وانظر إلى تلك الكائنات الســـاذجة المكونة من خلية واحدة وهى أبسط ما يمكن تصوره منها . تجدها ممتعة بالعلم الذى يحفظ وجودها ويصون نوعها ، وبالمحاولات التى لا غنى لها عنها فى الدفاع عن أنفسها ، وفى الاحتيال للخلاص من ورطاتها .

فمن أين أتى هذه الكائنات هذا العلم وهى محرومة من الأعصاب ومن المخ معا ؟ أليس هذا العلم لديها الهاماً من خالق الوجود نفسه ؟

من الذى أدرى البعوضة أنها يجب أن تبيض على سطح الماء الراكد وأنها مضطرة لوضع بويضاتها فى قوارب صغيرة تعوم على سطحه ؟ ومن

الذى وضع فى جثمانهـا أجربة تحتوى على مادة تجف بمجرد ملامسة الهواء تصلح لعمل تلك القوارب ؟ ومن أشعرها بأن تلك المادة تنفرز بالضغط عليها ، ومن لقنها صناعة تلك القوارب واضطرها لوضع بويضاتها فيها ، وهى لا تعيش حتى ترى ذريتها خارجة منها ، ولم تر هى أمهاتها تفعل ذلك قبلها ؟ وقس على البعوض جميع أنواع الحشرات والهوام مما لا تحصى أنواعها كثرة ، وكلها تلهم إلهاما وتعيش على أعجب ما يتخيله المتخيلون من التصرفات المدهشة ،

هذه ليست أموراً غريبة فحسب ، ولكنها محيرة للعقل أيضاً ، ومجبرة له على الاعتقاد بأن عالم الحيوانات على اختلاف أنواعه ، وتباين وسائل حياته ، وتعدد محاولاته ، يحيا تحت عناية الروح الالهية تمده بالالهامات الضرورية لحفظ ذاته ونوعه ، بحيث لو تركته طرفة عين لهلك .

أترى أن هذه الحيوانات كانت تستطيع أن تبقى فى معمعان هذه الهيجاء الحامية ، التى تشنها الطبيعة عليها بعواملها المختلفه ، لولا هداية الرحمة الالهية لها وعملها المباشر على صيانتها من معاطبها وارشادها الى وجوه نجاتها ؟

لقد وصلنا الى الانسان ، فهل يتلقى مدداً من الالهام الالهى على نحو ما يتلقاه النبات والحيوان ؟ أما المدد الجثمانى فلا يمكن التشكك فيه . فانك تبصر ولا تدرى ما يحدث فى بلورية عينيك من التحدب والانبساط على حسب أبعاد المرئيات ، ولا بحدقتيهما من الضيق والاتساع على قدر كثرة النور وقلته ، وتأكل وتهضم وأنت غافل عما يحدث فى أحشائك من التحليل والتركيب ، والتصفية والتصعيد ،

حتى ليخرج من الخبز والخضر والفاكهة التى نتعاطاها عضل ودم وعظم وشعر وأوتار وغضاريف وأعصاب ، فمن الذى يدير كل هذه الأجهزة الدقيقة وأكثر أهل الأرض لا يعلمون من أمرها شيئاً ؟ ومن الذى يهديها الى وظائفها ويقودها الى ما يقومها ويصلحها ؟

هذا حال الجثمان فهل يتلقى الروح الانسانى مدداً عقلياً من العلم الالهى ؟

لقد أريتك كيف أن الحيوانات تلهم ما تعمله الهاما ، وتقصر عن أن تنتجه بعقولها انتاجا ، فشريعتها مبثوثة فى جميع آحادها على السواء . فليس فيها علماء وجهلاء وأوساط ، ولكن كل فرد منها يلهم ما يصلحه الهاماً . فيكرر العمل الذى كان يعمله نوعه منذ وجد على الأرض ، فلما وجد الانسان وكان قريباً من الحيوان فى سذاجته وتجرده من الأوليات الضرورية لوجوده ، تولاه الوحى لا من طريق الإلهام والسوق ، ولكن من الطريق التعليمى ، ما دام قد استأهل هذه المرتبة ، فيولد الانسان مجرداً من كل علم وكل حيلة . فيهديه أبواه وقبيله الى وجوه العمل ، فأصبح للوحى سبيل خاص بالانسان مناسب لكرامته، وهو أن يفضى الحق سبحانه بما يجب أن يعلمه الكافة ويعملوا به الى واحد منهم ، فيقوم بنشره بين معاشريه من نوعه .

هذا هو الذى حدث فعلا ، فان الانسان قد اعترف منذ أقدم أيامه بما تركه من الآثار ، وما نقشه على الاحجار ، بأن آحاداً منه كانوا يتلقون الوحى فى أحوال خاصة من حياتهم ، فينشرونه فى قبيلهم تحت اسم ملة أو ديانة ، فيتلقاه الناس بالقبول أو يرفضونه ، إيثار الوحى أقدم منه .

فاذا كان هذا الاعتراف من الأمم منذ القدم لا يكفى فى اقناع الآخذين بالفلسفة الحسية ، بحجة أن أولئك الاقوام الأقدمين فى جهالتهم وعماياتهم لا يصح أن يوثق باقوالهم فيما يسمونه وحياً ، ولكن قد يكون ذلك مذهباً لرجل رشيد سبهم لقبهم اياه تحت هذا العنوان ليعملوا به مجبرين لا مخيرين

قلنا قد يكون ذلك ، ولكن الواقع ان الانسان وهو يجتاز دور الحيوانية (عفواً فاني أخاطب أهل الفلسفة الحسية)، لا يعقل ان يكون قد قطع فجأة عن حالة الالهام الحيوانى الذى تولى أمر أسلافه طوال عهدهم بالوجود ، ولكن الذى يعقل ويساير الطبيعة أن يكون قد انتقل من ذلك الدور تدريجاً ، حتى لا تعمى عليه وجوه الحياة فيبيد ، ولم يجهد فى حوادث الوجود الخبط والخراف كما هو معلوم . وبعد تمام تميزه عن العالم الحيوانى كانت روحه بحكم هذا التدرج نفسه قد تطورت طوراً دريجاً ، فأصبحت قابلة للاتصال بالروح الالهى من طريق روحانى محض

يقول قائل ما معنى اتصالها بالروح الالهى من طريق روحانى ؟ أليس هذا من تشبيه الماء بعد الجهد بالماء ؟

نعم هو كذلك لدى من اكتفى من العلم بما تلقاه فى الكتب المدرسية المحدودة ، ولكن العالم منذ سنة (١٧٧٠) أى من عهد أن أعلن الدكتور الألمانى (مسمر) بانه اكتشف سيالا حيوياً فى الانسان أسماه المغاطيس الحيوانى ، وهو جاهد فى تحقيق وجود هذا السيال ومعرفة خصائصه بواسطة التنويم الصناعى ، وقد ثبت أخيرا وصار

فى عداد المعارف الأولية لدى الباحثين بان فى باطن كل منا عقلا مستقلا غير عقلنا العادى أرفع وأوسع مجالا منه ، هو الذى يوحى الى الانسان الميول الطيبة ، وينهاه عن المنكر والبغى . وهذا العقل الباطن هو الذى يدير جثمانه ، ويدير أجهزته وأعضاءه ، ويصلحها إن اعتراها عطب .

هذا العقل الباطن الذى لا يحس الانسان بوجوده ، متصل بالحياة الروحانية العامة اتصالا مباشراً ، فهو يتلقى عنها ما يناسب درجته من المعارف ، ويحاول أن يعكسه على صاحبه من طريق الالهام . فهل يعقل ان لا يكون هذا العقل الباطن قد وصل فى بعض الناس الى درجة رفيعة بحيث يستخدمه الروح الالهى لايصال شريعة جديدة الى شعب هو فى حاجة اليها ؟

كيف يعقل خلاف هذا وهو الذى حدث فعلا فى كل أمة ، وفى جميع أدوار التاريخ ، فلم تخل الأرض قط من داع الى الحق والى الفضائل ، مدعياً أنه أرسل لأداء هذه المهمة إرسالا ، فتراه يعرض نفسه للهلكة فى سبيل تعميم دعوته ، ويصبر على البأساء والضراء متبعاً سمت الصالحين من الزهد فى الدنيا والتواضع وإيثار الفقر حتى ينجح فيما تصدى له أو يقتل فى سبيله .

إذا وجد من القارئين من ينكر العقل الباطن ويتشكك فى اتصاله بالعالم الروحانى مباشرة ، ومن لا يقول بأن للانسان حياتين حياة عادية هى ماهو عليه فى حالته المعهودة ، وحياة روحانية يجليها التنويم المغناطيسى بما لا يدع للانسان شبهة ، ولا يعترف بان الانسان فى حياته

الروحانية يعيش فى عالم علوى يزخر بالحقائق الالهية، والمعارف السماوية، فينال منها على قدر استعداده، ويؤديه لعقله العادى، محاولا اعداده للترقى والتكمل، قلنا إذا كان فى القارئين من ينكر هذا كله فليس لنا من وسيلة لاقناعه إلا بلفته للتوسع فى قراءة ما كتبه العلماء الباحثون فى مسألة التنويم المغناطيسى، والعقل الباطن على الأسلوب العلمى الصارم.

فاذا كان من الناس من يتجرءون على التكذيب بهذه الحقائق، مع إعفاء أنفسهم من الاطلاع على ما كتب فيها، فهؤلاء أمة وحدهم، وليس يضير الحقائق أن يجافيها عدد محصور من الجامدين.

ماذا يتطلبه الناس من الدين.

الناس من ناحية الثقافة العقلية ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: علماء منتهون، وأوساط متعلمون، وعامة مقلدون، وبين هذه التقاسيم العامة درجات تكاد لا تحصى ترجع كلها إلى عقلية رئيسية مع خلاف لا يعتد به فى مثل هذه البحوث. وكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث تتطلب من الدين ما يناسبها من الغذاء الروحانى، فما يكفى الطبقة الدنيا لا يكفى ما فوقها، وما يقنع هذه لا يقنع الطبقة العليا من المنتهين، ولا مناص لنا ونحن نبحث فى الدين العام الخالد، أن نلم بكل ما تتطلبه هذه الطبقات الثلاث، لنرى هل هنالك من دين يوفى بحاجاتها كلها، فيكون هو الدين العام الخالد، أم لا، فتلجأ الانسانية إلى شىء جديد؟

لا يتطلب العلماء المنتهون أن يأخذوا عن الدين آدابا وأخلاقا ولا أن يتعلموا منه أسلوبا فى الحياة. ولا دستوراً فى المعاملات يتفق

وأصول العدل والاخاء والمساواة . فانهم وضعة المذاهب ، وبناة الأساليب ، وصاغة الأصول ، وإنما هم يتطلبون من الدين أن يصلهم بروح الوجود ايصالا مباشراً يستمدون منه حياة لأرواحهم ، ونوراً لعقولهم ، وسكناً لنفوسهم ، ومطمأناً لقلوبهم .

يشغل هؤلاء العلماء المنتهين شاغل ضخم أذهلهم عن كل ما سواه ، وهو هذا الوجود العظيم ، وما يعمل فيه من القوى . وما يتخلله من المساتير ، ومايتراءى فيه من الآيات ، وما يحيط به من العلل الأولية ، والعوامل الخفية . وما وراء ذلك كله من الروح المدبر والاصل الأصيل

إن هؤلاء العلماء قد قتلوا المذاهب خبراً ، فازدادوا فى بحوثهم حيرة، فكلما ارتفع أمامهم حجاب انفرج عن مجهول أهول مما سبقه ، وكلما فتحت أمامهم باحة تراءت لهم منها غاية قصية لامناص لهم من الوصول اليها ، قبل أن يطمعوا فيما بعدها ، وهم مع هذا تحيط بهم مسائل لا يتخيلون لها حلا ، وتقوم فى وجوههم حوائل لايستطيعون لها نقبا ، وتساورهم معاضل لا تترك لهم بسواها شغلا . فاذا ألقوا نظرة إلى أنفسهم وإلى الوسائل التى يتوسلون بها لكشف هذه السدف عن عقولهم ، تكشفت لهم عن ضعف يدفع إلى القنوط من الوصول، وقصور لا يدع لهم مطمعاً فى أقل محصول !

فاذا أعلن أمثال هؤلاء بأنهم فى حاجة إلى التدين ، فانهم يعنون من ذلك أن يلقوا بأنفسهم بين يدى قيوم السموات والأرض يتنسمون من ناحيته نفحة تكون ، وهم فى وطيس هذا البحث ، سكنا لأرواحهم، وملاذا لشعورهم،حتى لاتحترق رءوسهم لوعة،وتتمزق صدورهم حيرة.

فالتدين لدى هؤلاء صعود بالروح إلى قيومها . واتصال به فى عالمها ، واستمداد منه فى تلهفها . فان ازدادوا فى لياذهم بها حيرة كانت حيرة المحب الواله يتحرى سبل الوصال ، لا حيرة الوامق اليائس استدت فى وجهه أبواب الآمال .

هؤلاء المفكرون الكبار لايثنيهم عن دين أن يكون فيه ما يحتاج لتأويل ، أو يستعصى على التعليل ، فهم يعزون كل ذلك الى عوامل توجبها البيئة القاهرة . وتستدعيها عقلية الشعوب المتأخرة ، ولاتتجرد من مثلها المثل العليا حتى فى الطبيعة نفسها ، على أنها الأصل الأصيل للكائنات المادية ، لا يثنيهم عن دين كل هذا إذا كانت روحه تصلح أن تؤثر فى أرواحهم ، وأسلوبه يتآخى وأسلوبهم ، وكانت سبيله تخلو من العواثير ، وغايته أبعد من أن تنال بالتخيل والتفكير ، فهم قد ألفو المجاهيل حتى كرهوا أن يتخيلوا لها حلا ، وأنسوا ببعد الغايات حتى أنفوا أن يتوهموا لها حداً ، لأنهم يرون أن هذه العظمة المحيطة بهم لا يصح أن تتكشف مساتيرها لعقل أرضى مهما بلغ من القوة ، ولا أن يحيط بحقيقتها نظر مادى مهما نفذ فى سرائر الأمور .

ولا بد لى من التنبيه هنا إلى أن هؤلاء العلماء الاعلام يرون أن لا حاجة بهم إلى الأديان المعروفة ، فهم يعتمدون فى تدينهم على ما غرس فى الفطرة الانسانية من الدين الحق . وقد حمل بعضهم اليأس من الأديان الموجودة على وضع دين دعوه الدين الطبيعى .فصلنا أصوله فى كتابنا المدنية والاسلام .

أما الاوساط من طائفة المتعلمين ومن فى مستواهم من المفكرين

فيتطلبون من الدين أن يكون واضح الحجة ، ناهض الحجة ، يماشى العقل فى غاياته ومراميه ، ويساير الطبيعة فى أوامره ونواهيه ، لا يضع للرقى حداً ولا يسد على العقول مجالا ولا يحرم ماتشعر النفس بضرورته من المباحات ، ولا يضيق مااتسع من المحاولات ، وأن يكون مرناً يسع مايجد من الآراء العلمية ، ولا يستعصى على ما يثبت أو يرجح من المذاهب الفلسفية ، وما يقوم الدليل عليه من الشئون الكونية .

فهم يرجون من الدين أن يقتصر على ارشادهم الى طريق الاخلاق والآداب والفضائل والكمالات دون أن يحاول تحديدها، تاركا للعقول حرية التطور فى الشعور بها ، وبلوغ الغاية التى تنتظر منها .

فاذا كان لابد للدين من شريعة ، تطلبوها شريعة عامة تنص على الحقوق الطبيعية ، وعلى وجوب تحرى العدالة، وعلى اقامة الاحكام على أرسخ الأصول وأحكم القواعد ، دون أن تضع للنزعة التشريعية فى الانسان حدوداً لا يمكن تعديها، وللحوادث والوقائع أحكاما لا يصح أن يعدل عنها الى غيرها ، مما يثبت أنه أدنى الى العدل مما وضعه القدماء لها .

فهم يريدون أن تكون شريعة الدين أصولا أوليـــة ومبادىء رئيسية ، تصح أن تكون دستوراً للمشترعين ، لا أن تكون شريعته تفصيلية إن انطبقت فى عهد من العهود على الحوادث شذت عنها فى عهد آخر ، وباينتها فى اكثر جراءاتها ، وفى الذرائع التى يتذرع بها للوصول الى تجلية الحقائق .

فهذه الطبقة بما تسرب الى كثير من آحادها من الشبهات الفلسفية ؛

وبما تشبعوا به بحكم تربيتهم المدرسية أو المخالطات الاجتماعية من الأصول العلمية ، وبما أثر فى نفوسهم مما تكتبه المجلات الالحادية من الاستهانة بالدين ، تنشأ بهم حاجة قوية الى الدليل المحسوس ، والى الحجة القوية ، فيتطلبون أن يجدوها فى الدين نفسه ، لا فى القائمين عليه من حفظته ، فهم على ضعفهم أشد على الدين من العلماء المنتهين ، فلا يغفرون منه مايغفره أولئك، ولا يتسامحون فيما يتسامح به كبار العقول، لذلك يكثر الملحدون فى هذه الطبقة ، ويجمد بعضهم فى الالحاد الى حد الاستعصاء . وبالنظر لعدم شعورهم بهول ذلك المجهول الضخم، الذى يشغل العقول القوية ويصرفها عن كل أمر غيره ، تراهم يذهبون فى الحادهم الى حد الاستخفاف والسخرية من المعتقدين بشىء فوق الطبيعة المادية . فان عرض ذكر كبار العقول ، وعرض عليهم ما قالوه فى الدين المطلق ، هزئوا بهم وقالوا إن العلماء المنتهين لطهارة نفوسهم وسلامة صدورهم ، يقبلون الانخداع ولا يوثق بعقولهم فى غير بحوثهم التى مرنوا عليها من عمرهم سنين .

هذه الطائفة إن شعرت بالحاجة الى دين صحيح ، تخيلته لبنا سائغا خاليا من كل ما يحتاج لتأويل ، أو يستعصى على الدليل ، الدليل الذى يرتضونه هم لا مايرتضيه أساتذتهم العارفون .

ولما كانت هذه الطائفة هى سواد المتعلمين والقابضين على أزمة الأعمال ، كان موقف الدين حيالهم وبخاصة فى هذا العهد ، عهد الشكوك والمجادلات ، من أخشن المواقف . وكثيرا ماهاجمه أفراد من فطاحل كتابهم على طريقة الدس ، فقوضوا دعائمه فى نفوس كثير من طلاب

العلم ، فأخرجوهم الى باحات الاباحة الحيوانية ، لأن آحاد هذه الطبقة لا يصادفون فى أنفسهم الشكائم التى تردعهم عن الغى ، فيخوضون فى حمأة الرذائل ويكونون مثالا لغيرهم فى التحلل من جميع التبعات الأدبية .

أما الطبقة الثالثة — وهم العامة، فهم مقلدون فى دينهم ودنياهم، وإنما ينحصر تحديهم فى أهل الطبقة الثانية فيتلقون عنهم فى صمت جميع مايفعلون وما يقولون ، ثم يصبونه فى قوالب عاميتهم ، فيصبح إن كان ما تلقفوه شراً ، . جساً على رجس . فهؤلاء فى الواقع مجنى عليهم يستحقون الرحمة من الوعاظ والمرشدين .

هذه حال الطبقات الثلاث المكونة للجماعات البشرية فى هذا العصر حيال الديانات ، وما يتطلبونه من دين ، فلم يبق علينا إلا النظر فى هل الاسلام يوفى بجميع هذه الحاجات العقلية والنفسية فيكون هو الدين العام الخالد ؟

شأن الاسلام مع العلماء المنتهين

فصلنا فى مقالنا السابق مايتطلبه العلماء المنتهون من دين، وتساءلنا هل يوفى الاسلام بمطالبهم هذه فيكون هو الدين العام الخالد ؟ واليوم نقول نعم . وإليك البيان :

قلنا إن العلماء المنتهين لا يهمهم من دين إلا أن يصعد بأرواحهم إلى قيومها ، لتتصل به فى عالمها ، وتستمد منه القوى فى عروجها ، أما ما عدا هذا من الآراب فلا يعنيهم أمره ، لاستغراق عقولهم فى ذلك المجهول الضخم الذى يحيط بهم . والاسلام من هذه الناحية أصلح مايكون سكناً لأرواحهم ، ومتنفسا لعقولهم، وموجهاً لميولهم ،

فهو ان شاءوا هجم بهم على معقل اليقين فنقلهم من عالم الروح إلى درجات لم يحلموا بها ، وان شاءوا جال بهم من عالم الشهادة فى مناح تزيدهم إكباراً لهذا المجهول الضخم ، وتضاعف من هممهم لكشف الحجاب عنه والوصول إلى سر لبابه .

أول ما يفاجئهم من هذا الدين قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . فاذا قرأوه غشيهم من احترامه ما غشيهم ، وخالطه هذا الاحترام قدر كبير من التعجب والدهش . فان دينا مضى عليه نحو أربعمائة وألف سنة ينص كتابه على أن الدين فطرة فى النفس ، وأن هذه الفطرة نفسها هى الدين الحق ، لهو أمر يقضى بأشد درجات الحيرة ، ويدعو الى تفكير كبير فى حقيقة مصدره ، فان مثل هذا القول البعيد الغور لم يتأت لكبار الفلاسفة الأقدمين ، ولا يمكن أن يدرك خطورته البشر إلا فى هذه القرون الأخيرة . ومؤداه أن النفس مفطورة على الدين ، وأن الاسلام هو نفس تلك الفطرة فالاسلام ليس بتقاليد وموروثات وآراء وشروح ولكنه تلك الفطرة مجردة من كل شوب . وهى تؤدى الانسان بقواها الذاتية إلى أقوم الطرق وأعدل المذاهب . وتكون هذه الطرق والمذاهب عرضة للتطور على نسبة ما يدخل فيه عقله من التطورات المتعاقبة . فلا يعقل والحالة على ما ترى أن يوجد مذهب أرسخ من هذا المذهب أساساً ولا أشد على النقد مراسا ، ولا أبعد فى المعقولات غوراً . وقد تسمى بأخص صفاته وهو (الاسلام) . ومعناه الاستسلام إلى الله متجرداً من كل

ماأنتجه الفكر، وماأثمره النظر، وماورثته النفس، وماصورته المخيلة.
ودليلنا على هذا الفهم من الكتاب حال ابراهيم فى أول أمره، وقد نشأ فى قوم يعبدون الكواكب، كما روى عنه الكتاب الكريم فى قوله تعالى: «فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى، فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى، هذا أكبر، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون. إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيف وما أنا من المشركين»

هذا دين ابراهيم الذى قال فيه الكتاب: «ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العالمين. ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب، يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون»

والدليل من السنة على أن الاسلام هو الفطرة مجردة من كل شائبة قوله صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة، وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، أى أن كل مولود يولد مفطورا على الدين الخالص الذى هو الدين الحق وحده، وإنما أبواه يلقنانه من التعاليم ماهم عليه منها، وهو ينافى الاسلام جملة وتفصيلا، لأنه لايعتد بدين غير تلك الفطرة نقية ساذجة حرة مستعدة لقبول كل حسن، ودفع كل قبيح، وللتمذهب بكل ما يقوم على صحته الدليل، والاستعاضة

عنه بغيره متى لاح لها أنه أقوم منه سبيلا .

فهذه الفطرة ، فطرة المولود قبل أن يلقن دينا من الأديان ، وتعليما من التعاليم ، هى الاسلام الذى جاء القرآن بالدعوة اليه ، فهل صادفت فيما بين يديك من المذاهب الفلسفية مذهبا فى الدين أرقى من هذا المذهب ، وأساسا له أبعد غورا من هذا الأساس ؟

فالاسلام لا يؤخذ بالتلقين ، وإنما هو الطبيعة نفسها خالصة من جميع المذاهب البشرية ، فكل مولود يولد مسلما بطبيعته ، فيتأدى الى خير المذاهب فى مدى حياته بعلمه وعقله وتفكيره ، ولا يحتاج لمن يرشده اليه . فهل بعد هذا مرمى لمن يريد أن يذهب فى تحليل الدين الى أبسط عناصره ؟ وهل من فلسفة فى الأرض تقوى على دحضه وقد أخرجه القرآن من دائرة الأمور العقلية ، وأودعه حظيرة الشئون الفطرية الطبيعية ؟

فالعالم المنتهى يذهل وتأخذه الحيرة متى رأى أنه أمام مذهب هو نفسه المذهب الذى حصله وقام عليه بعد أن احترق رأسه تفكيرا فيه ، وذابت نفسه تعطشا اليه .

فاذا أراد هذا العالم المنتهي أن ينظر فى أسلوب هذا الدين وفى تطبيق هذا الاصل على ما فيه من العقائد والعبادات والمعاملات ، رآه قائما على أكمل الوجوه وأحكمها . وأول ما يود الوقوف عليه منه مسألة العقيدة بالخالق ، وهى المسألة التى تلاعبت بها أهواء أهل الملل فذهبوا فيها مذاهب شتى ، وتحكموا فيها الي مدى بعيد ، كأن الخالق مخلوق مثلهم تجرى عليه الاحكام التى تجرى عليهم ، أو هو مما يمكن

تناوله بهذا العقل الكليل . فاذا وقف العالم المنتهى على ما هو بصدده ر ى ما يكاد يذهب بلبه تعجبا ! رأى أن هذا الدين قد سد على ذويه جميع السبل التى تؤدى إلى ذلك الفضول المزرى بكرامة العقول . فوجد القرآن يقول :

« يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » ويقول: « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » . ووجد رسول الاسلام يقول : « إن الله قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار ، وإن الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم » ، أى أن الملأ الأعلى وهم فى عالم الروح ليطلبون العلم بالله كما نتطلبه نحن ونحن فى عالم الأجساد فتساوينا جميعا فى الجهل به ، وإن اختلفنا فى وسائل التحصيل هذا الاختلاف الكبير .

هذا نص الكتاب والسنة ، فلا عجب أن أصبح القول بالعجز عن معرفة الله عقيدة اسلامية . فقد روى عن أبى بكر أنه قال :

« العجز عن درك الادراك إدراك » . وهو أبلغ من الاشارة إلى مجرد العجز . فقد اعتبر الصديق هذا العجز نفسه علما ، وهو قول فى منتهى الاصابة وبعد الغور .

ووضع الأصوليون الاسلاميون هذه القاعدة العملية التى تقطع السبيل على كل محاولة فقالوا : « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك »

وروى عن امير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال كما ورد فى مجموعة كتبه وخطبه الموسومة بنهج البلاغة ، وقد سأله بعضهم أن يصف الله حتى كأنه يراه عيانا : فغضب الامام وقال له فى كلام طويل بليغ :

« واعلم أن الراسخين فى العلم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب . فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم عن كنهه رسوخا . فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين. هو القادر الذى إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته ، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوته ، وتولهت القلوب اليه لتجرى فى كيفية صفاته ، وغمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهى تجوب مهاوى سدف الغيوب ، متخلصة اليه سبحانه ، فرجعت اذ جبهت معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا تخطر ببال أولى الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته » . إلى أن قال

« كذب العادلون بك إذ شبهوك بأصنامهم، ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم . وجزءوك تجزئة المجسمات بخواطرهم، وقدروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم . وأشهد أن من ساواك بشىء من خلقك فقد عدل بك ، والعادل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك ، وأنك أنت الله الذى لم تتناه فى العقول فتكون فى مهب فكرها مكيفا ، ولا فى رويات خواطرها فتكون محدوداً مصرفا »

هذا كلام جليل ، فان لم تصح نسبته إلى أمير المؤمنين على فهو على أية حال من مولدات المسلمين . وفيه دلالة على حقيقة مذهبهم فى

هذه المسألة الأولية . فاذا وقف العالم المنتهى على هذا التفصيل ، وسرح طرفه فى غيره من المقررات الاسلامية ، وأدرك أن هــذا الدين قد بنى كله على أصله الأصيل ، وهو أنه هو فطرة التى تولد عليها كل نفس انسانية ، وأن كل ما جاء فيه من التعاليم فى الكتاب والسنة النبوية قائم على ما تتطلبه هذه الفطرة ، وما يقتضيه تطورها فى الكمال ، وهذه الفطرة ، كما يشعر به كل حى، سلطانها العقل وطريقها العلم ، ودليلها الواقع، وعدوها كل ما خالف هذه الشرعة ، فهل نص الاسلام على كل ذلك نصوصا لا تقبل التأويل ، وقام صرحه المشمخر عليها فى كل دواره فى خلال العصور ؟ نعم ، وسنبين ذلك تفصيلا فى فصولنا المتابعة التى نحدد فيها شأن الاســلام مع أهل الطبقة الثانية وهم الأوساط إن شاء الله

شأن الاسلام مع الأوساط

قلنا فى مقال سبق إن طائفة الأوساط ومن فى مستواهم من المفكرين أول شيء يتطلبونه من الدين أن يكون واضح المحجة ، ناهض الحجة ، فما هى محجة هذا الدين ، وما هى حجته التى يعتمد عليها حيال الأمم والأجيال البشرية ؟ وهل كان للناس به حاجة ، وهل لا تزال هذه الحاجة داعية إليه ، أم جاء ليزيد عدد الأديان واحدا ، ويوسع شقة الخلاف بين المتدينين وقد بلغوا منه الحد الذى ليس وراءه مذهب لمستزيد؟

لقد رأيت فى المقالة السابقة أن الاسلام هو الفطرة التى فطر الله عليها الخلق ، فلا نعود الى ذلك الكلام ولكننا نحيل القارىء اليه ،

ونزيد عليه قولنا :

يعلن الاسلام قبل كل شيء بأنه دين عام أنزل للبشر كافة ، وأن الرسول الذى جاء به هو خاتم النبيين ، تم به عهد الوحى الالهى ، وخلى بين الانسان وعقله ، بعد أن بلغ الحد الذى يستطيع معه أن يستقل بهداية نفسه ، فقال تعالى: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون» . وقال : «قل يأيها الناس انى رسول الله إليكم جميعا » وقال : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » .

فبأى شيء أرسل خاتم النبيين ، وأى دين حمله إلى الناس كافة يصلح أن يقيمهم فى اختلاف بيئاتهم ، وتباين عقولهم ، على الصراط الذى يتأدى بهم إلى الغايات البعيدة من الترقيات الصورية والمعنوية؟

يصرح الاسلام بأنه لم يأت الناس بدين جديد ولكن أتاهم بالدين الأول الذى أوحاه الله إلى المرسلين كافة من أول أبى البشر الثانى نوح إلى عيسى بن مريم عليهما السلام ، فقال فى نص لا يحتمل التأويل ، ولا يقبل التحريف : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل

الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم (أى لا حجاج ولا خصومة) الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

هذا كلام صريح فى أن الاسلام هو الدين الذى أوحاه الله إلى أول المرسلين بعد آدم ، وأنه ما زال يجدد الوحى به لكل رسول حتى خاتم المرسلين ، وقد تولى القرآن نفسه شرح هذا الاجمال ، فقال إن الدين الأول هو القيام على الفطرة ، وعدم التفرق فى مذاهب التدين . هذا كلام صريح فى الدعوة إلى توحيد الأديان ، وحكم بات بأن التفرق فيها ، على وحدة أصلها ، خروج عليها جميعا . فان الفطرة الانسانية مادامت واحدة فى صميم كل نفس ، فلا معنى للاختلاف فى مقتضياتها ، إلا أن يكون ذلك بغيا من القائمين عليها ، لتسخير الناس لارادتهم ، وذهاب كل طائفة منهم بفريق من البشر يستغلون جهالته لاشباع مطامعهم . فأمر الله رسوله أن يبرأ إلى الله من ذلك ، ويصارح به الأمم فى مشارق الأرض ومغاربها ، فقال : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » وأن يعلن إيمانه بجميع الكتب إجمالا وأن لا يخاصمهم ولا ينابذهم ، بل وأمر أن يعدل فى الحكم فيهم ، راجيا أن الله يجمع بينه وبينهم .

وقد طبع الاسلام كله بهذا الطابع الألهى ، حتى أن صيغة الأيمان التى أمر المسلمون أن يقولوها أصرح ما يمكن أن تكون إعلانا له ، واليك نصها من سورة البقرة : « قولوا آمنا بالله ، وما أنزل الينا ، وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى ،

وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فانما هم فى شقاق، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون »

وقال فى موطن آخر من تلك السورة : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ».

وقال فى سورة آل عمران : « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون . قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ».

وقال فى هذه السورة نفسها : « إن الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب . فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فان أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » .

وقد شدد الله فى وجوب الايمان بجميع الرسل ليقيم مبدأ توحيد الأديان على أقوى أساس ، فقال : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا،

وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا »

كل هذه نصوص صريحة فى أن الغاية التى قصد إليها الاسلام باعلانه أنه ليس بدين جديد ، ولكنه هو الدين الذى أنزل على جميع الانبياء ، هى أن ينشر هذا العلم الصحيح الذى يجهله جميع الآخذين بالأديان من البشر . فالدين بمقتضى مذهبه هذا لا يجوز التخالف فيه. وكيف تتخالف وأساسها الفطرة ، وهى واحدة لدى الناس على اختلاف بيئاتهم وأجيالهم ، وإنما جاءهم الخلاف من الأوهام والأهواء التى تناول بها قادتهم العقائد بالشرح والتأويل والتحريف فى خلال العصور لتتأدى إلى تحقيق مطامعهم فى تسخير النفوس واستغلال جهالتها ؟

هذا تجديد خطير الشأن فى نظرية الدين . لمحه الأولون فتسارعوا إلى الدخول فى الاسلام بغير دعوة ، حتى قدر من دخل فيه فى قرن واحد بمائة مليون نسمة ، ومنهم كثير من قادة الأديان وأولى العلم . ولكن هذا التجديد العظيم جهله سواد المسلمين منذ أجيال كثيرة فأهملوا التنويه به ، وغبى عنه الأجانب ، فوقف انتشار الاسلام عند حد ، وفقد أهله الروح التى تحرك أهل التجديد إلى العمل المتواصل فجمدوا حيث هم ، ولكن هذا الأمر الجلل سيتضح عندما ينضج أهله فى العلم. فيستولى على قلوبهم ، ثم يتعداهم إلى غيرهم ، حتى يعم نوره الأرض : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد »

وإذا كان الاسلام قد قرر بأنه هو الدين الفطرى الذى أوحى لكل رسول ، وأنه جاء لتوحيد الأديان كلها بردها إلى أصلها الأصيل ،

وأن مافرق الناس غيربغي قادتهم طمعا فى المال والسلطان، فقد حمل الأمة التى تأخذ به تبعة من أكبر التبعات ، وهى أن تكون للناس علما يهتدون بهديها فى كل طور من أطوارهم ، ومناراً يعشون إلى نورها إذا ضلوا فى متاهات مذاهبهم ، فقال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »

فكل مسلم بحكم هذه التبعة يجب أن يكون علما من أعلام الهدى ، وسفيراً إلى من حوله يلفتهم إلى هذه الحقيقة الثابتة ، بهذه الحجة الناهضة . لهذا كله صار الاسلام دينا عاما ، وسيتضح لك مما يلى من البحوث أن كل أوامره ونواهيه ، ومناهجه ومراميه ، بنيت على هذا الأساس بحيث تصلح لجميع الناس على السواء ، وتماشى تطوراتهم المادية والأدبية فى كل الأجيال .

فهل يطمع الانسان أن يتمذهب بمذهب أوضح من هذا محجة ، وأقوى حجة ، وأبعد مرمى ، وأصدق مغزى ، وأولى بالانسانية فى تطوراتها المتعاقبة ، وأجدى عليها فى انقلاباتها المتوالية ؟

أى دين فى الأرض يقوم على غريزة طبيعية فى النفس ، ثم يعتمد فى بناء صرحه على سلطان العقل ، فيجعل من هذا البناء السامق لا شكلا غير قابل للتحول ، ولكن عملا هندسياً دقيق الصنعة يقبل التحويل فى كل جزء من أجزائه ، ليطابق الواقع ويماشى الحاجات دون أن يصاب أساسه بوهن ؟

ثم ماذا تنتظر من رسول يقول إنه خاتم المرسلين أكثر من أن يقعد لك الدين على أساس طبيعى لا يمكن هدمه ، بل ولا وصول المعاول

اليه ، وأن يجعل العقل دليلك فى كل ما يؤاتيك به من عقائد وعبادات ومعاملات ، وأن يجيئك بنظرية فى التدين تعتبر أقصى ما يدفع النظر العلمى اليه ؟

أليس الذى يأتيك بكل هذه النهايات جديراً بأن يكون خاتم النبيين والكتاب الذى يقدمه لك أهلا لأن يكون خاتمة للوحى الالهى ؟

« وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لمـا آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون »

« قل هذه سبيلى أدعو الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين »

فى الفصول التالية نظر فى بقية مطالب الطبقة الوسطى التى نحن بسبيلها إن شاء الله

الاسلام يعلن سلطان العقل والعلم

قلنا فى المقال السابق إن الأوساط يتطلبون من الدين أن يكون واضح الحجة ، ناهض الحجة ، وبينا لهم محجة الاسـلام وحجته ، والآن نأتى على مطلب ثان لهم وهو أن يكون الدين ماشياً للعقل فى غاياته ومراميه ، ومسايراً للطبيعة فى أوامره ونواهيه . فنقول :

إن الانقلاب الكبير الذى أحدثه الاسـلام فى أمر الدين ، أظهر ما تكون عوامله فى هذا الموطن ، موطن المناداة بسلطان العقل ،

والمجاهرة بسيادة العلم ، فسمع الناس لأول مرة فى تاريخ الأديان كلمات : تفكير ونظر وبرهان وتبعة شخصية وبطلان للتقليد .

كان الناس قد استعدوا بعد طول مقام على الاعتقاد بلا برهان ، والتقليد لغير معصوم ، للدخول فى دور الرشد . والاستقلال الذاتى عن الأوصياء والقامة ، والمتحكمين فى نفسياتهم وعقلياتهم ، فأرسل الله محمداً بالاسلام لافتتاح هذا العهد الكريم ، والنداء بالدين العام الخالد ، الذى أريناك فى الفصل السابق أى شىء هو ، فكان أول شىء وجه اليه عنايته تحطيم القواعد التى يقوم عليها التدين فى دور القصر وهى التقليد الأعمى ، واهمال النظر الشخصى ، واغفال التفكير الحر ، ومنابذة العلم إلا ما كان منه موافقاً للدين فى نظرهم ومؤيداً لسلطان المتحكمين فى إرادات الناس وعقولهم ، فأهاب الاسلام بالناس إلى اعتبار العقل ، وسيادة العلم ، ودعا إلى النظر والتفكير ، وتطلب البرهان ، واشتد فى هذه الدعوة إلى حد أنه لو عد ما جاء فى القرآن من قوله تعالى : (أفلا تعقلون) (لعلهم يتفكرون) (أفلا تذكرون) الخ الخ لتعدت العشرات . ولو أضيفت اليها الآيات التى تطالب الناس بتنبيه قواهم العقلية ، ورفض مالا يعززه برهان ، وترك كل مالا يؤيده علم ، ونبذ التقليد للآباء الخ لبلغت المئات ، فان القرآن كله قائم على هذه الأصول ومروج لها ، حتى ليتجلى لتاليه أنه إزاء انقلاب فكرى خطير الشأن لا شبيه له فى تاريخ القرون الماضية ، بقصد احداث ثورة على كل قديم إلا ما وافق العقل والعلم منه .

وكيف كان يتأتى للاسلام أن يسلك غير هذه السبيل فى حين

الأديان المعقودة على أنفس التقليد الأعمى ، والقائمة على قواعد الإتباع المجرد من النظر ، الا بهدم هذه الاسس والقواعد البالية ، ونسفها نسفاً، حتى يشكك هذه الاشباح الانسانية فيما تدين به ولا تفكر فيه ، وفيما تتعبد له ولا تستأنس له بحجة ؟

نعم لاسبيل للاسلام الى النفوذ لقلوب الامم غير محق الخلق الفولاذية التى وضعها عليها قادة الاديان ، ليحجبوا عنها أنوار العقل ، ولكى لاتنبض إلا بارادتهم ، ولا تتحرك إلا تحت إملائهم .

أمسك هؤلاء بمخنق الانسانية فاستسلمت لهم طائعة أجيالا ؛ لأن العقل لم يكن قد نضج للاستقلال بنفسه ، فكان من مصلحة هذه الاكداس البشرية أن تقاد بمثل هذه الشكائم الحديدية . فلما بلغ الانسان سن الرشد ، نسخت هذه السنة وتولد عهد جديد اقتضت الحكمة الالهية أن تجعل على رأسه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقام به خير قيام ، وأقعده على أرسخ الوطائد ، ثم تركه لرجال جروا على سنته فانتشر الاسلام فى نحو قرن من الزمان بلادعوة ولا أكراه مالم ينتشره دين غيره الا فى قرون ، وبالحديد والنار . فقد كان غزاة أوربا يفتتحون البلاد ومعهم دعاة الدين ينشرون دعوتهم فى تلك الظروف الرهيبة ، ولهذه الدعوة تاريخ أى تاريخ ، لانذكر منه حرفا إلا اذا هاجنا هائج اليه.

فاجأ الاسلام النـاس بأصل لم يكونوا يحلمون به ، ولا يتوقعون أن يسمعوه فى عهـد من عهودهم ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « الدين هو العقل ، ولا دين لمن لاعقل له » . وكانت سنة قادة الاديان قبل ذلك فى مشارق الارض ومغاربها كما قالت دائرة معارف القرن

التاسع عشر «اطفىء مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى»

ثم عزز الاسلام هذا الأصل بأصل ثان ليس بأقل من الاول دعوة الى الثورة فى الدين ، وهو النعى على التقاليد والموروثات ، وعلى المقلدين للآباء والأجداد ، بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ، فقال تعالى: «واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله» قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم (لايعقلون شيئاً) ولايهتدون؟» وقال: «واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لوكان آباؤهم (لا يعلمون شيئاً) ولايهتدون؟»

وليس بخاف أن الجرى على سنة السلف من أخص صفات المتدينين ، وأكثر مادب الفساد الى الاديان كان من هذه الناحية ، حيث تتقوى العقيدة الدينية بالعاطفة القومية ، فترسخ فى النفوس رسوخ غرائزها الطبيعية . وهذه علة إبقاء الامم ، حتى الراقية منها ، على عقائد لاتحتمل النظر المجرد فضلا عن النقد ، ولذلك تشدد الاسلام فى هدمها إلى حد أن هذا التشدد اتخذه أعداؤه عونا لهم فى إبطال دعوته ، وإثارة النفوس لكراهته ، ولكنه لم يبال بذلك لان نشر الدين العام الخالد ، والناس فى مفتتح عهد الاخوة العالمية ، لا يتأتى إلا بالتعفية على هذه الآثار الموروثة ، التى تصد الامم عن الوحدة المرجوة .

وهذا الجهد لا يثمر ثمرته المنتظرة إلا بايقاظ العقل ، وتنبيه غريزة التفكير والنظر الحر ، والنعى على الآخذين بالظنون والاوهام ، فأكثر الاسلام فى هذه المواطن من الدعوة الى كل ذلك فى ألوان شتى لتبلغ مواطن الاقتناع من الصدور ، وتدفع بالانسان الى تلمس

المخرج ، فقال تعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب» «ومايستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور» ، « ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » ، « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون الا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » ، « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » .

« إن يتبعون الا الظن وما تهوى الا نفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » « إن يتبعون الا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم »

ثم شفع هذه الآيات الناعية على المعتقدين تقليداً ، بالتنويه بالتبعة الذاتية ، وبأن أحداً لا يغنى عن أحد شيئاً ولو كان نبيا مرسلا ، أوملكا مقربا ، فقال : « كل امرىء بما كسب رهين » وقال : « ليس للانسان إلا ماسعي، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » وقال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وقال : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به » وقال : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » وقال : « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا » وقال : « اذ تبرأ الذين تبعوا (بالبناء للمجهول) من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا (بالبناء للفاعل) لو أن لنا كرة

فتبرأ منهم كما تبرءوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار »

هذه الآيات ومئات من أمثالها تساور السامع من كل مظان الاقناع ، فلا تزال به تكافح التحجر التقليدى فيه حتى تنكشف عن الفطرة الانسانية ، فتهب تتطلب الفهم وتتحرى الدليل، ولا تسكن الى الاتباع دون أن تعرف فى أى طريق يجرى بها ، والى أية غاية يؤديها

وقد رفع الله من شأن العلم حتى جعله النور الذى لامحيص لكل حى عن تطلبه ، وأشاد بذكر العلماء الى حد أن اعتد بشهادتهم فى حقه ، فقال تعـــالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » قدرها ابن عباس بسبعمائة درجة . وقال : « شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط »

ومن أشد مايدفع بالنفوس لطلب العلم ، ومن أعجب ما أثر من الاشادة بفضله ، قصر الصفات العليا التى يتهالك الناس على الحصول عليها ، على أهل العلم دون سواهم ، لانه لايبلغها غيرهم ، فقال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وقال : « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » وقال : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام فيهما .

أما ماورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب فلا يكاد يحصيه متتبع ، منه قوله : « مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة » وقوله : « فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد » والفقه

معناه الفهم والعلم ، وقوله : « اطلبوا العلم ولو بالصين » .

والمراد بالعلم ما يرفع الجهل وينمى العقل ، وينبه ملكات النفس ويكشف الحقائق الوجودية . ودليلنا على ذلك لفت القرآن الناس إلى تنور أسرار الكون وهو مستقر كل علم ومستودع كل سر كقوله تعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ، وقوله : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » وقوله : « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا » والتفكير فى خلقهما يؤدى حتما إلى العلم بهما ، وهو مراد القرآن . ودليلنا العملى على ذلك أن العرب بعد وفاة النبى بست سنين (كما يقول العلامة دريبر) ، شرعوا يطلبون العلم ، فلم يدعوا فرعا من فروعه إلا حذقوه ، وصاروا أئمته . فلو كان الاسلام يريد بالعلم العلوم الدينية لوقفوا عند حدودها كما فعل المسلمون فى العصور المتأخرة .

ومن أغرب ما يرويه الراوون فى تاريخ الاسلام ، أنه لابتنائه على العقل والنظر والعلم والبرهان ، قرر الأصوليون أن الايمان التقليدى فى عقائده غير مقبول ، فلا بد لكل معتقد من أن يكون لديه الدليل على كل ما يأخذ به بقدر درجته من العلم .

فهذا الأصل فى الاسلام يوجب الدهش والحيرة ، إذ لا يوجد ما يشبهه فى الأديان ولا ما يقرب منه . ولكن لو علم الباحث فيه أنه دين عام خالد لزال دهشه ، فان الأمم وقد ضربت فى العلوم بأوفر السهوم ، وستنال منها مالا يخطر ببال ، لاتقبل عقيدة إلا على هذا الأسلوب .

على هذا النحو فتح الاسلام الأعين للنظر ، والعقول للفهم ،

والقلوب للشعور ، فنهض قبضة من رجال أسعدهم الحظ بمعاصرة خاتم المرسلين بنشر هذه النفحة الالهية فى الأرض ، فتألبت عليهم الأمم حتى الأمة التى هم من صميمها ، فارتدت جزيرة العرب كلها عن الاسلام بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتصايحت إلى السلاح ، فأمكن الله هذه الفئة القليلة من هذه الجماعات الغفيرة ، ثم اندفعت إلى خارج بلادها تنشر هذا النور فى بقاع خيم عليها الظلام قروناً ، محاولة أن تخرجها منه إلى النور ، قال العلامة (سديو) المؤرخ الكبير ومن وزراء فرنسا السابقين فى كتابه تاريخ العرب : « لقد كان المسلمون متفردين بالعلم فى تلك القرون المظلمة فنشروه حيث وطئت أقدامهم ، وكانوا هم السبب فى خروج أوروبا من الظلمات إلى النور » .

فما يطلبه الأوساط من الدين فى هذا الموطن موجود فى الاسلام على أوسع ما يرجون ، وقد بنى الصرح الاسلامى الباذخ كله على هذا الأصل الكريم ، كما سنبينه فى مطالبهم الأخرى فى فصول متوالية هنا إن شاء الله

الاسلام لا يضع للرقى حدا ، ولا يوصد
عن العقول مجالا

المطلب الثالث للاوساط من الدين أن لا يضع للرقى حداً ، وأن لا يوصد على العقول مجالا .

أما الاسلام من هذه الناحية فلا أقول إنه يوفى بهذا المطلب فحسب ، بل أقول إنه يفرض الترقى على الآخذين به فرضاً ، ويدفع بهم إلى كل باحات العقول دفعاً . وإلا فكيف نفسر انتقال العرب بعد سلامهم من عداد الأمم الجاهلة المسودة ، إلى مصاف الأمم العالمة

السائدة ، استغفر الله بل إلى صف فوق الصفوف صارت فيه وحدها حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الأمم . وقد اعترف الكافة لها بالزعامة فى ذلك قرونا طويلة ، كانوا فيها يؤمون عواصمها يأخذون عنها العلم والحكمة وأسرار الصنائع والفنون . ولا يزال المؤرخون من جميع النحل يرددون هذه الحقيقة . أليس هذا لأن الاسلام يفرض الرقى فرضاً ، ولا يكتفى بأن يسمح به سماحاً ؟

إن قول الله تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وقوله : « وقل رب زدنى علماً » وقوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون» وقول النبي صلى الله عليه وسلم : «اطلبوا العلم ولو بالصين» وقوله : « خذا لحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت» أى ولو خرجت من فم آثم أو كافر ، فان الحكمة تلتقط حيث كانت ولا يؤثر على قدسها شيء . كل هذه الآيات والأحاديث فرضت على المسلمين العلم . ودفعت بهم إلى مباحثه دفعاً ، والعلم يؤدى إلى الترقى لامحالة ، بل هو طريقه الوحيد فى كل أدوار البشر .

أى علم ؟ العلم على اطلاقه بكل ما يحتمله لفظه ومعناه ، وكل ما يؤدى اليه فى الحياة . فان الدين الذى يفرض على ذويه النظر فى السموات والأرض ، والذى يقول إنه يضرب للناس الأمثال ومايعقلها إلا العالمون (بكسر اللام) ، والذى يرفع من شأن أهل العلم بحيث يستشهد بهم فى حقه ، والذى يقول رسوله : « فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد » ويقول : « فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » ، قلنا إن الدين الذى يفعل هذا يدفع بأهله قهراً إلى طلب

العلم ، وطلبه يهجم بهم على أطوار من الترقى لا تطوف بخيالهم قبل الدخول فيها ، وإلا فمن ذا الذى كان يتوهم أن العربى الذى كان يتخيل أن القمر له غلاف اسمه الساجور يدخل فيه كل شهر مرة ثم يخرج منه يسيراً يسيرا ، ليعلل بذلك أطواره المختلفة من هلال إلى بدر ، يصبح بعد مائة وخمسين سنة يعرف من أحوال هذا الكوكب مايعرفه أكبر الفلكيين إذ ذاك ، بل هو نفسه كان أكبر الفلكيين اذ ذاك ؟.

ومن ذا الذى كان يتخيل أن ذلك العربى الجاهل يصبح بعد تلك المدة القصيرة وبيده قبس من العلم يعشو إلى نوره العالم من جميع أرجاء الأرض ، يأخذون عنه ما جعله الله أمينا عليه دون خلقه ، فكان الحافظ لميراث الانسانية العقلى من ناحية ، والواسطة فى إحيائه ، وتسهيل سبيل الانتفاع به من ناحية أخرى ؟

من ذا الذى كان يستطيع أن يتخيل هذا لولا أن الاسلام قد أوجب على متبعيه الانقياد لناموس الترقى ايجابا ، لا أنه قد أباحه لهم تخييراً ؟

هل وضع الاسلام لهذا الترقى حداً ، وهل للترقى فى نظر الاسلام حد يقف عنده ؟

إن الدين الذى يقول لمتبعيه : « ويخلق ما لاتعلمون » يفتح أمامهم باحة اللانهاية ، فلا يدع فى أنفسهم حاجة إلى السؤال عن الحدود والغايات ، لذلك رأيت المسلمين الاولين بعد وفاة نبيهم بست سنين ، اندفعوا وراء العلم اندفاعهم وراء الحياة . ولا عجب فان الدين الذى يقصر الصفات العليا للنفس ، والغرائز الكامنة فيها ، على أهل العلم وحدهم فيقول : « وتلك الأمثال نضربها للنـــاس وما يعقلها

إلا العالمون » يرون فى العلم الحياة كل الحياة.

هل وضع الاسلام لشهوات العقول حداً ، هل أوصد فى وجهها مجالا؟

اللهم لا ، بل أباح لها أن تجول فى كل مجال ، وأن تجوس خلال كل مجهول تظن ن وراءه فائدة مادية أو معنوية ، وقد ندب الاسلام المسلمين الى تعلم اللغات الاجنبية ، فنبغ رجاله فى اليونانية والفارسية والسريانية والهندية ، وحضهم على تعلم كل علم حتى العلوم المعروفة بأنها باطنية أو ظلمانية ، إن لم يكن للانتفاع بها فلاتقاء الضرر الذى يجىء من قبلها ، كالعلوم الطلسمية (بكسر الطاء وتشديد اللام مفتوحة) والسيمياء واسرار الحروف والتنجيم الخ الخ .

ومن من الناس يخطر بباله أن الاسلام يسمح بتعلم السحر ، وهو من أخص العلوم الظلمانية ، وقد أعدم مئات الالوف من المتهمين به فى الامم ، وألقوا فى النار أحياء ، ولا تزال بعض القوانين الاوروبية تعاقب من يشتغل به ولو من ناحية التجارب العلمية ، وادراك العوامل النفسانية الخفية .

لم يحرم الاسلام من هذا كله الا العمل به ، حتى قال المسلمون فى أمثالهم « تعلم السحر ولا تعمل به »

هذا تسامح عظيم ، بل مراعاة حقة للطبيعة البشرية ، فان الانسان مدفوع بطبعه لان يرود كل مجهول ، ويتحسس من كل محجوب ، ويرمى بنفسه الى كل مرمى ولو كان وراءه حتفه . فالدين الفطرى الماشى لطبائع النفوس لا يسمح أن توصد على العقول باحة ، ولا أن يجد لمرماها حداً . ولو فعل ذلك لكسر الناس كل قفل وضعه ، وتعدوا

كل حد رسمه ، وأصبح دينا خياليا يعرف ولا يعمل به . والاسلام لا يريد الا أن يكون دين العالمين من ناحية عملية لا خيالية .

ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين لم يكتفوا بالشغل بجميع هذه العلوم الباطنية والظلمانية ، ولكنهم ألفوا فيها كتباً لا تزال موجودة الي الآن ، منها المطبوع ومنها المخطوط ، وكثير منها محفوظ بدار الكتب الملكية ، وفى مكتبات الأفراد فى كل البلاد الاسـلامية .

ومن أغرب ما نرويه أن العرب اشتغلوا كثيرا بكيمياء الذهب ، ووصلوا منها إلى نتائج عملية ، إذ ذكر بعضهم أنه قد أنجح فيما تصدى له ، وليس لنا أن نكذبهم كما كنا نفعل قبل سنين معدودة ، اذ أعلن فى أوروبا وأمريكا بأن الكيمياء الرسمية قد توصلت إلى عمل الذهب. ومن الغريب أن العرب جعلوا الزئبق أساسالمحاولاتهم منهذهالناحية . وقد ثبت أخيرا أنالزئبق هذا هو الذهب مخلوطا بأوكسيدالكبريت ، وأنه متى سحب هذا الأوكسيد منه بقى الذهب خالصاًمن كل شائبة .

وثبت أيضا، كما رواه الأستاذ درابر الامريكى وغيره ، أن العرب بحثوا فى مذهب التطور ، ودرسوه فى بعض جامعاتهم بأوسع مما يفعل الأوربيون اليوم،إذ سروا عوامل التطور نفسها على المعدنيات.

ولا يبعد أن يثبت أيضاً أنهم قد اكتشفوا أمريكا قبل كريستوف كولومب بقرون كثيرة ، وجمهرة من رجال العلم فى أوربا يرون أن أسراراً علمية مما كان يعرفه المسلمون لا تزال محجوبة عنهم ، فلذلك نجدهم يدأبون على استخراجها للانتفاع بها إن أمكن .

نكتفى هنا بهذا ونرجىء الى الفصل التالى بعض ما يلى هذا

من مطالب الاوساط من الدين وبالله التوفيق.

الاسلام لايحرم شيئا مما تشعر النفس بضرورته من المباحات ، ولا يضيق ما اتسع من المحاولات

المطلب الرابع من مطالب الأوساط من الدين أن لا يحرم شيئاً مما تشعر النفس بضرورته من المباحات ، وأن لا يضيق ما اتسع من المحاولات ؛ فلنحاول اليوم بيان مذهب الاسلام فى هذا الباب فنقول:

الاسلام بموجب أصوله ، وتركيب بنائه ، دين علم وحضارة وما يؤديان اليه من فتح واستعمار وتنافس وتنازع وغلب (بفتحتين)، فمثل هذا الدين ينافى بطبيعته الاستكانة والتماوت الذين يريان على جماعات المتدينين فى الأرض . فلقد كان الرجل فى فجر الاسلام يأتى فيبايع النبى صلى الله عليه وسلم على الدين ، ثم يبادر فيأخذ مكانه من الصفوف ، إما مجاهداً لنشر الدعوة ؛ أو مدافعاً يذود الأعداء عن حرم الاسلام . لهذا رأينا عمر بن الخطاب ، ومن هو عمر ؟ يضرب بدرته شاباً رآه بحضرته متخاشعاً منكسا رأسه ، قائلا له : « ارفع رأسك فان التقوى فى الصدر » .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره ، وسمو منصبه ، يسرع فى مشيته كأنه يتحدر من صبب . قال أبو هريرة : « مارأيت شيئا أحسن من رسول الله كأن الشمس تجرى فى وجهه ، ولا رأيت أحداً أسرع فى مشيته منه ، كأنما الأرض تطوى له ، وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث » .

وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم فى نص صريح عن الغلو فى الدين

فقال : « لا تغلوا فى دينكم فانما هلك من كان قبلكم بغلوهم فى دينهم ». وقال : « الاسلام متين فأوغل فيه برفق ، ولن يشاد الدين أحد الا غلبه ».

لا عجب فى هذا كله ، فمحمد كان مؤسس دولة عهد اليها الحق أن تحدث حدثاً لا مثيل له فى تاريخ البشر ، تسقط به دولا وتقيم أخرى ، وتنشر فى الأرض أصول الثورة على التقاليد والموروثات ، وتبنى سلطان العقل على أرسخ القواعد ، وتبرر الانقلابات الاجتماعية فتجعلها سببا من أسباب الارتقاء .

لذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم يكره أن يرى أصحابه منهمكين على العبادة ، غير مراعين حقوق أجسادهم ، لأن الحدث الجلل الذى أرسل لتحقيقه فى العالم يتطلب أجساداً قوية ، وارادات حديدية ، وكان يحثهم على المحاولات الرياضية كركوب الخيل والسباحة والرماية والمصارعة بالسيوف .

وقد جاء فى الحديث أنه لحق به فى تهجده رجال كانوا يصلون خلفه ، ثم رآهم يكثرون ليلة بعد أخرى ، فمنعهم خشية أن يفرض التهجد عليهم فيضعفهم .

وفيه أنه قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : « ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال نعم يارسول الله وإنى على ذلك لقادر . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لا ، بل قم ونم وصم وافطر فان لبدنك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك (اى لزائريك) عليك حقاً الخ » . وقال : « من صام الدهر فلا صام ولا افطر » دعاء عليه .

وفى سيرة النبى والسلف الصالح من هذا الضرب كثير. ولا أظن مؤسس دين أو قائما عليه فى الأرض ينهى أحداً عن الغلو فى هذه المواطن، بل كثيراً ما شجعوا عليه.

ومن أغرب ما فى هذا الباب أن فى الدين عزائم، أى أمورا لا تقبل الهوادة فى الأحوال العادية، ولكنها تقبلها فى السفر والمرض والأعذار المشروعة وتسمى رخصا، ولكن بعض الناس كانوا يتجاوزون عن هذه الرخص غلواً فى محافظتهم على أوامر الدين، واعتماداً على قوة بناهم (جمع بنية)، فنهاهم النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه» وقال: «من لم يأخذ برخصنا فليس منا».

فهذا غريب من مؤسس دين، ولكن لو تذكرت أنه مؤسس الدين العام الخالد، الذى سيكون دين البشرية كلها إلى قيام الساعة، وأن هذا الدين يجب أن يكون عمليا لا خياليا، أدركت سر هذا الأمر.

إن أكثر الناس، وبخاصة فى هذا العصر المادى، يشعرون بانقباض فى الصدر إذا ذكر الدين أو ذكر أهله، لأنهم اعتادوا أن يسمعوا عنه زهداً فى الحياة، ونبواً عن مباهجها، وانصرافا إلى ما بعد الموت لا يدع للنفس متسعا لمتعة مادية، وأنهم اعتادوا أن يسمعوا عن رجاله الانقطاع عن الدنيا، والاقبال على العبادة، وتحريم كل ما يلهى النفس، أو يروح عن القلب. والواقع أن ما بلغهم أورأوه ليس بصورة صحيحة للاسلام ولا لأهله الذين عرفوه حق معرفته واتبعوا أسلوبه فى الحياة.

فمن شاء أن يعرف المثل الاعلى للانسان المسلم فعليه أن يدرس

ما كان عليه رسول الاسلام من أمور الحياة تاركا كل من عداه ، فليس أحد بأجدر منه بمعرفة مراد الله من الدين ، وما يجب أن يكون عليه الانسان بين أهله ومواطنيه ، فقد روى الامام الترمذى فى كتاب الشمائل* فى إسناد عن الحسن بن على قال : قال الحسين سألت أبى عن سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى جلسائه فقال : « كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مشاح . يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه راجيه ولا يخيب رجاءه فيه . قد ترك نفسه من ثلاث : المراء والاكثار ومالا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث . كان لا يذم أحداً ولا يعيبه ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه . وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رءوسهم الطير ، فاذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم ، ويضحك مما يضحكون منه ، ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته ، حتى أنه كان أصحابه ليستجلبونه (وقصدهم من استجلابهم أن يكثروا سؤاله فيستفيدون هم من أجوبته) . ويقول اذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه ولا يطلب الثناء إلا من مكافىء ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهى أو قيام » انتهى .

هذا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى المباحات كلها ولا يتحرج إلا من المحرمات ، والمحرمات فى الاسلام محرمات فى العقل والطبع والوضع ، فكان يلبس ما يلبسه الناس مسلمهم وكافرهم ، حتى

انه لبس الجبة الرومية ذات الأكمام الضيقة ، والقلنسوة الفارسية المجوسية . وكان يرجل شعره بالمشط ويدهن بالطيب ، وكان يتكلم فى كل موضوع مع أصحابه . قال زيد بن ثابت من حديث : « فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنـــا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا . واذا ذكرنا الطعام ذكره معنا » . وعن جابر بن سمرة قال : جالسته النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة ، وكان الصحابة يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم معهم »

وكان هو نفسه ينشد الشعر ويصغى إلى من ينشده ، ويستحسن الحسن منه ويجيز من يمدحه به ، وقد أشاد بذكره فقال : « إن من الشعر لحكمة » ودعا لشاعر فقال : « لا فض الله فاك »

وكان يمزح ويداعب أصحابه ، فقد روى أنس بن مالك أن رجلا طلب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحمله. فقال له إنى حاملك على ولد ناقة . فقال يارسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ ظنا منه أنه سيعطيه فصيلا . فقال له: وهل تلد الابل الا النوق ؟

وروى أنس هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم صادف رجلا اسمه زاهر وهو يبيع متاعا له ، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره . فقال زاهر: من هذا ؟ أرسلنى . ثم التفت فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل النبي يقول : من يشترى هذا العبد ؟ مداعبة له .

وحدث المبارك بن فضالة عن الحسن قال : « أتت عجوز النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ادع الله أن يدخلنى الجنة . فقال النبي يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز . فولت المرأة تبكى .

فقال النبي أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله يقول : « إنا أنشأناهن نشاء فجعلناهن أبكاراً عربا أترابا » .

ودخلت عليه امرأة في شأن لزوجها ، فقال لها النبي: أزوجك الذي في عينيه بياض ؟ فظنت المرأة انه يريد بالبياض ما يصيب سواد العين فقالت لا يارسول الله . فتبسم وقال لها : تخلو عين انسان من بياض ؟

حدث سعيد المقبري عن أبي هريرة أن بعض أصحاب النبي قالوا له يوما: يا رسول الله انك تداعبنا . فقال نعم غير أني لا أقول الا حقا.

فاذا كان رسول الله وهو الذي كان يجوع حتى يشد على بطنه حجراً وحجرين زهداً في متاع الدنيا ، ويقوم الليل متهجدا حتى ذكر الله له ذلك في الكتاب ، وله من مشاغل منصبه ما تنوء به الجماعة أولو الحول والقوة ، يصيب من هذه المباحات ما يروح به نفوس أصحابه ، ويستجم به من نشاطهم وقواهم المعنوية ، فهل يسوغ لأحد أن يمثل الدين عابس الوجه قطوبا ، اذا سلك طريقا سلك الناس غيره مجافاة له وهربا من تكاليفه؟

على أن في الكتاب آيات لم يجيء لها ضريب في أديان البشر ، وهي قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وقال : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » وقال : « فكلوه هنيئا مريئا » .

فالدين الذي يصرح بأنه لم يحرم التزين ولا المتاع بأكل الطيب ، ويتخذ رسوله خاتما من فضة ،وغاشية لسيفه فيها ذهب، كما رواه الامام الترمذي في شمائله ، ويندب الى الرياضة البدنية حتى المصارعة . وقد

وقد صارع هو نفسه ركانة أقوى الناس عليها قبل الاسلام فصرعه ، ولا يخفى ما للرياضة البدنية اليوم من المنزلة عند أرقى الأمم ، فلنا الدين الذى يصرح هذا التصريح ، ويبيح هذه المباحات ، ويكون رسوله من حسن الطريقة فى الحياة على ما علمت ، لا يصح أن يمثل للناس على غير صورته الصحيحة ، فيهرب الناس من وجهه ، ويفرون من أهله ، ولا يذكرونه الا فى معرض التكاليف الشاقة ، أو أحوال الموت وما بعده .

هذا هو الاسلام من ناحية المباحات ، أما من ناحية الشق الثانى وهو أنه لا يضيق ما اتسع من المحاولات ، فكيف يعقل أنه يعمد الى تضييقها وهو الذى أعطى العقل سلطانه المطلق يجول فى كل مجال ، ودفع بالناس فى الحياة غير مقيدين الا بما تشعر الفطرة السليمة بوجوب التقيد به ؟

إن الدين الذى يقول لأهله : « من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » الحديث ، والذى لا يقصر العبادة على الأعمال الشكلية التى عرفت عنها ، فيعتبر كل ما يقصد به الخير عبادة ، فطلب العلم عبادة ، وطلب القوت عبادة ، وتألف الناس عبادة ، وعيادة المريض عبادة الخ حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن ليؤجر فى كل شىء حتى فى اللقمة يرفعها الى فى امرأته » فالدين الذى يكون على هذه الشاكلة لا يعقل أن يضيق على أحد ما اتسع من المحاولات ، وقد رأيت فى تاريخ أهله أنهم بنوا لدينهم وأمتهم مجدا من هذه الناحية لا تطمس آثاره ، ولا تعفو معالمه ، ولكنها ستزداد

وضوحا وجلاء كلما ازداد الناس علما وارتقوا فى معرفة الحق .
ننظر فى الفصل التالى فى مطلب آخر من مطالب الأوساط ان شاء الله

الاسلام مرن يسع كل ما يجد من الآراء العلمية والمذاهب الفلسفية

من مطالب الأوساط من الدين أن يكون مرنا يسع ما يجد من الآراء العلمية ، ولا يستعصى على ما يثبت أو يرجح من المذاهب الفلسفية ، ولا ما يقوم الدليل عليه من الشئون الكونية . فننظر الآن فى هذا المطلب فنقول :

قليل على الاسلام أن يوصف بالمرونة وسعة الصـــدر للآراء والمذاهب والكونيات ، لأنه دين اطلاق وتعقل وتفكير ومطالبة بالفهم وبالدليل ، وإشعار بالتبعة الشخصية ، ونهى عن التقليد ، وقد كان الناس إلى عهده أسرى الأوهام والأضاليل ، وصرعى الموروثات والتقاليد ، ليس فى الدين فحسب ولكن فى العلم أيضا .

نعم فى العلم الذى يفخر اليوم بانه أطلق العقل من إساره ، وخلصه من أغلاله ، وأقعد المعلومات على أساس الواقع المحسوس . العلم صادق فيما يدعى ، ولكن منذ القرن السابع عشر فقط على يد العلامة الانجليزى (باكون) .

أما الاسلام الذى سبق (با كون) بنحو ألف سنة فانه بمثل هذه الآيات : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « وقل رب زدنى علما »

« ويخلق ما لا تعلمون » « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » أى آياته وحكمه . وبمثل هذه الآيات فى النعى على الخياليين والمقلدين : « إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » « قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ، وبمثل هذه الآيات فى وجوب التثبت والتدقيق : « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » فلنا بمثل هذه الآيات أقام الاسلام العلم على أساسه الطبيعي الثابت ، ودفع بأهله إلى غاياته البعيدة . فالدين الآتى بهذه التعاليم قليل عليه أن يوصف بالمرونة ، لأنه جاء بما هو فوق المرونة وهو فرضه العلم فرضا ، فقال : « طلب العلم فريضة » ، والدعوة إلى تطلبه ولو من أقصى المعمور فقال : « اطلبوا العلم ولو بالصين »

فهل ما نقوله هنا غلو قضى علينا به التحمس للدين ، والتذرع لمكافحة المشككين ، أم هو الواقع المحسوس الذى لا معدل عنه مهما حاول ذلك المحاولون ؟

إننا ندع للقارىء حرية الميل لأى الاحتمالين شاء بعد أن يصغى إلى ما نقول :

جاء الاسلام إلى العرب فى عهد كانت فيه حياتهم الاجتماعية قد استوت على قرار متدهور ، فأهل البداوة منهم كانوا هملا ، ومن الفوضى

بحيث كانوا يتناحرون. وكان من جاور الفرس والروم منهم قد وقعوا تحت نير هاتين الدولتين منذ قرون، واستخذوا لهذه العبودية وألفوها، ولم يحركوا ساكناً لرفع نيرها عنهم.

زد على هذا أن الأمة العربية كانت تكاد تكون وحيدة فى عقمها من الناحية الكتابية، فلم تترك لنا كتاباً واحداً حتى ولا ماتحرص عليه كل أمة من مخطوطات دينية ونقوش طلسمية.

جاء الاسلام إلى هذه الأمة وهى فى هذا الدور من الجاهلية الجهلاء، فصاح بها صيحات تحمل فى تياراتها نفحات من روح الحق، فهبت من سباتها العميق تتطلب الحياة، وقامت على طريق التطور الاجتماعى، فما مضت عليها مائتا سنة حتى أصبحت صاحبة الخلافة العلمية والسياسية فى الأرض، وكانت سبباً مباشرا فى حفظ تراث الانسانية من ثمرات العقول ونتاج الفهوم.

فهذه الحركة العلمية القوية فيها ما نشأت الا بباعث لا يعاصى من الاسلام، وما اتجهت وجهتها إلا تحت إملائه، وما توسعت وألمت بجميع فروع المعارف الا بسائق منه. وقد شهد بذلك جميع مؤرخى العالم قديما وحديثا.

وإنى اليوم لمؤت القارئين بالشواهد التاريخية على أن المسلمين الأولين لم يحرموا على أنفسهم مذهباً من المذاهب، ولم يهملوا رأياً من الآراء، ولم يهجروا أسلوباً من الأساليب بحجة دينية، ولكنهم ألقوا بأنفسهم أحراراً فى عباب العلوم والفلسفات غير مقيدين ولا متأثمين فبنوا لنا من ثمرات جهودهم صرحا من المجد لا تعفى على آثاره الدهور.

قال العلامة « دريبر » المدرس بجامعة نيويورك فى كتابه « المنازعة بين العلم والدين » :

« لقد كان تفوق العرب فى العلوم ناشئاً من الأسلوب الذى توخوه فى مباحثهم ، وهو أسلوب اقتبسوه من فلاسفة اليونانيين الأوربيين . فانهم تحققوا أن الأسلوب العقلى لا يؤدى إلى التقدم ، وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الأسلوب التجريبى والدستور العملى » إلى أن قال :

« وهذا الأسلوب هو الذى أوجب لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات . وهو أيضا الذى أداهم لاكتشاف علم الجبر ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية الخ

« ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منظمة لأجل أن يتوصلوا إلى تكوين المكتبات التى تكلمت عنها ، وقد قيل إن المأمون نقل إلى بغداد مائة حمل بعير من الكتب ، وقد كان أحد شروط الصلح بينه وبين ميشيل الثالث أن يعطيه إحدى مكتبات القسطنطينية التى كان فيها من الذخائر الثمينة الاخرى كتاب بطليموس على الرياضيات السماوية ، فامر المأمون بترجمته إلى العربية وأسماه المجسطى »

ثم قال عن همة المسلمين الأولين فى ترجمة الكتب العلمية :

« لقد كان يوجد فى كل مكتبة كبيرة محل خاص للنسخ والترجمة ، وقد كان لبعض الخاصة مثل ذلك . فان هونيان الطبيب النسطورى كان له محل من هذا القبيل ببغداد سنة (٨٠٥) م . ترجم فيه كتبا

لارسطو وافلاطون وهيبوكرات وجالينوس الخ

الى أن قال :

« وكانت قيادة المدارك مودعة لذوى المدارك الواسعة ، فكانت إما بيد النسطوريين أو اليهود ، لأن المسلمين لم يكونوا يتحرون عن جنس العالم وديانته ، وما كانوا يزنون قدره إلا بأعماله »الى أن قال :

« وإننا لندهش حينما نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ، ما كنا نظنه من ثمرات العلم فى هذا العصر . من ذلك إن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهباً حديثا كان يدرس فى مدارسهم ، وقد كانوا جروا به الى مكان أبعد مما وصلنا اليه ، وذلك بتطبيقه على المعدنيات أيضا » انتهى .

نقول : إن من يتأمل فيما ذكرناه يرى أن المسلمين الأولين قدألقوا بأنفسهم فى باحات العلم مطلقين غير مقيدين ، فلم تكن هنالك سلطة دينية تحاكم العلماء على الفتيل والقطمير ، وتحاول أن تجعل العقل والعلم تحت وصايتها فتقف حجر عثرة فى سبيله .

وأنت ترى أنهم أخذوا عن اليونان فيماأخذوه كل ماأثمرته قرائحهم غير متحرجين من شيء ، وفى الذى أخذوه أشياء ورد فى ظاهر ألفاظ الكتاب الكريم ما يخالفها كمسألة كروية الأرض، فان فيه آيات نصت على انبساطها . وجرهم العلم نفسه الى القول بالنشوء والارتقاء ، وفى الكتاب نصوص صريحة تقول بالخلق المستقل ، فهل كانوا فى هذا مستهينين بالدين ، وفى مقدمتهم الخلفاء ومن دونهم من العلماء العاملين ؟

لا لا ، ولكنهم كانوا فى حركتهم هذه جارين على مذهب الدين

نفسه ، فان الاسلام ، وقد أطلق العقل من عقاله وأعطاه كامل سلطانه ؛ كان يعلم أنه سيهجم بأهله على مذاهب وآراء تخالف ظاهر ألفاظ الكتاب ، فاحتاط العارفون بأسرار هذا الدين لهذا الأمر ، فوضعوا له قاعدة كلية فى كتبهم الأصولية وهى : أنه اذا خالف حكم العقل ظاهر نص الكتاب أو السنة ، وجب التعويل على حكم العقل وتأويل ظاهر النص . لذلك لم يصطدم الدين بالعلم ، ولا بالمذاهب الفلسفية فى العهد لذهبى للمسلمين ، فكان فى هذه القاعدة مخرج للعلماء فى الأخذ بالآراء أياكانت ، وفى الجرى بالعلم والفلسفة إلى أقصى حدودهما غير متحرجين ولا متأثمين .

هذه القاعدة الأصولية من أعظم ما أوجده الاسلام من القواعد المؤسسة لحرية العلم ، والموطدة لدولة العقل ، وهي فى الوقت نفسه من أدعى القواعد للاعجاب بسمو هذا الدين ، وللتعجب من سبقه العالم كله بنحو عشرة قرون لتقرير الدستور العلمى ، ولاطلاق حرية النظر والتفكير بغير اعتداد بشيء غير مصلحة العلم والفلسفة خالصين من كل وصاية ورقابة . ومن أعجب العجب أن المفسرين للكتاب جروا على سنة العلم نفسه ، فقرروا كروية الأرض وسواها من المسائل التى تخالف ظاهر ألفاظ الكتاب ، صائرين إلى تأويلها لتوافق مذهب العلم ، مستفيدين من تلك القاعدة الأصولية العظيمة ، فكانوا بذلك ممهدين لأقوم السبل لمن يأتى بعدهم ، عند ما يستبحر العلم ويكشف للناس مالا يخطر ببال .

فهل فى الأديان المعروفة شيء من هذا النوع ، ولو شئنا لملأنا مجلدات

من أخبار مكافحتها للعلم والعقل ، وترتيبها العقوبات القاسية على كل صغيرة وكبيرة منهما أكثر من عشرة قرون متوالية ؟

ولكنك لو علمت أن هذا الدين شرع ليكون دين البشرية العام الخالد ، وأنه أنزل الى الناس فى آخر الزمان حيث يبلغ العلم أبعد شأو ، وتمتد الفلسفة إلى أبعد مما يتصوره الخيال البعيد المدى ، وتكثر المسائل التى تخالف ظواهر الألفاظ الواردة فى الكتاب ، لبطل تعجبك وأدركت أن العاقبة له حتما وإن كره ذلك الكارهون ، مصداقا لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

أسلوب الاسلام فى بناء الأخلاق ، ومذهبه فى اعطاء العقل حريته فى التطور

يطلب الأوساط من الدين فيما يطلبونه أن يرشدهم الى طريق الآداب والاخلاق دون أن يحاول تحديدها، تاركا للعقل حرية التطور فى الشعور بها ، وبلوغ الغاية التى تنتظر منها .

هذا نفسه هو أسلوب الاسلام ليس فى الاخلاق فحسب ، ولكن فى كل ماله مساس بالانسانية ، تفادياً من التحجر الذى يصيب النظم فيصبح شأنها شأن التماثيل تضاف الى أمثالها مما صنع فى أزمان مختلفة وتمسى الحياة فى واد وهى فى واد آخر .

لذلك حرص الاسلام على أن لا يعطي، على ما يجب أن يتطور بتطور الانسان من أموره الحيوية ، إلا أصولا عامة لتبقى هذه الاصول حية

خالدة كالنواميس الطبيعية ، يحوم الانسان حولها مستسلما لفواعل التطور . وهذا أقصى ما يرجى من فرد أو جماعة حيال الأصول الخالدة. وهذا الموقف فى الوقت نفسه يؤثر أعظم تأثير فى أعمال الانسان ومراميه ، ويطبعها بطابع خلق يزداد أثره ظهوراً على مر السنين .

كل كائن فى العالم يحمل من الروح العام نفحة يقوم بها مبناه ومعناه معا . والانسان يحمل أكبر قسط مما تحمله الكائنات من هذا الروح . وهو الذى يرفعه من حضيض الحيوانية ، ولا ينى فى دفعه إلى التطور وإلى الاستقامة . وهذا القسط الروحانى الاكبر الدافع إلى التطور ، والمتأدى بذويه إلى أرقى المكانات ، هو الذى دعاه الكتاب الكريم بالأمانة ، فقال تعالى: « إناعرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ، إنه كان ظلوما جهولا » ، إنه كان ظلوما وجهولا لا لقبوله حمل الأمانة ، ولكن لحيده عن الصراط السوى وهو يحمل هذه الأمانة فى سويداء قلبه . فالكلام تحضيض على مراعاة حقوق هذا السر الأقدس فى صورة تبكيت . وهذا أبلغ ماقرأه الناس فى الحث على مراعاة كرامة الانسانية ، وعلى تجلية التبعة الأدبيـــة التى تتحملها البشرية . والتعبير بالأمانة أجمل ماعرفوه من التنويه بالفضيلة التى لا يخلو قلب من قبسة إلهية منها .

بعد تقرير هذا الأصل الأصيل الذى يجعل التكمل فى الأخلاق والصفات والميول أمانة فى عنق الانسان ، وجه الاسلام عنايته لايقاظ غريزة الرجولة فى النفس إلى أبعد حد ، ورفع رين الكثافات عن قبس الروح المودع فى جبلته ، وقد اختار الاسلام لتجلية هذا الأصل فيه

موطنا من أدق مواطن النفس ، حيث تتسلط العاطفة الدينية فتستولى على الشخصية وتسوقها وراء صغريات الأمور تحت عنوان الورع أو التنزه عن كل ما هو أرضى ، مستوعبة جميع قواها فى سبيلها ، فتجعل الأمة كلها كجماعة من المتنطعة انقطعوا للعبادة الجسدية ، لا يغنون عن أنفسهم ولا وطنهم شيئاً ، فقال تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

ومعناها ليس العمل الصالح أن تلتفتوا شرقا وغربا تتحرون مكان القبلة ، ولكن العمل الصالح هو أن تؤمنوا بالله وبالآخرة وبالملائكة وبالكتب الإلهية وبجميع النبيين استكمالا لحقوق أرواحكم ، وأن تؤتوا المال ، على شدة تعلقكم به ، ذوى قرباكم واليتامى والمساكين والمسافرين والسائلين ، وأن تعملوا على فك رقاب الأسرى بأداء دياتهم قياما بحقوق المجتمع وتوفية لروح التكافل فيه ، وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة تطهيراً لأرواحكم وأموالكم ، وأن توفوا بالعهود ، وأن تصبروا فى مواطن الشدة من فقر أو مرض أو حرب ، من يفعلون هذا كله فهم الذين صدقوا فى إسلامهم وأولئك هم المتقون بحق ، لا الذين قصروا عملهم على تحرى القبلة وبعض الصغريات التى لا تتصل بكبريات الأمور الاجتماعية ، مصروفين بها عن جميع صفات الروح

التى تحفظ وجودكم ، وتصون أوطانكم ، وتمكن لكم فى الأرض .

فهذه الآية تكشف عن مذهب الاسلام فى الأخلاق وتجعل الناظر فيه يلمس بيده العلل الأولية التى جعلت من المسلمين المتقدمين وحدة مندمجة لم تتجه الى غاية الا بلغتهـا ، ولم ترم إلى غرض إلا أصابته .

ولك بعد هذا أن تتلو الكتاب لترى أن كل ما ورد فيه حثاً على محامد الخلال، مقصود به إيقاظ غريزة الرجولة لا اماتتها كما فعل سواه.

ألا تعجب من دين يسوى فى التبعة بين الظلم والانظلام ؟ فمن ترك نفسه يظلم فهو كمن ظلم غيره على حد سواء ، ويحض على عدم قبول بغى الغير ، فقال فى صفات المؤمنين : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين » .

هنا نسرع فننبه أن الاسلام لا يعتبر التجاوز عن الحق ممدوحا إن كان هذا عن عجز وقصور ، فان تعبيره يقتضى القدرة على المجازاة اذ لا يعفو الا القادر ، فلا يقال ضربت الجبان فعفا عنى،ولكن يقال ضربت الجبان فعجز و فاستخذى أو فنكص على عقبيه الخ الخ

ولم يكتف الاسلام بهذاولكن ذهب إلى عدم قبول الاعتذار بالضعف فقال فى قوم هالكين : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » .

هذا أغرب ما يروى عن دين فى العالم ، لأن المعهود أن الأديان

لا تعبأ بالقوة الاجتماعية ، بل تؤدى الى الضعف فيها وتعترف به ولكن الاسلام لا يعتبر الضعف عذراً ، ويوجب على أهله أن يكونوا أقوياء فى مجتمعهم ، وكل هذا متنزل من أصله الأصيل فى إيقاظ الرجولة فى النفس البشرية .

ولكن بث هذه الروح فى الأمم كثيراً ما أصابها بروح التجبر والتغشمر ، فجاء الاسلام بمعدلاتها من التنويه بفضيلة العفو عند القدرة ، والمسامحة اذا كانت أبلغ فى المجازاة ، فقال : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، ومايلقاها الا الذين صبروا ، ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم » . وقال : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين » . وقال : « ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار » . وقال : « ادفع بالتى هى أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون » . وقال : « وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم » .

وقد جعل الاسلام من معدلات روح الرجولة إقامة مبدئها نفسه ، وتحمل عبء الخلق الممتاز ، حتى فى المواطن التى اعتادت الأمم أن تهدر فيها الدماء غزيرة ، وتعد ذلك قربات عند الله ، وهى مواطن الانتصار للدين حيال من يريدون القضاء عليه وعلى أهله بحمية الجاهلية إعلاء لشأن الوثنية ، فطالب الاسلام أهله بالعدل وعدم الاعتداء حتى فى هذه المواطن، التى تغلى فيها الرءوس وتطيش الأحلام، فقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم (اى ولا تحملنكم عداوتكم لقوم) .

أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب» وقال: «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»، وقال: «فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا».

وزاد الاسلام على هذه المعدلات معدلا من روح البطولة والخلق العالى، فحرم على ذويه فى هذه المواطن الخطيرة الأخذ بالظنون، وكلفهم بالتبين والتثبت فى هدر الدماء البشرية، وهو مالم يسمع بمثله فى تاريخ أمة من الأمم، وبخاصة فى الحروب الدينية التى يقتل فيها الرجل أباه وأخاه ولا يبالى، فقال تعالى: «يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا (حتى لا تهدروا دماً خطأ) ولا تقولوا لمن التى اليكم السلام لست مؤمناً». هذا مع أنه ثبت لهم أن الكافرين كثيراً ما كانوا يستفيدون من هذه السماحة فيظهرون الاستسلام والسيف يهوى الى أعناقهم، ومتى زال عنهم الخطر عادوا إلى خصومتهم. وقد حدث أن أحد الصحابة لم يبال بقرن له نطق بالشهادتين والسيف يهوى إلى عنقه، فقتله، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك غضب منه غضبا شديداً، وتبرأ الى الله من عمله. فقال له الصحابى: يا رسول الله هذه خديعة منه. فقال: ولو كانت، فاننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر.

فهذه الدرجة فوق الرجولة، فهى بطولة صحيحة، وخلق سام ليس وراءه مذهب. ولقد تنمو هذه الغريزة وتشتد حتى تستحيل إلى وحشية، كما استحالت إليها لدى أمم كثيرة، فاحتاط الاسلام لذلك

من كل ناحية، وأنجح فى ذلك، فاشتهر أهله بحسن الجوار فى كل تاريخهم، لحافل بعظائم الأمور .

ومن معدلات هذا الخلق روح التضامن الذى بثه الاسلام فى أهله بقوة لم تعهد فى نحلة من النحل ، فقرر أولا أن الدين النصيحة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « الدين النصيحة » فقالوا لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ورسوله وعامة المسلمين وخاصتهم»، ثم جعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حقاً من حقوق كل فرد فى المجتمع وواجباً عليه يسأل عنه . فقال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » . وقال فى قوم من الهالكين : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » . وقال عليه الصلاة والسلام : «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيران » . فلكل مسلم بحكم هذه الآيات الحق فى إبداء النصيحة للمجموع ، وهو حق دستورى لم يتقرر إلا فى آخر القرن الثامن عشر ، فكان من ضمن حقوق الانسان التى أعلنتها الثورة الفرنسية .

ولما تم للاسلام إحياء غريزة الرجولة فى نفوس أهله ارتفع بهم الى درجة البطولة ، وطالب أهله بمقتضياتها ، وهى :

أولا — قول الحق ولو على النفس والأقربين ، فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ثانياً — الترفع عن تطلب الثناء على الاحسان فى كل عمل، فقال

تعالى: «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا »

ثالثاً — إيثار المحتاج على النفس فقال تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ، والخصاصة الفقر .

ثم ماذا أقول والقرآن بحر متعنجر من الأخلاق النبيلة، والشمائل الجليلة ، وبحسبي أن أكون قد وفقت للالمام بأصولها الأولية التي تقوم عليها ، ذلك أولى بي فى عجالة مثل هذه .

شريعة الاسلام هي القرآن وهى أصول العدل المطلق

يرجو الأوساط من الدين أن لا يكون الا أصولا أولية،تصح أن تكون دستوراً للمشترعين ، لا أن تكون شريعة تفصيلية ، إن انطبقت على الحوادث فى عهد شذت عنها فى عهد آخر .

ونحن نقول إن الشريعة الاسلامية توفى بهذا المطلب على أكمل الوجوه ، فهي محصورة فى القرآن الكريم ، وهو مجمل فى مواطن كثيرة منه ، لذلك اضطر الخلفاء الأولون أن يستأنسوا بما قضى به النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانوا اذا لم يجدوا ضالتهم من السنة ، عملوا بآرائهم ، مستنيرين بالعرف والحقوق الطبيعية ، والاصول التشريعية المقررة فى القرآن .

فلما امتد الملك الاسلامى ونبغ العلماء الكبار فى عواصم الاسلام ، عالجوا الأمور التشريعية مقررين أن للشريعة الاسلامية أربعة أركان : الكتاب والسنة والقياس وإجماع المسلمين ، وهو ما يعبر عنه اليوم

بالاستفتاء العام .

ولا بد لنا قبل الكلام على الشريعة الاسلامية أن نلفت القارىء إلى أمور هامة تستوعب منا مقالا برمته،وكلها من أكبر وأجل ما يؤثر فى تاريخ شريعة ، وقد اصبحت بما فتح على الناس من أسرار التشريع من المعجزات الخالدة لهذا الدين ، والسيرة النبيلة لرجاله الأولين .

(اولها) انالتشريع فى الاسلام لم يودع إلى طائفة خاصة،ولا حصر فى طبقة معينة ، ولا جعل من حظ العرب وحدهم ، ولكنهجعل حقا شائعاً للكافة يتناوله من شاء من المسلمين حتى المماليك الاجانب وأبنائهم ممن كان يطلق عليهم العرب كلمة الموالى . ثم ترك للرأى العام الحكم فى الآخذ بما يقال أو إهماله . لذلك اتفق أن كان جمهرة أئمة الأقاليم وزعمائها فى الدين من هؤلاء الذين كانوا أرقاء اجانب أو ولدوا من آباء كانوا أرقاء أجانب قال العلامة السخاوى فى شرح الفية الحديث للقرافى : إن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى قال للزهرى امام الحديث: «من يسود أهل مكة ؟ قال الزهرى : عطاء . قال هشام : سادهم؟ قال الزهرى سادهم بالديانة والرواية.قال هشام نعممن كان ذا ديانة حقت الرياسة له . ثم سأل الخليفة عن اليمن؟فقال الزهرى إمامها طاوس . وكذلكسأل عنمصروالجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة (ولايات الدولة الاسلامية) ، فأخذ الزهرى يعد له سادات هذه البلاد ، وكلما سمى له رجلا كان هشام يسأله : هل هو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول : مولى ، الى أن أتى على ذكر النخعى فقال إنه عربى . فقال هشام : الآن فرجت عنى ، والله ليسودن الموالى العرب ،

ويخطب لهم على المنابر » .

(ثانيها) : أنه لم يوضع للتشريع أسلوب مقرر لا يجوز تعديه ، فترك لكل ناظر الخيار فى انتخاب أسلوبه ، فلذلك تخالفت أساليبهم الى حد بعيد ، وأشد ما تكون عليه تخالفا بين أصحاب الرأى والقياس ، وبين أصحاب الحديث . فالأولون وعلى رأسهم أبو حنيفة النعمان (توفى سنة ١٥٠ هـ) كانوا يرون أن الرأى والقياس الصحيح أولى بالاتباع من الأحاديث التى رواتها آحاد ، ولم يصح عندهم من الأحاديث التى رواتها جماعة ، أى المتواترة التى لا عذر لأحد فى الشك فيها ، الا بضعة عشر حديثا . والآخرون أخذوا بأحاديث الآحاد إن قوى إسنادها وثبتت بغلبة الظن صحتها .

(ثالثها) : أنه لم يخص التشريع بزمان دون زمان ، فقد كان للقرن الأول أئمة وللثانى أئمة يقلدهم الناس ، يبلغ عددهم السبعين أو يزيدون ، فاذا لم يبق لهم أتباع الى اليوم فلأن المسلمين وجدوا فى مذاهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل غنى عن بقية المذاهب فاتبعوها وأهملوا ماعداها .

ولكن سلسلة الامامة فى الدين لم تنقطع ، لنص العلماء على رجال من أهل القرن الرابع والخامس وما بعده بأنهم وصلوا الى درجة الاجتهاد ، ولا يزال الباب مفتوحا الى يومنا هذا ، ولن يزال مفتوحا على مصراعيه حتى تقوم الساعة .

(رابعها) : أن أحداً لم يحجر على أحد حريته فى اتباع أى المذاهب الفقهية شاء ، بل ولم تحجر على أحد حريته فى اتباع مذاهب المعتزلة

والخوارج والفرق التى اعتبرت مبتدعة ، فقد كان لهم ممثلون فى جميع عواصم الاسلام ، وكان الكافة يجتمعون فى المساجد فيتناظرون ثم يرجع كل منهم الى داره آمنا فى سربه لا يزعج طمأنينته أحد .

(خامسها) : إجماع المسلمين على أن الاجتهاد فى تنور أسرار الشريعة واجب على الحاصلين على مؤهلاتها ، ولذلك لم يكرهوا قط أن تتعدد المذاهب ، وهم فى ذلك كانوا يصدرون عن طريقة النبى صلى الله عليه وسلم نفسه ، فقد قال : للمجتهد أجران ، إن أصاب : وأجر إن أخطأ .

(سادسها) . كان المسلمون لا يروعهم الخلاف بين المجتهدين مهما كان بعيد المدى ، بل كانوا يقابلون هـذه الخلافات بارتياح عظيم ، وكانوا يكبرونها الى حد أن جعلوها علما خاصا سموه علم الخلاف . فكانوا يتدارسونه كما يتدارسون أصول الفقه ، لتحصيل ملكة السريان فى سرائر المسائل المعقدة . وسرى الترحيب بهذا الخلاف الى العامة فقالوا : اختلافهم رحمة .

هذه الأمور الستة التى حصرناها هنا ونحن بسبيل الكلام عن الشرع الاسلامى . لا يصح أن ندعها من غير تعليق عليها ، فانها أعجب ما يروى عن شريعة دينية ، وتبين عن أغراض سامية ، ومرام بعيدة . تضع هذا الدين فى مستوى بعيد من العوامل التى تلحق بالشرائع فتصيبها بالوقوف والتحجر ، وتوجد له من المناعة وقوة الحياة ما يتقى بهما كل ما يخطر بالبال من دواعى الانحلال ، فيضمن لنفسه الخلود والتفوق فى وسط كل تطور من تطورات العقل والعلم معا ، فاليك :

قصد الاسلام بعدم حصره حق التشريع فى طائفة خاصة أو جنس.

معين ؛ وبفتحه بابه فى وجوه الكافة حتى الأرقاء ومن فى حكمهم ، أن يجعله عالمياً عاما، لاطائفياً خاصا ؛ ولا قومياً محدوداً ، وغرضه من ذلك أن يتابع التشريع حياة الأمم ويكابد معها كل التطورات التى تدخل فيها ، حماية له من الوقوف عند حد محدود ، ومن القصور عن الالمام بحاجات البشر كافة ، باعتبار أنه دين عام خالد ، وكل ما هو عالمى يعيش بحياة العالم ، ويتبادل وإياه التعاون على قطع مفاوز الحياة ، ويدخل معه فى جميع التطورات ، ويخرج منها أقوى بما كان وجودا ، وأرسخ أصولا ، وأشمل لحاجات الآخذين به والمعولين عليه ، ولكنه لو أسند الى طائفة خاصة أو طبقة معينة ، أو جنس دون جنس ، لاصطبغ بصبغة قومية ، فينطبق على قوم دون آخرين . ويخرج مع الزمن عن أن يكون شرعا عالمياً ، فيقف عند حد ، ويزداد التباين بينه وبين الأمم ، فلا تجد فيه حاجاتها ولا ثقافتها ولا روحها ، فتدعه وشأنه متلمسة من الشرائع ما يكون أولى بها منه .

وقد ترك الاسلام لشعوبه كل شيء من أول تعيين خليفة له ، الى تحديد شكل الحكومة ، الى ترتيب السلطات العامة الخ ، ليكون كل ذلك للشعوب الآخذة به ، وما كان هذه صفته عاش ما عاشت الشعوب وتطور معها ما تطورت ، وليس بعد هذا ضمان لحياة شريعة عالمية فى الأرض .

ورمى الاسلام بعدم تحديد أسلوب مقرر للناظرين فى شريعته ، عدم حصر دائرة البحث فى أمر كلما تعددت أمامه وجهات النظر كان ذلك أعود عليه بالاصابة ، وأرجى لبلوغ الغاية .

وهذا فى الوقت نفسه أجدر بدين يعترف بسلطان العقل ، ويشيد بدولة العلم ، ويحترم لكل ناظر وجهة نظره ، فى الحدود التى قررها أولو البصر ، ويقررونها على مر الأجيال والعصور .

والمتأمل فى مدى الخلاف بين أهل الرأى والقياس ، وبين أهل الحديث ، يرى البون شاسعاً ، ومع هذا فقد رضى المسلمون هذا الخلاف الجوهرى بين الفريقين ، وخصوا صاحب المذهب الأول ، وهو فارسى الجنس وقليل الحظ من العربيـــة ، بلقب الامام الأعظم ، واتبعه أكثر المسلمين .

والمحير للعقل أن المسلمين أساغوا مذهب أبى حنيفة هذا فى القرن الثانى للهجرة ، ودعى هذا الامام لتولى رئاسة القضاء فى الدولة فأبى ، فتولاها صاحبه أبو يوسف ، والمملكة الاسلامية فى أوج عظمتها . فلما نبغ أهل الحديث فى القرن الثالث بظهور مالك والشافعى وابن حنبل ، احترموا رأى أبى حنيفة ولم يرموه بما يرى به المخالفون خصومهم ، بل كان بعضهم يصلى خلف بعض من غير اعتداد باختلافهم فى وجهات النظر الى هذا الحد البعيد .

وهذا الأدب حصلوه من الاسلام نفسه ، فانه خول العقل كامل سلطانه ، ولم يشترط للنظر وجهة معينة ، ولا حد له حداً مقرراً ، بل ترك العقول حرة فى توثباتها لبلوغ الحقيقة المجردة . وهذا الأدب إن شوهد بين أهل الفلسفة والعلم وكان من مقوماتهما ، وهو الذى ضمن لهما الاحترام العام ، والحظوة بالخلود ودوام الارتقاء ، فلم يشاهد قط بين أهل الأديان ، فقد حصروا النظر فى أمور الدين فى طائفة خاصة ،

ووضعوا له تقاليد لا يمكن تعديها بوجه من الوجوه ، لذلك انفصلوا عن جثمان الأمة ، فخيل اليهم أن هذا الانفصال تميز، ففرحوا به وغفلوا عن أن هذا التميز يضيع الدين ويضيعهم معه .

وأراد الاسلام من عدم خص التشريع بزمان دون زمان ، أن يستفيد من الرقى الذى ينال العقول، فيكون حظه منه أوفر حظ ، ويندمج فى روح الأمم، فتتوحد ميولها الدينية وميولها العلمية ، فلا يكون بينهما تناقض من أى نوع كان ، وتدوم الصلة بين الناس وشريعتهم ، فتدخل معهم فى جميع التطورات المقدرة لهم ، وتتلاءم وأحوالهم الاجتماعية التى يدخلون فيها تحت ضغط الحوادث وفواعل الانقلابات . وقد عاش المسلمون قروناً على هذا النحو حتى إنهم اضطروا إلى تأويل كل نص خالف ظاهره حكم العقل والعلم ، فقالوا بكروية الأرض وبكل ماوصل إليه علم الفلك وغيره، مع أن فى الكتاب آيات يدل ظاهرها على نقيض ما قالوه ، فأولوه جريا على الأصل الاسلامى نفسه .

وألهم المسلمون عدم الحجر على حرية أحد فى اتباع أى المذاهب شاء ، لقيام دينهم على حرية البحث ، وتحريم التقليد وإلقائه تبعة كل إنسان على عاتقه ، وتقريره أن نفساً لا تغنى عن نفس شيئا ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام لابنته : « اعملى يا فاطمة فانى لا أغنى عنك من الله شيئا » . فكل مسلم مسئول عن عقائده ومعاملاته ، ومطالب بالبرهان عليها باعتبار أنه كائن رشيد منح كل الصفات التى تجعله رشيداً ، وقد أوتى عقلا يميز به بين الحق والباطل .

وقد رحب المسلمون بتعدد المذاهب وشجعوا عليه ، لثقتهم بأن ما أبهم على واحد فى أمر من الأمور قد ينكشف لآخر ، وما استعصى على ناظر من الناظرين قد ينقاد لغيره ، فلا يحرمون من مزايا العقول فى تصيد الحقائق ، وهى من السعة بحيث لو تجرد الناس كلهم للبحث عنها لما كانوا مغالين فى ذلك . بل الاسلام فى تقريره عدم قبول إيمان المقلد يشجع الكافة على الحصول على هذه الدرجة ، ولا يسد على أحد مجال الجهاد فى هذه الناحية، ولهذا السبب عينه لم يخص الاسلام الاجتهاد بجنس واحد،ولكن فتح مجاله حتى أمام الأرقاء ومن فى حكمهم، وهذا مالم يسجله دين لأهله من سعة الصدر إلى اليوم .

ومما يجب أن يدون لهذا الدين من المفاخر الخالدة فى هذا الباب تقريره أن المجتهد يؤجر وإن أخطأ . فهذا الأصل الاسلامى يعتبر من أفعل المنشطات لإعمال العقول وتبارى الروايات ، ويدل على أن مقصد هذا الدين الوصول إلى الحقائق العالية ، لا الانحصار فى دوائر ضيقة والجمود فيها ، فيجىء ناموس الترقى فيدفعهم للخروج منهـا ، فيوقر فى نفوسهم أنهم خرجوا على الدين ، ويكون التنازع فى صدورهم مثاراً لشبهات وشكوك لا تقف بهم عند حد ، ثم يؤول أمرهم إلى نبذ الدين ظهرياً .

هذه الأمور الهامة كان يجب علينا أن نقدمها بين يدى كلامنا على أصول الشريعة ، لأن عليها يتوقف العلم بسمو مذهب الاسلام فى هذا الأمر الجلل ، الذى له الأثر الحتم فى حفظ كيان الأمم ، وفى وحدة وجودها وتدرجها فى معارج الكمال إلى غير حد .

فى الفصل التالى نأتى على ما وعدنا به من الأصول الخالدة لهذه الشريعة السمحة والله المستعان .

نظرة فى أصول الشريعة الاسلامية

لم تر الأرض شريعة أرسخ قواعد فى العدل ، ولا أبعد مدى فى المساواة واحترام الحقوق ، ولا أجمع لأصول الحياة الاجتماعية ، وأشمل لعناصر التطورات الانسانية ، من الشريعة الاسلامية . ذلك لأنها قامت على مراعاة الحقوق الطبيعية،وراعت فى وضعها لا مصلحة المجتمع الاسلامى وحده ، ولكن مصلحة المجتمع البشرى كله ، بل والمجموع العالمى عامة ، ولاحظت فى بناء جماعتها ألا يكون أمرهم قائما على التضخم بامتصاص دماء المقهورين ، ولكن على بذل النفس والنفيس فى سبيل إقامة المثل الأعلى .

هذا كلام يحتاج لبيان ، فاليك :

أدرك الانسان فى العصور الحديثة أن هنالك عدلا مطلقاً،وحقوقا طبيعية لكل فرد وكل جماعة ، فقصارى أمر الشرائع التى تعتبر اليوم عادلة أن تقرب بالانسان الى هذا العدل وهذه الحقوق ، لا أن تؤتيه بها كاملة . وفى اليوم الذى تستطيع أن تبلغ به إلى هذه الدرجة من الكمال تكون قد وصلت إلى المثل الأعلى الذى كانت تتطلبه ولا تبلغه ، ولكن الاسلام انفرد عن جميع الشرائع فى تقرير العدل المطلق والحقوق الطبيعية للأفراد والجماعات معاً .

نعم قد أقر الاسلام الاسترقاق والحرب والفتوحات وضرب الجزى (جمع جزية) على المقهورين ، وكل عالم بالاجتماع يرى له فى ذلك واسع

العذر، فان كل هذه الأمور كانت من عوامل الحياة الاجتماعية، ومن فواعل التطورات الانسانية، فكيف كان يتسنى لدين يريد أن يكون عملياً لا خيالياً أن يبطل الاسترقاق ولم يحن وقت إبطاله إلا فى القرن التاسع عشر، أو يمنع الحرب ولاتزال الحرب إلى اليوم الوسيلة الوحيدة لاثبات الحقوق؟ وكيف يحرم متبعيه من أقوى بواعث العمران بل بما به وجودهم أحياء بين الجماعات؟ ألا يرون أن الأديان التى جاءت بالسلام والاستسلام قد اضطر أتباعها لمخالفتها، وانقلبوا أكثر الأمم اشتغالا بالحرب والفتح الاستعمار؟

هذا صحيح، الا أن الاسلام أحاط كل هذه الأمور بما يخفف من ويلاتها، ويفعل فى إبطالها متى اقتضت التطورات البشرية إبطالها، وللقارىء أن يراجع ما كتبناه هنا فى فصل الاسترقاق والحرب والاستعمار لدى المسلمين فى قسم الرد على الشبهات؟

ونكرر هنا قولنا إن الاسلام أمر فى الحرب بعدم الاسراف فى إراقة الدماء، وبعدم الاجهاز على جريح، وبعدم مطاردة المهزوم، وبقبول أوهى المحاولات وأكذبها للخلاص من القتل، كمن يلقى السلم والسيف يهوى إلى عنقه.

وراعى الاسلام فى ضرب الجزى مصلحة المقهورين، حتى إن أمما دخلت تحت حماية المسلمين طواعية هرباً من الضرائب الفادحة التى كانت تكلفهم بها حكوماتهم، وللتمتع بنعمة العدالة الاسلامية. وهذا أغرب ما سمع عن الفاتحين القدماء والمحدثين، (راجع كتاب المنازعة بين العلم والدين للعلامة دريبر المدرس بجامعة نيويورك).

أما فيما عدا هذه الأمور التى قضى بها الوجود الاجتماعى العام ، فان الاسلام قرر لشريعته العدل المطلق والمساواة التى ليس وراءها مذهب ، بصرف النظر عن الألوان والأجناس والأديان والمراتب الاجتماعية ، فانه لم يعتد فى سبيل ذلك لا بطبقات ولا بطوائف ، ولا بأى امتياز متنزل من أى اعتبار كان .

شريعة الاسلام فى القرآن . وهى فى الجملة أصول أولية من العدل والمساواة على اطلاقهما ، وقد تركت لأولى البصر تقدير الحقوق وتحديد التبعات ، وتقرير العقوبات ، (الا فى مواطن معدودة سنأتى عليها) . وقد قضى النبى صلى الله عليه وسلم ، فى حوادث قضاء حفظته السنة الصحيحة ، وجاء الائمة بعده فقضوا بأمور أخرى لم تكن قد وقعت على عهده صلى الله عليه وسلم ، وقد راعى جميعهم فيما قضوا به العدل المطلق والمساواة الكاملة ، فجاءت مذاهبهم أعدل ما عرفه البشر الى اليوم . وقد أطلق الشارع حق النظر فى الشريعة لكل إنسان حتى من لا يقبل منهم النظر فى أمثال هذه الأمور لدى الأمم كافة ، كالأرقاء ومن فى حكمهم . فتكلم كل قادر على الفهم والاستنباط فى هذه الشئون ، واعتبر كلامه إما اجتهادا مطلقا منه ، أو اجتهادا فى مذهب من المذاهب المقررة ، حتى لا تستطيع أن تأتى بقول حديث من أقوال المشترعين المعاصرين لنا لا يكون قد سبقهم اليه إمام من الائمة أو عالم من علماء المسلمين . فاذا أريد أن يعمل من هذه الأقوال قانون عام أمكن عمله على حال أكمل من حال كل قانون فى الأرض ، ويكون قابلا للتطور الى مالا حد له ، لأن الاسلام لم يضع للاجتهاد حدا ، ولم

يعين له أهلا ، ولم يحدد له زمنا ، ولكنه ترك بابه مفتوحا ليسع جميع التطورات العقلية التى تدخل فيها العقول فى كل زمان ومكان ، حتى لا يكون للمسلمين عذر فى تركه والتعويل على الشرائع الأخرى ،

هذا من ناحية الأصول الأولية ، التى أقيم عليها صرح الشريعة الاسلامية ، فهل راعى المشترعون الاسلاميون هذه الأصول ، وهل أساغها الناس فى تلك العصور ونفذوها على أكمل الوجوه ؟ نحن مضطرون لتقديم هذه الأسئلة ، لأن تنفيذ مقتضيات العدل المطلق والمساواة الكاملة ، لم تتضح له الى اليوم أرقى أمم الأرض من اللاتى نصبن أنفسهن أوصياء على العالمين ، فهل تنفذه أمة فى أول عهدها بالاجتماع ، وتقوم بحقه فى الحدود التى نعرفها نحن لها اليوم ؟

نعم نفذته الأمة الاسلامية، وقامت بحقه طوال عهد قوتها، واليك طرفا من سيرتها فى ذلك :

شكا يهودى على بن أبى طالب الى عمر فى خلافته ، وأنت خبير بمن هو على ، فلما مثلا بين يدى أمير المؤمنين نظر الى على وقال له : اجلس يا أبا الحسن . فظهرت آثار من الغضب على أسارير وجه على . فقال له عمر : أكرهت يا على أن يكون خصمك يهوديا وأن تمثل واياه أمام القضاء ؟ فقال على : لا ، ولكنى غضبت لأنك لم تسو بينى وبينه بأن كنيتنى فقلت يا أبا الحسن (والتكنية تعظيم) .

انظر الى مبلغ فهم المسلمين الأولين لمعنى العدل حتى عد على بن أبى طالب تكنيته رفعا له على خصمه ، وهذا فى نظره ضد المساواة التى أمر بها الاسلام . وانظر فوق هذا الى أنه غضب لأن غيره عدا

على العدل ولو فى تمييزه هو نفسه عن غيره ، وهـذا غاية ما يعرف فى تضامن أمة للوصول الى المثل الأعلى فى كل شأن .

وحدث أن ولدا لعمرو بن العاص القائد المشهور فاتح مصر وواليها على عهد عمر بن الخطاب، ضرب رجلا ظلما، فأقسم المجنى عليه ليشكونه لأمير المؤمنين ، فبينما كان الخليفة مع خاصته وعمرو بن العاص وابنه معهم فى المسجد فى موسم الحج ، اذا بهـذا الرجل يقوم فيقول : يا أمير المؤمنين إن هذا ، وأشار الى ابن عمرو ، ضربنى وقال اذهب فأنا ابن الأكرمين ، فنظر عمر الى عمرو وقال له : متى امتلكتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ثم التفت الى الشاكى وناوله درته وقال له : اضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك ، ففعل .

تأمل فى هـذا العدل الذى يضمن حق رجل من السوقة ضـد أمير من أمراء العرب ، وابن فاتح أعظم بلاد العالم غنى ، وأبعدها فى الممالك شهرة .

وتقاول أبو ذر الغفارى وعبد زنجى فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، فاحتد عليه وقال له : يا ابن السوداء، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « طف الصاع طف الصاع (مرتين تهويلا للأمر) ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح» . فوضع عند ذلك أبو ذر خده على الأرض وقال للأسود : قم فطأ على خدى (تكفيرا عن ذنبه) .

اقرأ هذا واذكر أن العالم كافة يعتبرون السود الى اليوم فى مستوى القردة ، وأشد ما يكونون عليهم هوانا فى بلاد المتمدنين أنفسهم .

وعلى ذكر العبيد أقول : أتعلم أن فى الأرض أمة تقتل الحر بالعبد؟ لا ، ولا فى هذا القرن حيث بلغ الشعور بالمساواة حداً بعيداً . ولكن الاسلام قرر فى شريعته أن يقتل الحر بالعبد إذا قتله عمداً . فأنا إذا حشرت للقارىء كل آيات البيان لأستنزل إعجابه بهذا السمو فقد أرانى مقصراً حيال هذا الأمر الخطير .

ثم أتعلم أن أهل دين يقتلون أخاً مؤمناً منهم بكافر ؟

لا والله إلا فى شريعة الاسلام !

إن أصدق مايظهر به الانسان من مبلغ احترامه للعدل والمساواة ، وقت احتدام غضبه ، وتبيغ دمه ، دفاعا عن حياته وذوداً عن كرامته، وأصدق ماتظهر به الأمة من ذلك، وقت الحرب والدفاع عن الحوزة، وبخاصة ضد خصوم من أهل الجاهلية الجهلاء لا يعرفون للرحمة معنى ، ولا يقيمون للانسانية وزناً ، فاتل شريعة الاسلام وتأمل إلى أى حد تأمر أهلها باتباع سنة العدل حتى فى هذه المواطن التى تغلى فيها الدماء بالسخائم ، وتطيش فيها الاحلام وسط صليل الصوارم ، فقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم (أى ولا تحملنكم عداوتكم لهم) أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » وقال : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون» وقال : وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

وفى الكتاب الكريم من أمثال هذه الآيات العدد الوفير . وقد سبق أن ذكرنا فى فصل مضى أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله

عليه وسلم قتل رجلا فى الحرب ألق إليه السلم ، فلما بلغه ذلك غضب غضباً شديدا وقال اللهم إنى أبرأ اليك مما فعل فلان . فقال له صاحبه إن هذه خدعة منه يا رسول الله . فقال : ولو كانت كذلك فانا أمرنا أن نأخذ بالظاهر .

فالأخذ بالظاهر هذا مبدأ أول ما جعله أصلا من أصول الشريعة ، وأساساً من أسس المعاملات ، هو الاسلام . ولقد ساكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من المنافقين التحفوا الاسلام واستبطنوا الكفر ، فكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ، وينقلون إلى الكافرين أخبارهم وحركات جنودهم ، ويخرجون معهم للقتال فينهزمون ليجروهم معهم ، فيتعقبهم العدو ويفتك بهم . فاحترم النبي صلى الله عليه وسلم ظاهر إيمانهم ، وصبر هو وأصحابه على أذاهم ، وهم قادرون على إبادتهم ، وهذا ما لم يظهر أثره فى التشريع الدستورى إلا فى القرن التاسع عشر، حيث استقرت الدساتير، واحترمت المذاهب السياسية المختلفة، وتركت الحرية لكل قبيل يعمل فى دائرة القانون العام ، ومنع التحرى عن سرائر الناس للايقاع بهم .

إننا نكتب هذا ونحن نتفزز طرباً من هذه الآيات الباهرة ، ونتساءل : هل يمكن أن يكون لهذه الشريعة التى تعتبر المثل الأعلى للعدل من طريق غير الوحى ؟ وهل يستطيع رجل نشأ فى جزيرة العرب ، بيئة الفخر بالآباء واحتقار الضعفاء ، والعدوان على الحقوق، وعبادة القوة والأقوياء ، أن يأتى بمثل هذا العدل فى ذلك العهد البعيد عنا ؟

وإذا كان أفلاطون وارسطو أميرا الفلسفة قررا وقرر من جاء بعدهما حرمان أهل الحرف والصنائع وأصحاب المهن والأرقاء من الحقوق المدنية كافة، أفلا يعتبر الاعتداد بهم إلى هذا الحد سموا ليس وراءه مذهب؟

يقول قائل إنك تقول إن شريعة الاسلام أصول عامة تصلح لكل زمان ومكان، ولكنا نرى القرآن قد نص على عقوبات مختلفة على جرائم معينة كالزنا والسرقة وشرب الخمر والقذف والفساد فى الأرض، فكيف توفقون بين قولكم وهذه النصوص ؟

الحدود المقررة على بعض الجرائم فى القرآن

قلنا فى نهاية الفصل السابق إن فى الكتاب الكريم جرائم معينة محدداً لها عقوبات مقررة، كالزنى والقذف والسكر والسرقة والفساد فى الأرض، فالكتاب والسنة الصحيحة يقرران على مرتكب الجريمة الأولى، إن كان محصنا، عقوبة الرجم، وعلى مقترف الثانية مائة جلدة، وعلى مجترم الثالثة ثمانين جلدة، وعلى جانى الرابعة قطع اليد، وعلى فاعل الخامسة أن تقطع يده ورجله من خلاف أو ينفى من الأرض، فهذه العقوبات تصادف اليوم اعتراضات من جانب المشترعين، وقد أباحوا هم الزنى والسكر، وقرروا على القذف والسرقة والفساد فى الأرض عقوبات تناسب خطرها. ويفوت هؤلاء النقدة أمر خطير وهو أن الاسلام دين إصلاح اجتماعى وله برنامج معين فيه، وهو يرمى إلى تأليف مجتمع خال من الشرور ما أمكن، ويسود فيه التكافل فى الحياة والترافد حيال صعوباتها، إلى أقصى حد تطيقه الفطرة البشرية.

وفى الأرض مذاهب إصـــلاحية لا تكاد تحصى : فما الأديان الموجودة ، وما جمهورية أفلاطون ، ولا كتاب السياسة لارسطو ، وماوضعه أبيقور وذينون وغيرهم من الأقدمين ، وما نشره كارل ماركس ومن أتى بعده الى لينين . . الخ الخ ، إلا مذاهب اجتماعية قصد ذووها إحداث اصلاح عمرانى على موجبها . فمنها ما طبقت على بعض الشعوب وعاشت دهرا ثم اضمحلت وزالت ، ومنها ما حبطت تاركة وراءها دخانا كثيفاً وحمماً . وبعضها لم يطبق الى اليوم على أمة من الأمم ، ويجاهد للحصول على الفوز بأصوات الناخبين : كمذهب حزب العمال فى انجلترة ، والهتلرية فى المانيا ، وغيرها من المذاهب الاشتراكية حتى الفوضوية ، فاذا كان الشيء تعرف قيمته من أثره فانظر الى كل ما ذكرته لك من المذاهب الاجتماعية ، وتأمل هل من بينها مايعادل مذهب الاسلام فى الاصلاح الاجتماعي ، أو يقرب منه فى سمو أغراضه ، وبعد غاياته ، واستقامة مسالكه ، وصحة أصوله ، وفى تأديته للجماعات التى أخذت به الى زعامة العالم فى زمن لا يكاد يكفى لتطور فرد فما ظنـك بأمة ، وفى تعديتـه ما حصله من النور العقلى والعلمى ، والتقدم الصناعى والفنى ، الى الأمم كافة ، حتى كان سبباً فى حفظ التراث العقلى العالمى من التـلاشى ، بل كان داعيا لانعاش أوربا بعـــد أن قضت فى خدرها وجودها ألف سنة ، وأوجب لذويه سلطان الأرض ، فقاموا به على سنن من العدل لاتزال تترطب بذكرها الالسنة ، وتتعطر بأريجها الأندية ، وتتخـذ دليـلا محسوسـاً على أن الانسان يستطيع أن يوفق بين الدين الذى ليس وراء غاياته القصوى مذهب ، وبين المدنية التى ليس عن فواتها

مهرب ، وأن يؤاخى بين السلطان الذى ليس فوقه مصعد ، وبين العدل الذى ليس بعده مطمح ؟

فالاسلام كما ترى جاء بمذهب فى الاصلاح الاجتماعى ونجح فى تطبيقه ، وكان من أثره مارأيت مما لا تزال الأمم الآخذة به تعمل فيه، جهلا منها به ، معاول الهدم والتحطيم ، وتكاد لاتسقط منه ركنا ، وستعود اليه بعد أن تصح من داء هذه الفتنة ، أو تصحو من خدر الجهل الذى هى فيه ، معاصاة له ، وخروجا على أصوله .

فهل تعدى هذا الدين فيما قرره من استفظاع الجرائم التى ذكرناها ، وترتيبه عليها العقوبات الرادعة ، الحق الطبيعى الذى للافراد والجماعات ؟ وهل قصر فى اتخاذ الاحتياطات لها من جميع الأنواع ؟

أى مشترع أو فيلسوف فى الأرض لايرى فى الزنى جريمة من أبشع الجرائم ، لعدوانها على الشرف والكرامة والاخلاق أكبر عدوان ؟ فالاسلام قرر أن يضرب آتيه -إن لم يكن محصنا- مائة جلدة، وأن يرجم إن كان من أهل الاحصان .

هذه عقوبة من الشدة بمكان بعيد ، ولكن أرأيت كيف أحاطها الشرع الاسلامى بما يجعلها شكلية ردعية أكثر منها عقوبة حقيقية ؟ فقد تطلب لاثبات الزنى أربعة شهود عدول يقررون أنهم رأوا الفعل رأى العين فى تفصيل لا نستطيع الخوض فيه . مما يجعل إثباته قريبا من المستحيل ، وزاد على هذا بان أحداً لو اتهم اثنين بوقوع هذه الجريمة منهما ، طالبته الحكومة باحضار أربعة شهود عدول ، فان عجز عن إحضارهم عد قاذفا وضرب مائة جلدة .

وقد أوصى الشارع بقبول أوهى المعاذير فى دفع هذه التهمة ، فقد حدث أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله إنى زنيت . فوقع اعترافه وقعاً شديداً من النبى، فأخذ يلقنه الشبهات التى تدفع عنه الحد ، فيقول له : لعلك قبلت ، لعلك عانقت ، لعلك فاخذت ، فلم يزدد الرجل إلا إصراراً ، فلم يسع النبى صلى الله عليه وسلم الا أن يأمر باقامة الحد عليه وهو كاره

وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم قوله: «ادرأوا الحدود بالشبهات»، و « ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعاً » .

وقد سار أتباعه من بعده على سنته ، فحدث يوماً أن رأى عمر بن الخطاب فى أيام خلافته رجلا وامرأة على فاحشة ، فلم يستطع ، على شدته وحرصه على إقامة حدود الله ، أن يبت فى هذا الأمر بنفسه ، فجمع الناس وقام فيهم خطيباً وقال : ما قولكم أيها الناس لو رأى أمير المؤمنين رجلا وامرأة على فاحشة ؟ فقام على بن أبى طالب وأجابه بقوله : يأتى أمير المؤمنين بأربعة شهداء أو يجلد حد القاذف مائة جلدة فسكت عمر ولم يعمل شيئا .

إلى هذا الحد بلغ نظر المسلمين إلى هذه العقوبة ، فهى شكلية ردعية كما قلنا أكثر مما هى حقيقية .

وأما قطع اليد على السرقة ، فان الاصلاح الاجتماعى الذى أوجده النبى صلى الله عليه وسلم كان من أصوله أن يقوم المسلمون على مبدأ تعاونى محكم البناء ، ليس فى إحدى نواحيه ضعف . وقد سلك لذلك مسلكين : (أحدهما) أن يأخذ من رءوس الأموال نحو اثنين ونصف

فى المائة للفقراء ومن فى حكمهم ، وللأعمال العامة التى تعود عليهم بالخير واليسر ، فكان فى بيت المال رصيد خاص بذوى الحاجة ، ومن تدفع بهم الضرورة إلى الحدود القصوى ، وكانت الحكومة مسئولة عن وصول الحاجة ببعض الناس إلى هذه الحدود . و(ثانيهما) كان على كل فرد من أفراد المسلمين واجب حتم ، وهو العيش مع الجيران على حالة تكافل وتعاضد ، بحيث يرفد غنيهم فقيرهم ، والا كان عليه وزر المقصر المستأثر . فأكثر النبى صلى الله عليه وسلم من الايصاء بالجار حتى قال : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » . وقد جرى المسلمون على هذا الأصل حتى وصلوا إلى حدود يضرب بها الأمثال فى التعاون بين الفقراء والأغنياء غصت بها تواريخهم . فقد روى حجة الاسلام الغزالى أن رجلا كان عند عبد الله بن عباس وغلام له يذبح شاة . فقال ابن عباس: يا غلام لا تنس جارنا اليهودى، ثم عاد فكررها ثانية وثالثة . فقال له الرجل : كم تقول ذلك يا ابن عباس؟ فقال: والله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مازال يوصينا بالجار حتى ظننا أنه سيورثه .

انظر إلى هذا الأثر من ناحية أنه تشديد فى مراعاة حقوق الجوار، ولا تنس أن تنظر اليه من ناحية دلالته على مبلغ تسامح المسلمين مع الأجانب عن ملتهم ، حتى أنهم لم يفرقوا بين الناس كافة فى حقوق الجوار .

ففى نظام اجتماعى تعاونى من هذا الطراز ، حيث يسود التكافل والترافد ، ويمكن فيه استصراخ الحكومة المكلفة بدفع الحاجات

عن المعوزين ، كيف لا يعامل العابث بأموال الناس أقسى معاملة ، بل وكيف لا تقطع يده حتى يكف سواه عن مثل عمله الذى لا يقصد به الا محض الايذاء وإزعاج الأمن ؟ قال عليه الصلاة والسلام : «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

وكيف لا يجلد رجل تسمح له نفسه الشريرة أن يشرب الخمر حتى يفقد الرشد ، ثم يخرج إلى الشوارع والحارات يخيف الأطفال والنساء وربما ضربهم ؟ وكيف لا يجلد كذلك رجل يتهم أهل الاحصان بالفسق ، غير حاسب لما يبتنى على عمله هذا من حل روابط الأسر ، وهدم أركان البيوت ، ثم يعجز عن الاتيان بأربعة شهداء عدول يعززون بشهادتهم ما يقول ؟

والذين يفسدون فى الأرض باضرام نيران الفتن ، وقلب النظم ، وإزعاج الأمن ، كيف لا تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ؟ .

هنا انظر لرحمة الشارع ، فقد قدم قطع اليد والرجل استفظاعا لهذه الجنايات التى تضيع فيها أرواح بريئة ، ثم فتح للحكومة باب الرحمة فخيرها بين هذه العقوبة والنفى .

نعود إلى الجلد فنقول : ليس فى هذه العقوبة ما يؤاخذ عليه ، فهى معمول بها فى انجلترة وغيرها ، وفى السجون المصرية أيضاً .

ولا بد لنا من التنويه هنا بحال الشهود ، فان القضاء الاسلامى لا يقبل ، وبخاصة فى الحدود ، شهادة شهود يجمعهم المتقاضون من هنا وهناك ، فيشترط فيهم أن يكونوا من أهل العدالة . وأن يشهد

شهود آخرون بأنهم أهل للشهادة . وفى الحادثة الآتية علم بما يجب أن يكون الشاهد عليه فى الاسلام من الصفات، وبما كان عليه هذا الأمر عند أسلافنا الأولين من الخطورة : أدخل رجل على عمر بن الخطاب فى عهد خلافتـه ليشهد فى قضية ، فطلب منـه أن يحضر له من يشهد بأنه عدل ، ففعل . فلما مثل شاهده بين يديه قال له الخليفة : أتعرف فلانا حق المعرفة ؟ فقال الرجل نعم يا أمير المؤمنين ، فقال له أأنت جاره صباح مساء لتعرف مدخله ومخرجه ؟ فقال الشاهد : لا ، فسأله عمر أعاملته بالدرهم والدينار الذى يستبين به ورع الرجل ؟ فقال المزكى لا . فقال له الفاروق : أصاحبته فى السفر الذى يتضح فيه ما هو عليه من مكارم الأخلاق ؟ فقال له الرجل : لا ، فقال له عمر: لعلك رأيته قائما يصلى فى المسجد يهمهم بالقرآن ؟ فقال الشاهد : إى والله يا أمير المؤمنين . فقال له عمر : اذهب فلست تعرفه .

فالمسلمون الذين قاموا على هذه النظم المحكمة قد تأدوا فى عشرات من السنين الى الحصول على زعامة العالم كافة فى العلوم والفنون والسياسة ، ومدوا ملكهم الى بقاع لم يظلها علم غير علمهم الى اليوم . فاختر لنفسك الآن ما يحلو : أتود أن يكون لأمتك ملك لم ينبغ لأمة قبلها ، وزعامة العالم فى العلم والسياسة وفيها هذه الحدود ، أم تؤثر أن لا يكون لأمتك شأن يذكر بين الأمم ، ولا تكون فى قوانينها مثل هذه العقوبات ؟

حكم الآيات المتشابهة فى القرآن

آخر مطلب للأوساط من مطالبهم التى جمعناها وتكلمنا فيها ، هو أن

يكون الدين لينا سائغا ليس فيه ما يحتاج لتأويل ، ولا ما يستعصى على التعليل .

هذا مطلب لا ينال من دين يصل بين الناس وبين العالم الروحانى المشحون بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، عالم الحقائق الأوليـة ، عالم الأصول الخالدة ، عالم القوى العلوية ، عالم الاطلاق المحض ، فاذا قارنت بين مدركات عقلك وبين حقائق هذا العالم ، تحققت أن إيتـاءك بقليل من العلم عن شئونه يعوزه الشىء الكثير من التكلف والمحاولات ، ومن صرف الالفاظ عن ظواهر مدلولاتها ، ومن تشبيه أمر بأمر لم يمت اليه بصلة ، ولا هو من جنسه مادة ووجودا .

أرأيت لو عهد اليك أن تعبر عن النور لمكفوف البصر ، فماذا كنت فاعلا غير الحوم حول الموضوع بما يدركه صاحبك بحواسه الأخرى ، والنسبة بين مدركاتها والمدركات البصرية منقطعة ، فتضطر للتشبيه البعيد ، وللقياس مع الفارق ، ولجميع العلل التى يأخذها المناطقة على أهل التعبير . فاذا نظرت الى ماقلت وما قررت ، رأيت أنك قدأتيت بعبارات تحتمل الخوض فيها ، وتصل بالخائض الى كل غاية الا الغاية التى رميت اليها .

هذا إذا عهد اليك هذا الأمر لمكفوف من درجتك العقلية ، فما ظنك لو كان من طبقة العامة الذين لا يدركون الفروق بين مدلولات الالفاظ ، ولا الحدود بين مؤديات المعانى ، ولا الاطلاق والتقييد ، ولا اللازم والملزوم ، الى غير ذلك من ضروريات التعبير ؟

ألا تعلم أن الناس سوادهم الأعظم عوام ، وأن هؤلاء مادة الأمم

وأساسها البعيدالغور ، وأن الدين أكثر مايتوجه اليهم بالمواعظ ، وأشد ما يتوعدهم بالمثلات ، وأكبر ما يهيجهم الى طلب المجد ، ويثيرهم الى قلب النظم ، فهو من هذه الناحية فى حاجة الى أن يفتح لهم الى عالم الملكوت يطلون منها على خيال مما فيه من قوى الحكم والتقدير ، وشئون التكوين والتدبير ، ونافذة أخرى الى عالم الحياة الخالدة يشرفون منها على طيف مما ينتظر الناس فى تلك الدار ، من ثواب على فضيلة ، أو جزاء على رذيلة ، فهل تريد أن يكون ذلك الكشف لهم على ما عليه حقيقة الحال ، وأقوى العقول وأرقاها لاتستطيع أن تتطاول اليها ، فاظنك بالدهماء ومنهم الذى لايدرك ما فوق مأكله ومشربه ، منهم الذى إن رأى غير مايعقله نفر منه وازدرى بالقائلين به ؟ قال عليه الصلاة والسلام :
« خاطبوا الناس بما يعقلون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ »

فالدين أحوج المعقولات البشرية الى استخدام المجازات والكنايات والتشبيهات البعيدة . والقياسات مع أكبر الفوارق ، وأشدها شيوعا .

إلا أن الاسلام ، وهو الدين العام الخالد ، قد وضع لهذا الأمر نظاما ، وحد للعقل فيه حدوداً ، فلم يغمط الدين حقه فى استعمال الألفاظ الموضوعة لتلك الشئون العلوية ، ولم يكاف العقل أن يسير أسير هذه التعبيرات البعيدة عن مؤدياتها كل البعد ، فيجعلها لنفسه عقيدة صورية إن سلم بها الناس فى جيل شذ عنها أبناؤهم فى جيل آخر ، فقرر هذا الأصل الأصيل وهو : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم

زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب » .

ومعنى هذا أن فى القرآن آيات محكمات الوضع،واضحات المعانى، لا يستعصى فهمهن على إنسان ، ولا يحتجن إلى صرف ألفاظهن عن ظواهرها،هن أصل الكتاب وأسسه ، وعليهن يقوم صرح هذا الدين فى المعتقدات والعبادات والمعاملات ، وفيه غير هذه آيات متشابهات أى محتملات لمعان كثيرة لا تتضح مقاصدها لكونها مجملة أو غير موافقة للظاهر ، فهذه فى حاجة إلى تأويل ، وهو لا يوصل إلى علم صحيح للعلة التى ذكرناها آنفاً . فأما الذين أشربت قلوبهم الضلالة فيتعللون بظاهر ألفاظها ، أو يتناولونها بتأويل باطل ،طلباً لفتنة الناس بالتشكيك أو رجاء أن يؤولوه على ماتشتهي أهواؤهم، والحال أنه لا يعلم تأويله إلا الله، وأما المتمكنون من العلم فيقولون آمنا بالكتاب كله ، محكمه ومتشابهه ، وما يتذكر الضرورة التى تقضى بهذه المحاولات إلا أصحاب العقول .

فالاسلام بهذه الآية قرر بنص لا يحتمل التأويل ، أنه لا يطالب الناس إلا بما أتى به محكم الوضع ، جلى المعانى ، لاتعترك فيه العقول ، ولا تحار فى كنهه الأفهام . وأما ما لا يدركه العقل ، وما تقصر عن بيانه الألفاظ ،وماتذهب المدارك فيه كل مذهب ، فالناس غير مطالبين به . وزاد على ذلك فقرر أنه لا يحاول تأويل تلك الآيات إلا أهل الزيغ ، فانها تتعالى حتى عن التأويل .

فهل معنى هذا أنه حرم التأويل على وجه الاطلاق ؟

لا، فانه قد يكون حتما لا مناص منه متى تعارض نصان من الكتاب، ومتى تعارض نص من الكتاب وعلم صحيح، فمثاله من الأول قوله تعالى: «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»، وقوله: «يد الله فوق أيديهم» وقوله: «كل شيء هالك إلا وجهه» وقوله: «واصنع الفلك بأعيننا ووحينا» فالآية الأولى تنص على أنه ليس كمثله شيء نصاً لا يحتمل تأويلا، والآيات الأخر يدل ظاهرها على أن له وجهاً ويداً وعيناً، وهو مالا يثلج عليه الصدر، ولا يتفق وحكم العقل، وقد قضت به محسنات التعبير ليس إلا، فهذه يصار فيها الى التاويل. وقد جرى على ذلك جميع المسلمين إلا طائفة لا يعتد بها دعيت بالمشبهة. والاسلام يطلق الحرية لكل عاقل، ولا يسد الطريق فى وجه باحث.

وأما النوع الثانى وهو أن يتعارض ظاهر النص مع حكم العقل والعلم، فهو أجل أصل أتى به هذا الدين، وأمتع وقاية تحميه شر الجمود الذى وقع فيه أهل الأديان كافة، وله أكبر الأثر فى بقائه ديناً عاماً خالداً، والا طغت عليه تيارات العلوم، وتمردت عليه قويات العقول، فوقفته عند حد، وسارت قدماً تكشف المجاهيل، وتقرر المعاليم، حرة طليقة لا يقيدها شيء، تاركة الدين قاصراً على مبان أقيمت له، فيها رجال لا تعدهم منها فى شيء إلى أن يعصف عاصف جديد من انقلاب وشيك، فلا يبقى من آثار الدين شيئاً.

ولكن من أية الجهات تستطيع العلوم أن تطغى على الاسلام، ومن أية النواحى تثور العقول عليه؟ أمن مثل قول الكتاب: «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين»، وقوله:

« والأرض بعد ذلك دحاها » أى بسطها ، وقوله : « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » ، وقوله : « سبع سموات طباقا » الخ الخ ؟ كل هذه الآيات تتناولها القاعدة الأصـــولية التى انفرد بها هذا الدين ، وهى : أنه لو تعارض نص وعقل أو علم صحيح ، أول النص وأخذ بحكم العقل أو العلم. وقد أول آباؤنا من هذه الآيات ما خالف عقولهم أو ناقض العلم الصحيح . ونحن نجرى على سننهم فنؤول ما يخالف عقولنا منها .

جرى المسلمون الأولون على هذا السمت ، فكان تطورهم العلمى بعدهم بالمعلومات، وعلماؤهم يؤولون لهم الآيات ، حتى تآخى العلم والدين وسارا كفرسى رهان لا يسبق أحدهما الآخر . فلم ينقسم الناس إلى فريقين ، فريق للدين يقل كل يوم عدداً ، وفريق للمدنيـة يزداد كل يوم مدداً ، ولـكن كانوا فى وحدة لا انفصـام لها . فبلغـوا إلى ما لم تبلغه أمة قبلهم من بسطتى الدنيا والدين .

حظ العامة من الاسلام

العامة وإن كانوا أكثر الطبقات عديدا ، إلا أنهم لا يستطيعون أن يستقلوا بنظر ، ولا أن يؤتمنوا على تفكير ، لذلك كانوا فى كل ملة وفى ملتنا هذه أتباعاً للخاصة من العلماء العاملين ، والأوساط المفكرين ، فهم لا يقتضون من بحثنا أكثر من هـذه السطور . وكل مالهم فى أعناقنا من الحقوق أن نحسن تعليمهم ، ونعمل على نقلهم عما هم فيه إلى ما فوق درجتهم من الدرجات ، فان الاسـلام لم يقسم النـاس إلى طبقات ، ولـكنه جعل معارج الترقى شائعة بين كل المستعدين للعروج

عليها ، فارتقى إلى أرفع مقاوم العلم والفلسفة أفراد من العامة ، فأصبحوا لملوكهم أئمة ، ولم يستثن الاسلام حتى العبيد السود ، فكان منهم علماء أعلام ، ووزراء عظام ، بل وملوك فخام .

فى المقالة التالية ننظر فى حظ العالمين كلهم على اختلافهم أديانهم ونحلهم من هذا الدين ، فهل أصابهم منه شر مستطير ، وبلاء كبير ، كما يحدث من آثار كل انقلاب اجتماعى خطير فى بقعة من بقاع الأرض ، أم نالهم خير عظيم وانتقال كريم ، كما هو شأن كل انقلاب شريف الغايات والمقاصد فى الأرض ؟

أثر الاسلام فى العالم كافة

ماذا كان عليه العالم على عهد بعثة النبى صلى الله عليه وسلم

لا مشاحة فى أن كل انقلاب اجتماعى يحدث فى أمة من الأمم لا تقتصر آثاره عليها ، فكما يفضى فيها إلى زوال عهد قديم بما كان عليه من دين وتقاليد وموروثات وأسر مقدسة وبيوتات شريفة ، كذلك يفضى فى مجاوراتها من الأمم إلى سقوط بعضها وفناء البعض الآخر فى جثمانها ، وتمتد الصدمة التى يحدثها إلى أبعد مما يتخيله الراؤون ، حتى قد يعم الأمم كلها على نسب مختلفة .

فلا يصح أن ينظر والحالة هذه إلى ما أدى اليه الانقلاب من حوادث جسام فحسب ، ولكن إلى الروح العام الذى أوجده فى العالم هل هو روح شغب واضطراب وتدهور ، أم روح نظام وطمأنينة وترق ؟

فلننظر الآن فى نتائج الانقلاب الذى أحدثه الاسلام وما أصاب العالم منه ، وفى الروح العام الذى أوجده فى الأرض ، ولا سبيل لنا إلى

ذلك الا بعد معرفة ما كان عليه العالم على عهده ودعى هو للتأثير فيه . وقد رأينا أن ندع الكلام فى هذا الموطن لمستشرق عليم من الأجانب ، قام بهذا الأمر خير قيام ، فى مقدمة فهرست وضعه لآيات القرآن باللغة الفرنسية هو المسيو (جول لابوم) قال ما ترجمته الحرفية :

« لأجل أن يفهم الانسان تمام الفهم أى دعوة من الدعوات ، يلزمه أولا الالمام بحال الداعى فى ذاته ، ولأجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التى وجه همته للتأثير فيها ، هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التى خصصنا بها المشترع العربى مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الاسلامية .

« حوالى ميلاد محمد فى القرن السادس الميلادى كان جو العالم ملبداً بغيوم الاضطرابات والفتن . فكان شعب (الويزيغو) الآريين فى أسبانيا وفرنسا الجنوبية يصاولون الملك (كلوفيس) وأولاده الكاثوليكيين . فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة أمبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو (جوستنيان) ، ثم أجبروا الى الدخول معه فى حرب جديدة ، تخلصا من سلطة القواد الذين جاءوهم بتلك المساعدة . فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين ، لا مجرد ولاء المساعدين المنجدين .

« أما فى فرنسا نفسها فكان أولاد كلوفيس هذا متغادرين متسافكين . كانت الحروب التى شبت بين الملكة الويزيغوتيه (برنهو) والملكة الفرنكية (فريديجوند) تهيئ للتاريخ أشد الصحائف إثارة للأسى والكمد .

« أما فى انجلترة فكان الانجلو ينازعون الساكسونيين الأرض التى احتلوها واستعبدوا فيها ذرية (كيمبريس) وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة التى تتطلع اليوم للوقوف فى مقدمة الأمم علما وصناعة وقوة ، وهى التى كانت فى ذلك العهد مجالا للقوة الوحشية السائدة فى تلك الغياهب الحالكة

« أما فى إيطاليا فكان اسم الرومان ، وهو ذلك الاسم الشامخ ، قد فقد قيمته القديمة ، وكانت رومية وهى الشظية الأخيرة ، أو رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم ، (يعنى مملكة الرومان) ، فى حالة تململها من استحالة أمرها الى مركز دينى بسيط ترتج وتضطرب كلما ألم بها طائف من ذكرعظمتها القديمة أيام كانت مركزا دينيا أصليا ، فكانت تهيىء نفسها لأن تكون مركز البابوية ، وهى تلك السلطة الزمنية ، كما اقتضت سياسة (شرلمانى) أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان . ولكنها مع ذلك لم يسعها إلا حمل نير (الهيروليين) و (الاستروغوتيين) وبراطرة المملكة الرومانية واللومبارديين الذين تداولوا السلطة عليها تداولا ،

« أما المملكة اليونانية فكانت قد نسيت مجدها القديم ، فصارت تابعة لمملكة الرومانيين الشرقية ، مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء . وكان شرق أوروبا مقلقاً جنوبها من أول مصاب نهر الرين من جهة الشرق . فكان الاسكندينافيون والنورفيجيون والدانماركيون يتزاحمون فى الطريق الذى سلكه الغوتيون والهونيون الذين احتلوا تراقيا ومقدونيا ولومبارديا وايطاليا

سواء بالقوة أو بالخديعة .

« فى ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى ، وهى تلك الأمة التى قصرت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية ،

« التصوير البديع الذى جادت به قريحة المسيو رينان لبيان مركز الامبراطورية الرومانية فى القرن الأول من التاريخ المسيحى لاعلاقة له بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوربا فى القرن السادس . تلك كانت مفاسد قيصرية مختمرة ، أما هذه فوحشية حربية تلعب بالأرواح وتتمرغ فى الأوحال .

« أما آسيا فلم تكن أهدأ بالا من أوربا فى شىء ، فمملكة تيبت والهند التى اقتبست منها الأمم السائدة فى أوربا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها ، والصين التى تعد مسألتها أغرب المسائل السياسية والفلسفية ، وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية . كانت هذه الممالك كلها متمزقة الأحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

« أما السفح الشمالى من الهضبة الأسيوية العالية التى هى فى حوزة الروسيا الآن فكانت غير معروفة على الاطلاق .

« أما مملكة الفرس التى كانت أحوالها مرتبطة بأحوال الغرب ، وبخاصة من لدن تجريدة الاسكندر المقدونى ، فكانت مشتبكة فى حرب مع اليونان الرومانيين فى القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية .

« أما فى أفريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم ، وهم أخلاط من جنود وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلفة ، دائبين على امتصاص دم مصر ، وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجثة المصبرة عادمة الحس والحراك . وكان هذا شأنهم أيضا فى الأقاليم الخصبة وقتئذ الواقعة فى الجهات الشمالية من أفريقيا التى انتزعوها من أيدى الفنداليين .

« الخلاصة كان جو العالم الأرضى متلبداً بسحب الاضطرابات الوحشية فى كل مكان ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير . وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة فى إصلاء نيران الحروب والمعارك ، ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ، ولا يؤثر عليها تأثيراً حاداً ، وإن كان وقتيا ، الاشىء واحد ، هو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين وبسطاء المتسولين ، ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق فى بعض صوامع الكهنة ، وبعض الجرائيم الفلسفية التى كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب ، وانتقلت من روح الى روح أخرى بوساطة بعض أصحاب الجرأة من رسل الرقى فى المستقبل ، لكانت البربرية أسرعت فى خطاها مقودة بغطرسة زعماء البهيمية ، واستحالت الى وحشية محضة .

« مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الأرض لم تصبه لفحة من هذه الحركة ، ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ؛ وإنما كان بسبب موقعهم الجغرافى البعيد عن مضطرب الأمم التى

كان يقال إنها متمدنة . ذالك الركن هو شبه جزيرة العرب التى ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة فى أوروبا إلا من بعد ، وما كان يصلها ذلك اللغط إلا غاية فى الضعف والضئولة ، وكانت تجهل وجود الهند والصين ، فلم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس إلا من أخبار الانتصارات والهزائم التى كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سورية الى تبعية براطرة القسطنطينية تبعية اسمية ، أو رفع نير تلك التبعية الاسمية عنها . على أن ذلك الوادى الأخير كان يهم بلاد العرب جدا ، لأن أبناءها كانوا يذهبون إليه للتجارة ، وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطىء الغربى من نهر الفرات وصعدوا يسيرا يسيرا الى بحر قزوين . ومما يشبه المساتير الدينية أنها بقيت منفصلة عن مصر التى أغار على جنوبها العرب الرعاة ، ولم ينجلوا عنها تماما إلا بعد أن انجلى عنها بعض إخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى ، حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم .

« أما المملكة الوحيدة التى كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة ، فهى بلاد الحبشة . أما الجهة الشمالية من أفريقيا التى أغاروا عليها مرتين والتى كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجنيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين ، فكانوا لايحلمون بوجودها » .

ثم قال : المسيو كوسان دو برسوفال فى كتابة تاريخ العرب :

« إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين، أما المتبدون منهم فكانوا فى الواقع أحرارا لا سلطة لأحد عليهم،

وكان عرب سورية دائنين للرومان . أما قبـــائل العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة ، وهم ملوك بنى حمير ، سيادة وقتية فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ، ولكنها فى الواقع كانت متمتعة بالاستقلال الكامل .

ثم تابع المسيو جول لابوم القول فقال : « ولم يكن العرب أحسن استعدادا من غيرهم لقبول أى دين من الأديان . قال المسيو (دوزى) فى كتابه تاريخ عرب أسبانيا : « كان يوجد على عهد محمد فى بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية والعيسوية والوثنية . فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكا بدينهم ، وأكثرهم حقدا على مخالفى ملتهم . نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينيـة فى تاريخ العرب الأقدمين ، ولكن ما وجد منه فمنسوب الى اليهود وحدهم ، أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون ، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية ، وكانت هذه الديانة تحتوى على كثير من الخوارق والأسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسى كثير الاستهزاء . أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة فكان لكل قبيلة بل وأسرة منهم آلهة خاصة . والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ، ويعتبرون تلك الآلهة شفعاء فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام ، ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان إذا لم يتحقق إخبارهم بالمغيبات أو لو عولوا على فضحهم عند الاصنام ن قربوا لها ظبية بعد أن ندروا لها نعجة وكانوا يسبون أصنامهم إذا لم تنلهم مطالبهم ولم تسعفهم بآمالهم » .

وقال المسيو كوسان دوبرسوفال : «من العرب من كانوا يعبدون الكواكب وبخاصة الشمس . فكنانة كانت تدين للقمر وللدبران ، وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشترى ، وكان الأطفال من بنى عقد يدينون لعطارد ، وبنو طيء ألهوا سهيلا . وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعرى اليمانية ، وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة آرائهم الدينية .

«وقال المسيو كوسان المذكور أيضاً: » كان من العرب من يعتقد بفناء الانسان إذا خلعته المنون من هذا العالم ، ومنهم من كان يعتقد بالنشور فى حياة بعد هذه الحياة . فكان هؤلاء الأخيرون إذا مات حد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة ، أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعا، معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بصورة طير يسمونه الهامة أو الصدى، وهو نوع من البوم لا تبرح ترفرف بجانب قبر الميت نائحة ساجعة ، تأتيه بأخبار أولاده، فاذا كان الفقيد قتيلا تصيح صداه قائلة (اسقونى) ، ولا تزال تردد هذه الكلمة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه .

قال المسيو لابوم بعد إيراده هاتين العبارتين عن الأستاذين المذكورين : « وكانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب يكادون لا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع ، لو لم تكن الأسرة عندهم بل والقبيلة (وهى نقطة تلفت النظر) تهتم اهتماماً عظيماً بحفظ سلسلة نسبها ، ولو لم يكن، (وهو أمر أغرب من سابقه) إدراكهم للقوانين وسعة لغتهم داعياً إلى الالتفات بنوع خاص .

ثم قال : « قال المؤلف المحقق الذى اقتبسنا منه أكثر هـذه التفصيلات المتقدمة . « كان العرب مغرمين بشرب الخمر ، ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم كانوا يفخرون ويعجبون به ويلعب الميسر . وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج ما تسمح له به وسائله المعيشية ، وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه ، وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها . ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب . وقد حرم ذلك الاسلام وعده زواجاً عقوتا . وكان لديهم عادة أفظع من كل ما مر وأشد معارضة للطبيعة وهى وأد الأهل لبناتهم أى دفنهم أحياء » .

« هذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن فيهم أى جرثومة خلقية صالحة ، يمكن تقويمها وتهذيبها ، فقد كانوا يحبون الحرية حباً جماً ، ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى »

« الأفراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية ، والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب ، كانوا قليلى العدد جداً ، ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم الدعوة إلى مللهم ، فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثرة على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين ، لا يرى منهم إلى اليوم خاصية التأثير على غيرهم إلا بالخضوع لقوانين الأمة التى يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية . ولئن شوهد أنهم أدخلوا إلى ملتهم بعض العرب ، فلم يك ذلك إلا نتيجة بسيطة لاشتراكهم فى الأساطير التاريخية ، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين . تلك القرابة يستدل عليها أيضاً بتساويهم فى حب الكسب ، وتآزيهم

فى الاستعداد لعدم الأنفة من سلوك أى طريق من الحيل والمكر لنيل كسب أو حطام. ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترق أدبى. أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئاً فشيئا إلى بلاد العرب هرباً من الاضطهادات الدينية التى كانت فى المملكة الرومانية، ولكن لم يكن فى حالهم نور يلفت البصر تألقه، وفى حالة مسيحى الحبشة اليوم نموذج لذلك، فانه لا يمكن أن يتحلى الانسان بمدركات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد.

« فى عهد هذه الأحوال الحالكة، وفى وسط هذا الجيل الشديد الوطأة، ولد محمد بن عبد الله فى ٢٩ أغسطس سنة (٥٧٠). » انتهى.

تعليقات عن هذه الفذلكة التاريخية

رأى القارئون من الفذلكة التى عملها المستشرق المسيو جول لابوم فيما كان عليه العالم على عهد ميلاد محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، أنه كان فى حاجة ماسة إلى صيحة من صيحات الحق المعهود فى بعض أدوار الانقلابات البشرية، تنبه الغافلين وتوقظ النائمين، ثم تهيب بهم إلى النظر فى أنفسهم، والتفكير فى مصيرهم، والعمل على امتلاخ وجودهم من أيدى اللاعبين بهم، والمقامرين بحياتهم، وإلى قارعة من قوارع القهر ترد عادية زعمائهم وتكبح كلب قاداتهم، وإلى قبس ساطع من نور الحكمة يكشف الحجب المسدولة على أعين الناس، والغلف المضروبة على قلوبهم، لكى يربئوا بأنفسهم أن يعيشوا أغناما ويموتوا أغناما.

نعم وهذا هو الذى كان، فبعث الله خاتم النبيين إلى شعب يجهل

وجود نفسه فضلا عن وجود غيره ، ولا يحدث نفسه بنهوض فضلا عن أن يفضى به إلى سواه . شعب كان قد نضبت حيويته حتى صارت لا تنجب بعض ما تنجبه الأمم من قائم بدعوة أو مهيب إلى حياة ، وما هى الا سنوات تعد على أصابع اليد حتى رأينا ذلك الشعب الذى كان جامدا بالأمس يتطلب لقاء أكبر دولة فى الأرض، وهم الرومانيون، فاصطدم بجيوشهم فى سورية فسحقها بكتائبها المدربة ، وحطم معاقلها المشيدة ، واجتاز حوائلها الممنعة ، وقذف بها إلى ما بعد حدود تلك البلاد ، وأجبرها على إعطاء الدنية ، والصبر على هون ، والرضاء من الغنيمة بالاياب .

وفى الوقت نفسه انقضت على فارس ، وهى تلك الدولة القديمة التى كانت تمثل كل ما كان فى الشرق من خيلاء الحكم المطلق ، وغلواء الأصول الرجعية ، وما هى إلا صدمة صادقة حتى تداعى صرحها المشمخر ، وأصبحت فى ذمة التاريخ .

كل هذا فى أقل من عقدين من السنين ، فكان أثره كالصاعقة انقضت على أكداس من العهن المنفوش ، فلا تسل عما استتبع ذلك من الدوى الهائل فى أمم لم تعتد مثل هذه الصدمات ، ولم تكن تحلم بأن فى العالم قوة تستطيع أن تحدث فيها هذه الرجة التى زلزلت الأرض زلزالا . ثم ما هى إلا عشرات من السنين حتى اندفعت تلك العصبة إلى أوربا ، لا لتستغل الضعفاء ، وتتضخم بامتصاص حياتهم، كما كانت الأمم اعتادت ذلك من الفاتحين الأولين ، بل ومن أصحاب المطامع من أبناء جنسهم ، ولكن لتخرجهم من الظلمات إلى

النور بفتح دور العلم ، وقبول الكافة فيها غير ناظرة لأديانها ونحلها ، فكانت كالشمس تشع على العالم نوراً ساطعاً، وحرارة محيية . فجمعت ما وجدته من تراث العقول معطلا فى بطون الكتب ، فنقلته إلى لغتها،وشرعت تزيده من جهود علمائها ، وبحوث فلاسفتها مطبقة إياها على العمل ، حتى أصبحت بيئة العلم ، ومعدن الصنائع والفنون ، يعشو الأوربيون إلى نارها ، ويستضيئون بنورها .

وكان إخوانهم فى الشرق قد سلكوا من ناحيتهم هذا الطريق نفسه ، فأصبحت هذه العصابة الاسلامية بقسميها مفزعا لكل متعطش لعلم، ومستهد إلى حق، ومتطلب لثقافة، فانتقل العالم كله تحت ظلها الظليل من الجمود الذى كان فيه ، والهون الذى كان عليه ، والغيبوبة التى كانت ألمت به ، إلى حياة جديدة ، ونشاط لم يكن للناس من قبل .

وبعد أن كانت الأمم لاتنتظر الا كسفا من الظلمات ، وتارات من الغارات ، أصبحت تتطلب من ناحية هذين المركزين نورا يهديها إلى الطريق ، ويسوقها إلى العمل .

وما زالت تدب الحياة فى أشباحها المصبرة،حتى تألفت منها عصابة تقوم بأمره ، فتصدى لها أنصار القديم يسومون آحادها الخسف،ويصبون عليهم أسواط العذاب،ويزهقون أرواحهم لا لشىء غير أنهم يتطلبون النور والحياة،حتى تم لهم الغلب فى القرن السادس عشر ، دهر طويل قضوه فى الكفاح والمجالدة ، ولكنهم ما كانوا يستطيعون أن يرفعوا كل ما ألقى على عقولهم من السدف ، وعلى نفوسهم من الكسف ، قبل مرور هذا الزمن . وكان المسلمون هم الدافعين لهم إلى هذه الحركة

قال العلامة (دريبر) المدرس بجامعة نيويورك فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين):

«سلك علم العرب إلى أوروبا المسلك نفسه الذى سلكته أدياتهم إليها، وذلك أنه انهمر عليها من طريقين: جنوب فرنسا من جهة الأندلس، وطريق جزيرة صقلية (سيلسيا). ومما ساعد على انتشاره فى أوروبا اعتزال البابوات فى مدينة (أفينيون)، والتفرق العظيم الذى كان موجوداً فى المسيحية إذ ذاك، فلهذا السبب تمكن العلم العربى من ترسيخ قدميه فى جنوب إيطاليا.

ثم قال: «وبرسوخ قدمى العلم فى جنوب إيطاليا، امتد رواق سلطانه على جميع البلاد الايطالية، وساعد على انتشاره وتكثير أنصاره هنالك زيادة عدد الجمعيات العلمية. وكان ذلك على مثال ما وجد فى غرناطة وقرطبة تحت سلطان العرب». انتهى

ولم تزل مستكشفات العرب تدخل إلى أوروبا حتى القرن الثامن عشر، وتصادف مقاومة عنيفة.

قال العلامة دريبر المتقدم ذكره فى صفحة ٢٣٠ من كتابه:

«إن عمل التطعيم (فى النباتات) الذى اكتشفه المسلمون حمل إلى أوروبا سنة ١٧٢١ من طريق استامبول، فصادف فى انجلترة مقاومة عنيفة من رجال الدين لولا تدخل الأسرة المالكة»

وقال العلامة (سديو) أحد وزراء فرنسا فى كتابه تاريخ العرب:

«كان المسلمون فى القرون الوسطى متفردين فى العلم والفلسفة والفنون، وقد نشروها أينما حلت أقدامهم وتسربت عنهم إلى أوروبا

فكانوا هم سبباً لنهضتها وارتقائها »

ولم يكتف المسلمون بأن يكونوا معلمين للاوربيين ، وملقنين لهم النهوض والمدنية ، ولكنهم أسسوا فى بلادهم جامعات ، وأقاموا مراصد ، باعتبار أنها كانت تحت سلطانهم ، فبقيت لأهلها بعد جلائهم ، وأثمرت ثمراتها اليانعة لهم ، فقد قال العلامة (دريبر) فى كتابه عند ذكر المدارس الطبية عند العرب :

« وأول مدرسة أنشئت للطب فى أوروبا (أوروبا من أقصاها إلى أقصاها) هى المدرسة التى أسسها العرب فى بالرم من إيطاليا ، وأول مرصد أقيم فيها هو ما أقامه المسلمون فى أشبيلية باسبانيا . ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فانهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا ، وأوجدوا علوماً أخرى لم تكن موجودة من قبلهم » . انتهى

هنا قد يستغرب بعض القارئين هذا الأمر ويقولون : إذا كان العرب هم أول من أسسوا المدارس الطبية ، وأقاموا المراصد فى أوربا ، فكيف كان شأنها على عهدهم ، وعلى أية حالة كان أهلها يعيشون ليمكن أن يعرف مبلغ ما أثمرته مدنية العرب فيهم ؟

نقول : نعم ، إننا نحدثك عن ذلك منقولا عن كتاب (المنازعة بين العلم والدين) للعلامة دريبر ، قال :

« إن أوروبا فى ذلك العهد كانت غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة ، وكانت المستنقعات قد كثرت حوالى المدائن ، كانت تنتشر عنها روائح قتالة ، اجتاحت الناس وأكلتهم ، ولا مغيث

لهم . وكانت البيوت فى باريز ولو ندرة تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن فيها نوافذ ولا ارضيات خشبية ، أما الأبسطة فكانت مجهولة لديهم ، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض نشرا . ولم يكونوا يعرفون المداخن، فكان الدخان يطوف البيت ثم يتسرب من ثقب صنعوه له من السقف . فكان الناس فى هذه البيوت معرضين لكل أنواع الاصابات الخطيرة . وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة فيلقون بأحشاء الحيوانات ، وأقذار المطابخ ، أمام بيوتهم أكواما أكواما تتصاعد منها روائح قاتلة ولا رقيب ولا حسيب وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة من رجال ونساء وأطفال، وكثيرا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية

«وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش، فوقه كيس من الصوف كمخدة . وكانت النظافة معدومة لديهم لا يعرفون لها رسما .

« وكان الغنى منهم لا يأكل اللحم إلا كل أسبوع مرة ، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح .

«هذه الجهالة كان من أثرها على أوربا أن عمتها الخرافات والأوهام، فانحصر التداوى فى زيادة الأماكن المقدسة ، ومات الطب وحييت حاييل الدجالين . وقد كان إذا دهم البلاد وباء فزع رجال الدين إلى الصلاة ولم يلتفتوا لأمر النظافة ، فكانت تفتك بهم الأوباء فتكا ذريعا ، حتى إنها زارت أوروبا عدة مرات فاجتاحت الملايين من أهلها فى أيام معدودة ، وقد كان الموت فى أوروبا فى هذه العصور بنسبة واحد إلى ثلاثة وعشرين ، فصار اليوم واحدا إلى أربعين » انتهى

ولأجل أن يرى قارئنا الفرق بين هذه الحياة الاجتماعية وبين حياة العرب فى بلادهم، نأتيك بطرف مما ذكره العلامة دريبر نفسه فى كتابه المذكور آنفا قال :

«لم تكن أوربا العصرية بأعلى ذوقا، ولا أرق مدنية، ولا ألطف رونقا، من عواصم الأندلس على عهد العرب، فقد كانت شوارعهم مضاءة بالأنوار، ومبلطة أجمل تبليط، والبيوت مفروشة بالبسط. وكانت تدفأ شتاء بالمواقد، وتهوى صيفا بالنسمات المعطرة بوساطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة زهراً. وكانت لهم حمامات ومكتبات ومحلات للغذاء وينابيع مياه عذبة. وكانت المدن والخلوات ملأى بالاحتفالات التى كانوا يرقصون فيها على آلات الطرب، وكانوا بدل النهم وإدمان السكر فى المآدب الليلية كجيرانهم الأوربيين، يحلون مآدبهم بالقناعة، فكانت الخمر محرمة عليهم، وكانت غاية لذاتهم البدنية تنحصر فى تمشيهم فى الليالى المقمرة فى حدائقهم البالغة حد الجمال، أو بجلوسهم حوالى أشجار البرتقال، يسمعون قصة مسلية، أو يتجادلون فى موضوع فلسفى، متعزين عن مصائب الدنيا وآلامها بقولهم إنها لو كانت بلا آلام وإصابات لنسوا حياتهم الآخرة، وكانوا يوفقون بين جهادهم فى هذه الحياة وبين آمالهم فى النعيم المقيم فى الآخرة» انتهى كلام دريبر.

هذا ما كان عليه العرب فى اسبانيا، فقدر بعد ذلك مبلغ ما أفاده العرب الأوربيين من نعمة العلوم والصنائع والفنون، وما ابتنى على ذلك ن هذه المدنية الساحرة.

ولا تسل عما أحدثته مدنية أوروبا فى كل الممالك المتصلة بها والبعيدة عنها ، وكل ذلك يرجع الفضل فيه إلى المسلمين ، فلولاهم لبقيت أوربا فى غيابتها الى اليوم ، ولم تنل منها أمم المعمورة ما نالته من التقدم والمدنية إما مباشرة أو بالواسطة .

فالعالمون كلهم مدينون لخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم بما هم عليه من حياة وقوة ، وبما فى نهضتهم من الروح المؤدى إلى التكمل والعمران والمدنية .

أليس هذا مصداقا لقوله تعالى : «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»؟

حظ الكون من الاسلام

لكل شىء حظ من الاسلام ، فالجمادات بحثه على إحياء مواتها ، والنباتات فى تحريضه على التأمل فى أنواعها، وفى الابداع المفاض على أجزائها، والحيوانات بأمره بالعناية بها ، والشعوب بحضه على احترام حقوقها قد نالت من هذا الدين حظوظا موفورة تضمن لها وجودها، وتسمح لها بالتطور فى حدودها ، فهل علمت أن الكون فى لا نهايته وعظمته لم يحرم نصيبه منه أيضاً ، فكان هذا الدين رحمة شاملة ، ونعمة على العوالم سابغة ؟

أى شىء أجل قدراً ، وأعظم أثرا، فى نفس المكبرين لشأن الكون، والمعتقدين بأنه مستقر جميع القوى ، ومستودع كل ما يتخيل من الخيور ، من أن يجعله الاسلام مفزعا للسالكين إلى الله ، يستهدون بمعالمه فى حيرتهم ، ويستأنسون بآياته فى تأملهم، ويسيرون على ضوء هدايته فى تطورهم ؟ ألم يقل كتابه فى ألوان شتى من البيان : « قل

انظروا ماذا فى السموات والأرض » ويقل : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، ويقل: «وفى الأرض آيات للموقنين» ، ويقل : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » ، ويقل :«وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين،ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون» ، ويقل: « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا » .

هذا ومن يتتبع ما ورد فى الكتاب من ذكر الآيات المودعة فى الحيوانات والنباتات الشاغلة لسطح الأرض، حتى ما حقر من حشراتها كالنحل والنمل والبعوض،وفى المياه والأنهار والسحب والرياح والجبال والوديان ، وفى كل ما يقع تحت الحس من أشياء الكون،حتى اختلاف الألوان واللغات ، وفى جعله النظر فى كل هذا طريقا للاتصال بالروح العام ، وجلب الطمأنينة إلى النفوس المتولهة إلى الدخول فى ملكوته، قلنا من يتتبع هذا كله فى الكتاب الكريم يتحقق أن هذا الدين يفتح باب الطبيعة على مصراعيه فى وجه ذويه ، ويدعوهم للتفكير فى جميع كائناتها ما جل منها وما حقر ، لا إرضاء لشهوة العقل،واستكمالا لحظ النفس من العلم فحسب ، ولكن للوصول إلى عالم النور المحض ، والعروج إلى مستوى الكمال الذى تتخيله النفس . ولا سبيل الى طمأنينتها المرجوة إلا بالوصول إليه . وهذا أسلوب لم يتوخه دين من قبل . لذلك

اندفع المسلمون وراء العلم اندفاعا لا هوادة فيه بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بست سنين كما يقول العلامة دريبر فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين)، وكما هو الواقع المحسوس . فجمعوا فى سنوات معدودة بين علوم الهند والفرس واليونان الأقدمين ، استخرجوها من مخابئها القصية ، بعد أن كان قد تركها أهلها واستناموا إلى حالة من الجهل والجمود ، هى التى جاء الاسلام فأنقذهم منها ، وفتح أمامهم باحات العلم الصحيح ، فكانت هذه الحركة داعية لقيام المدنية الحاضرة .

فتأمل فى حكمة هذا الدين كيف جعل العلم والحكمة سبباً للاشراقات الروحية ، وهما فى الواقع سببها المباشر ، فدفع بأهله لتطلبهما من السموات والأرض ، فكان لهم منهما نصيب موفور فى سنين معدودة .

انظر هذا وتذكر كم جر التأمل فى الكون ، والوقوف على بعض مساتيره من صنوف العذاب ، وشكول الاضطهاد على الأمم التى وقعت تحت سلطان حفظة الأديان ، فكان نصيب المفكرين الموت على أفظع ضروبه ، إما احتراقا بالنار أو غرقا فى اليم ، أو ترديا من شاهق ، أو التمزق كل ممزق .

ليس هذا كل ما فى هذا الباب ، فان الاسلام قد أكبر من شأن الوجود إلى حد أنه أقسم به وبكائناته فى غير موطن ، فقال : « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ولا هنا زائدة .

فانظر كيف أقسم بمواقع النجوم ، ثم أردف ذلك بقوله : وإنه لقسم (لو تعلمون) عظيم ، وهذا من أحسن ضروب الاشادة بذكر الأجرام

العلوية ومواقعها . والحث على رصدها وضبط معالمها . فان كل تال لهذه الآية يقول : ماذا عسى أن تكون مواقع النجوم التى يقسم بها الله ، ويكبر من شأنها إلى هذا الحد ؟ فتنساق العقول لرفع الستار عن هذا المستور ، لتدرك تلك العظمة التى ينوه الخالق نفسه بجلالتها هذا التنويه .

لم يكتف الاسلام بسرد ما تشاهده العين من كائنات الوجود ، وحفزه العقول لتنورها والتأمل فيها ، وتدارسها وتحصيل القرب من قيومها من ناحيتها ، ولكنه كاشف العقول بقوله : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » بأن فى الكون عوالم خفية لا تراها العين ، وأن هذه الكائنات جديرة بأن يقسم بها مبدعها فى هذا اللون من الاكبار ، وقد أوجزها فى آية تفعل فى العقول فعل السحر ، وما زال الناس يظنون أن مالا يبصرونه هو عالم الروح وما فيه من صنوف الكائنات العلوية ، حتى جاءت العلوم الحديثة فكشفت لنا أن فيما لا نبصره عالما من الأحياء لا عدد لآحاده يتحكم فى صحتنا ومرضنا ، ويتسلط على أجسامنا وعقولنا ، هو عالم الميكروبات التى يكشفها المجهر والميكروبات المتناهية فى الصغر ولا يستطيع كشفها ، وقوى هائلة يمكن أن يستخدمها الانسان فى أجل الأغراض وأسماها كالكهربائية والمغناطيسية ، وكالأشعة الكونية التى يعزى اليها الابداع والايجاد . وكالأشعة المعتمة المختلفة المحيطة بنا من كل مكان ، بين البنفسجية وما وراء البنفسجية ، وأشعة اكس ، وإشعاعات المواد الأرضية كلها وما ابتنى على نظرية التيارات الأثيرية من الاتصالات اللاسلكية

وغيرها ، مما تحققه التجارب فى الأيام المقبلة ، ويعتبر أكبر وأجل ما وصل إليه الانسان من مساتير الكون ، وأعظم موصل له الى سواه مما لا نحس بوجوده اليوم بحاسة من حواسنا .

فللكون كما ترى أجل نصيب من الاسلام . وفرق بين أن ينظر فيه الناظر توفية لشهوة عقلية ، وحباً فى كشف المساتير ، وبين أن ينظر فيه باعتبار أنه مستقر القوتين المادية والروحية ، وباب الوصول إلى الحضرتين الصورية والمعنوية ، ومتنزل الاشراقات القدسية ، مما لاغنى للنفس والعقل عن التطلع إليه ، وبذل قصارى الهمم فى الاتصال به .

نعم فرق شاسع بين هذين النظرين . وقد انفرد بالثانى المسلمون فتأدوا إلى بسطتى العلم والدين ، فكما كانوا أعلم علماء زمانهم بالكون المادى وكائناته ، كانوا كذلك أقرب الناس من ملكوت الله وأمتعهم بأنواره ، فلم تختلط المدنية لديهم بالملاذ البدنية ، والاباحات الخلقية إلى حد أنها تهدد بالزوال والارتكاس الى الوحشية كما هى اليوم .

وهل يتخيل علم أجل أثراً ، وأينع ثمراً ، من علم يؤديك الى كمال الحياتين ، وغاية السعادتين ؟ لا شك فى أن هذا الأسلوب القرآنى قد اتبع اليوم فعلا ، فصارت نظريات الذين يتصدون لدراسة الكون ذات ناحيتين مادية وروحية ، فلا شىء يمنع بعد اليوم أن يصل إلى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الترقيات المادية والروحية ، ولا ريب فى أن القرآن هو أول من دعا الى ذلك ، مصداقا لقوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ،

خط الدفاع الاخير

لقد أقمنا فى مقالاتنا السابقة الأدلة القاطعة على أن الاسلام دين عام خالد . وأن الرسول الذى جاء به هو خاتم المرسلين ، وأن ما أتى به هو خاتمه الوحى الالهى للبشر كافة، فكان جملة ما كتبناه كخطوط دفاع عن هذه الحقائق لا يمكن اقتحامها مهما تذرع الخصم لذلك بالشبهات والأضاليل ، ولكنا رأينا ، ولم يبق علينا إلا الخاتمة ، أن ننشىء خطا دفاعيا وراء جميع هذه الخطوط ، نقتبسه كله من القرآن الكريم ، هو أقوى وأمنع منها مجتمعة ، لما فيه من روعة الكلام الالهى وسلطانه على العقول ، فنقول : قال الله تعالى :

قل يأيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت . فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون .

وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم وإن تكفروا فان لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

وما أرسلناك الا رحمة للعالمين .

فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين .

يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل

لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير .

يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما .

« ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون .

هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين .

قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .

يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين .

وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء .

قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ، ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين .

ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد .

هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب

وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب .

لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .

قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم (أى لا محاجة ولا خصومة) ، الله يجمع بيننا وإليه المصير .

إن الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب . فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فان أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد .

أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرهاً وإليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .

فتوكل على الله إنك على الحق المبين . إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون .

فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون .

إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء .

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا.

أفمن يعلم أن ما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى، إنما يتذكر أولو الألباب. الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية، ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار .

وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون .

قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .

أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا .

قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد .

بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فاذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون .

قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين،أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ، أم يقولون به جنة ، بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون. أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين . وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم .

وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون .

ومنهم من يستمعون اليك،أفأنت تسمع الصم ولوكانوا لا يعقلون؟ ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ؟

قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل ، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون .

لا إكراه فى الدين قدتبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم.

وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون .

ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا.أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون . قل انظروا ماذا فى السموات والأرض،

وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون . فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين.

أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا،أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب (أى أصحاب العقول) .

هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون الا الظن وإن أنتم إلا تخرصون .

يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

قل هذه سبيلى ، أدعوا إلى الله ، على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين .

وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئا .

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟

إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون ، ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين .

أم يقولون افتراه ، قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيأ هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيدا بينى وبينكم ، وهو الغفور الرحيم .

واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون .

وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون . (بكسر اللام)

وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون!

فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون.

ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء .

لست عليهم بمسيطر . وما أنت عليهم بجبار. قل لست عليكم بوكيل.

ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين .

أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر ، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر .

وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ، فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً .

من كان يظن أن لن ينصره فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء (أى فليمدد بحبل الى السقف) ثم ليقطع ، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ (أى أن من يظن أن الله لا ينصر محمدا فليشنق نفسه يأسا لأنه ناصره حتما) .

كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز .

سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا

وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً .

وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا

بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير .

سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟

من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون

من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

كل امرىء بما كسب رهين

فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به .

لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا .

ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى (أى ولا تحملنكم عداوتكم لقوم على ظلمهم) .

يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .

ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، ومايلقاها الا الذين صبروا ، وما يلقاها الا ذو حظ عظيم .

وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب

المفسدين .

إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون .

ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ، ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون .

قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون .

ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون . ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم .

يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين .

قول معروف ومغفرة ، خير من صدقة يتبعها أذى .

وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله .

كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكرون وتؤمنون بالله .

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، إن الله يحب المقسطين .

ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم .

والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

ادع إلى سبيل ربك بالحكمه والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين .

خاتمـــــة

رأى القارئون من كل ما كتبناه فى هذا الكتاب ، أن الاسلام بحق وبكل دليل ، دين عام خالد ، وقد تذرع بكل الأصول العليا التى تحله هذه المكانة عند الآحاد والجماعات .

فقد دعا الى الوحدة الانسانية العامة ، ومحق ما كان بين الشعوب من فوارق القوميات ، وأوهام الطبقات الاجتماعية . وقرر أن أصل الاديان واحد ، وأن الخلافات التى يشاهدونها بينها إنما سببها بغى قادتها ، فهم الذين خلقوها لمصلحتهم الذاتية . ولذلك تركهم جانبا ووجه دعوته الى الناس كافة ، لا إلى الآحاد الممتازين منهم ، ولا إلى الجماعات التى تتصدر للنيابة عنهم . وهدم التقليد من أساسه ، وطالب كل معتقد بالبرهان . وأعلن أن إيمان المقلد غير مقبول ، ونادى بسلطان العقل ، ووجه العقول إلى النظر فى الطبيعة وفى كائناتها ، وحضها على تعرف السنن الاجتماعية ، بدراسة أحوال الأمم ، وتتبع تطوراتها فى العصور المختلفة ، مصرحا بأن للاجتماع سننا لا تقبل التبدل ولا التحول . وحض على طلب العلم والحكمة من أقصى مظانهما ، وشدد فى ذلك على الجنسين حتى جعله عليهما فرضا ، وربط فهم الدين بهما ، فقال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » بكسر اللام .

ثم توسع فى الاشادة بالعلم إلى أقصى ما يتخيله العقل ، وأتى بذلك فى ألوان هي أقصى ما يسمح به الابداع الكتابى فى عشرات من الآيات ، فقال تعالى : « ولنبينه لقوم يعلمون » ، وقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وقال : « وتلك حدود الله يبينها لقوم

يعلمون» ، وقال : «ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق » ، وقال : «ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم» ، وقال : « ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم» ، وقال : «هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » وقال : « إن فى ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام . وقال : « وقل رب زدنى علما » .

وقد سمى أهل الجاهلية بالذين لا يعلمون ، فما هذا كله ؟ والله لو كان محمد صلى الله عليه وسلم تخرج فى أكسفورد أو السوربون أوجامعة برلين ، لما جاء كتابه بأكثر من هذا فى الدعوة إلى العلم ، فاظنك وقد كان فى أبعد الأمم عن معاهده ، وأشدها جهلا بأصوله وفروعه . فاسر هذا الأمر الجلل ، وماذا أريد منه ؟

سر هذا الأمر أن هذا الدين خاتمة الوحى الالهى ، وما كان كذلك وجب أن يدرع بكل ما يقتاد العقول ، ويستهوى الفهوم ، ويعلو على كل مذهب يتصدر للزعامة فى الأرض .

وقد علم موحيه أن سيكون زمان يعترك فيه الدين والعلم ، ويظهر الثانى على الأول بسمو أصوله ، ودقة أسلوبه ، فجعل دينه الأخير أجمع لهذه الأصول وأرعى لهذا الأسلوب من أبعد المذاهب العلمية شأوا فى هذا الباب .

هذا مظهر غريب من مظاهر مناعة هذا الدين ، وصلاحيته لجميع الأزمان ، ولم يبق بينه وبين أن يعلن أنه دين الانسانية العام إلا أن يفهمه الناس على هذا الوجه .

لو كان مانقوله مأخوذا من القرآن استنتاجاً ، أو من طريق التأويل . لهان الخطب على خصمه ، ولكنه مقرر فيه بالنص . ومكرر فى ألوان شتى إلى حد الافراط ، وليس هو بافراط ، ولكنه إشباع لموضوع

سيكون فى يوم من الأيام محك النظر بين الناس .

إن هذا الأمر من العجب بحيث لو عرضته على أحد من المفكرين، من غير المسلمين،لأنكره أشد الانكار ، لأنه يراه قد جاء سابقاً لأوانه بأكثر من ألف سنة ، وهو محال فى نظره . وإذا ثبت له أنه موجود فى القرآن بنصوص لا تحتمل التأويل ، ومكرر فى ألوان شتى من البيان، كان هذا وحده أدل دليل فى نظره على حقية الاسلام،وعلى أنه حال بكل ما يتخيله العقل من المؤهلات لأن يكون دينا عاماً خالداً فهل بالغ الكاتب الانجليزى الكبير (برناردشو) فى قوله إن العالم كله سيصبح مسلماً ؟

لا ، إنه لم يبالغ ، ومن العجيب أن القرآن نفسه قد أنبأ بهذا عينه فقال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ، وقال : « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

كان أحد أصحابى يتحدث إلى وأنا سائر معه فى أمر هذه المقالات التى نشرتها فى الجهاد ، ويذهب إلى أنها قد بلغت مدى بعيدا فى التدليل على صحة الاسلام وسلامة أصوله من الضعف ، فشكرت له قوله ثم قلت له : هب بعد هذا كله أن يقول لك قائل إنه لا يعتقد برسالة محمد ، ويرى أنه هو الذى وضع القرآن ، فماذا كنت قائلا له ؟ قلت قل له إذن فقد وضعت محمداً فوق مكانات الانبياء ، فان عربياً يولد يتيما فى بيئة أمية باحتة ، ليس فيها أثارة من علم ، ولا عهد لها بدعوة ، ولا خيال من حركة فكرية ترمى إلى غاية اجتماعية ، وفى جو مشحون بأخبار الغارات والثارات ، يضع كتاباً يشحنه بأصول لم يحلم بها الفلاسفة الأقدمون ، ويملؤه بمبادىء لم تتولد فى هذه القرون الأخيرة إلا عقب تطورات اجتماعية ، وانقلابات فكرية لا تدخل تحت حصر،

ويغرس أعلاماً واضحة لشريعة تتمثل فيها الحقوق الطبيعية للأفراد والجماعات لم تتطلع اليها شريعة ولا فى القرن العشرين ، ويقرر للعقل والعلم أسلوباً يبز ما وضعه غطارفة الفلسفة ، وعباقرة العلم إلى هذا العهد الأخير ، قلنا إن عربياً فى تلك البيئة ، لو كان هو نفسه واضع ذلك كله ، لكان مخلوقاً قد منحه الله قوى فوق قوى البشر ، وعقلا أعلى من عقولهم ، تتحتم دراســـة نفسيته على الناس تحتما ، ويكون نتيجة ذلك أن يعتبر آية من آيات الله فى الأرض .

نعم : لأن الرجل قد يسبق الزمان الذى يولد فيه فى الأصل أو الأصلين ، أما سبقه الكافة فى مجموع من الاصول هو أخص ما يقوم عليه البشر من أمرى الدنيا والدين، ويأتى من كل ذلك بالنهايات القصوى، ثم هو مع هذا التفوق المحير للعقول ينكر على نفسه كل فضل فى وضعها ، ويعمل على تكوين جماعة تقول بها، وتجرى على سننها ، وينجح فى ذلك كله إنجاحا مدهشا تحقيقا لوعده تعالى فى قوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض » فتصبح هذه الأمة بيئة العلم والحكمة والسلطان وزعيمة للامم كافة فيها مدى قرون طويلة ؛ فتحقيق هذا كله من المحالات العقليـة . فان ثبت أن رجلا قام به فيكون ذلك الرجل هو الذى يحلم به (نيتشه) ويدعوه بالسوبرمان .

زد على هذا أن هذا الرجل على خلاف جميع المصلحين ، قد قام فى أمة لا تواتى مطامحه فى الاجتماع لتغلغلها فى الفرقه ، ولا فى التعقل لتوغلها فى الجاهلية ، ولا فى التفكير والنظر لعراقتها فى الأمية، ولم تكن قد تطورت إلى حد أن تلين فى يده ، وتستنيم إلى مذهبه ، ومع كل هذا رأيناه يقول عن ربه : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز »

ويقول مجيباً على تهديدهم : « أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر » .

أعلن الاسلام عن نفسه أنه خاتمة الوحي الالهى، وأنه الدين العام الخالد ، فوجه خطابه إلى البشرية كلها ، ولم يوجهه لأمة بعينها مرة واحدة ، وصرح بأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين. وهذه كلها دعاوى ليس فيها شيء من الغرابة ، فقد يتفق أن يقولها كل من تحدثه نفسه بها ، ولكن العجب العاجب أن تطابق هذه الدعاوى الواقع.فلم يقم داع بعد محمد مدعيا النبوة إلا تكشف أمره عن جنون يستحق عليه الرحمة ، ولم يعرض على العالم كتاب تحت عنوان وحى سماوى بعد القرآن الا اتضح أمره عن إفك مبين . فلم يبق إلا دعوى أن الاسلام دين عام يصلح لكل جماعة فى كل زمان ومكان ، وقد رأيت أنه كيف أقام الحجج على ذلك بفيض من الأصول لا تبقى فى نفس أى متعنت حاجة إلى المزيد ، وتسمح لكاتب مثلى فى القرن العشرين أن يستخدم كل أسلحة الثقافة العصرية فى سبيل تأييدها ، وينجح فى ذلك إلى حد بعيد .

هذا عجيب إلى أقصى ما يبلغه الخيـــال من معنى هذه الكلمة ، وأعجب منه المناعة التى تحلى بها الاسلام لتقيه شر التحجر الذى تمنى به التعاليم الدينية من وقوفها فى حيز محدود ، مع تقدم العلوم فى مدى العصور ، وتطور العقول بتوالى الانقلابات . وهذه المناعة فيه تقوم على خمسة أركان :

(أولها) جعله للعقل والعلم السلطان المطلق ، والحكم الفصل حتى ولو عارضا نصوص الكتاب ، فجعل فى تأويلها سبيلا لمماشاة الترقيات العلمية والعقلية .

(ثانيها) حضه على طلب العلم وجعله إياه سبيلا للرقى الروحانى كما هو سبيل للرقى المادى ، ليقطع على الجامدين كل أمل فى التحكم بالدين على صد الحركة العلمية . ولذلك كان المسلمون الأولون أسبق الأمم الى كل علم ، وأسرعهم الى كل جديد متأولين كل مايعترضهم من الكتاب

(ثالثها) عدم حصره الفهم فى الدين فى جيل من الناس ، ولا قصره إياه على طائفة معينة منهم ، ولكنه فتح باب النظر والتجديد فيه للكافة على مصراعيه فى كل زمان ومكان كما رأيت .

(رابعها) سنه سنة التجديد فى الدين نفسه ، فقد علم أن لكل زمان مناهج للفهم ، ووجهات للتفكير ، ومسلمات أو مرجحات خاصة ، فاذا لم تتجدد الفلسفة الدينية وتطبق على الحاجات الجديدة بلسان أهل كل عصر ، وتشمل عناصر ثقافتهم ، جمدت حيث هي ، وتركها الناس ومضوا مع العلم لايلوون على شيء . فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يرسل على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها» .

(خامسها) حسمه مادة القيل والقال فى الكتاب ، وحمايته من الخبط والخوض فيه ، والذهاب فى تأويل آياته كل مذهب ، وكتب الوحى لاتخلو من الاشارات الى عالم الروح والكائنات الخفية ، والى الحياة الأخرى وما فيها من ثواب وعقاب ، والى التنويه بحوادث ماضية ، وأساطير قديمة امتزجت بعقول المتقدمين ، وصارت عنصرا من عناصر شخصياتهم ، وكل هذه الأمور تقبل الأخذ والرد ، ويجد فيها الخصوم مساغا لجعل الكتاب عرضة للنقد ، بل ربما حملت الكثيرين على الحكم عليه بمخالفته للعلوم ومناقضته للتاريخ ، وخروجه عن دائرة المعقول ، فجاء الاسلام بما يحسم هذه المادة حسما ، فأمر الله فى نص صريح بعدم الخوض فيها أو محاولة تأويلها ، مصرحا بأنها لاتقبله بحال ،

وأنه لايحاول ذلك فيها الا زائغ العقيدة ، فقال تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه إبتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، ومايعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربناومايذكر الا أولو الألباب »

فهذه الأركان الخمسة التى تقوم عليها مناعة الاسلام ، تكفى أن تحميه شر كل مايتصور من المحللات وعوامل الهدم ، وهى تدل على إلهية هذا الكتاب ، وأنه وضع ليبقى بقاء الانسان مصونا من كل تصدع

فاذا طمع طامع بعد هذا فى هدم هذا الدين والتشكيك فيه، فليطلع قبل أن يشرع فيما تصدى له على كتابنا هذا ، ليأتى إن استطاع بأسلحة جديدة ، أما كل ماعهده الناس لخصوم الاسلام من الأسلحة المعروفة فقد تحطمت وأصبحت هباء تذروه الرياح ، وبقى الاسلام سليما من كل شبهة ، وسيبقى كذلك مادامت الأرض والسماء :

أفلت شموس الأولين ، وشمسنا أبدا على أفق العلا لاتغرب

دفع شبهات عن الاسلام

كان بعضهم أعلن فى الجرائد أن فى مكتبة الجامعة الامريكية كتاباً يدعى (مسائل فى الدين) ، اشتمل على طعن فى الاسلام والقرآن وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ودلل على مايقول بايراده النص الانجليزى . فقمنا بالرد على هذه الشبهات فى جريدة الجهاد ، ونرى من متمات هذا البحث أن نأتى على تلك الردود هنا ، فاليك :

تصحيح اخطاء تاريخية ودينية

ملاحظات على كتاب مسائل فى الدين

حدث فى هذه الأيام الأخيرة أن أحد طلبة الجامعة الأمريكية أذاع فى الصحف أن هذه المدرسة تقوم بدعوة ضد الديانة الاسلامية، واستشهد على دعواه بقطعتين انجليزيتى العبارة، اقتبسهما من كتاب اسمه (مسائل فى الدين)، يعطى لطلبة السنة الأولى، قرأناهما فألفينا فيهما أقوالا عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن القرآن والاسلام تنافى الحقيقة. واذ كان هذا الكتاب معول تلاميذ فى الأخلاق والدين ردحا من الزمان، فقد وجب علينا أن نتتبع هذه الأقوال بما يدحضها، تصحيحاً لعقيدتهم من ناحية، وتقويما لرأى الجامعة الأميريكية من ناحية أخرى، كيلا تقع فى مثلها وهى بين ظهرانى عرفة هذا الدين وفطاحل كتابه.

نظرنا فى هذه الأقوال التى قرأناها فرأيناها تدور حول ثمانى مسائل:

أولها — أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أولى به أن يعتبر مريضاً عصبى المزاج.

ثانيها — أنه فى أواخر أيامه كان يلجأ الى التصنع، فيدعي أنه يرى من المشاهد الروحانية ما يتفق وحاجاته المادية.

ثالثها — أنه كان يرتكب أعمالا من القسوة والغدر فى سبيل إصابة مراميه القومية والدينية.

رابعها — أن الدين الاسلامى حربى تعوزه لطافة المسيحية ورقتها.

خامسها — أنه لم يثبت أن الاسلام دين ترق.

سادسها — أنه يجيز الرق وتعدد الزوجات ويسهل على الزوج الطلاق، وأن ما تعانيه المرأة اليوم من حالتها السيئة سببه غيرة النبي المتطرفة.

سابعها — أن إكثار النبي من الحث على الصدقة يرجع الى ما قاساه فى طفولته من الحرمان واليتم. وهذا أيضاً علة كثرة المتسولين حيثما تدرس تعاليمه.

ثامنها — أن القرآن مشحون بأخبار المشاهدات الروحانية البعيدة عن العقل، وأنه يعوزه البيان الساحر، والترتيب الضرورى. وهذا من أعظم علل الاملال والارتباك التى لهذا الكتاب، مما جعله غذاء عقيما لذويه.

هذا ملخص ما قرأناه فى تينك النبذتين، وقد رأينا أن نكر على كل منها بالرد لغرض علمى بحت، بعيدين عن جميع الملابسات التى تمس هذا الموضوع، فنقول:

هل كان محمد مريضا عصبى المزاج ؟

الذى أجمع عليه المؤرخون أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث قبل النبوة أربعين سنة يشتغل بجسمه وعقله لكسب القوت. فعمل أولا فى الرعاية، ثم فى التجارة، وقد سافر فى سبيلها الى الشام. فقام بهذين العملين على أكمل الوجوه، حتى أن السيدة التى كان يعمل فى تجارتها ارتضته زوجا لها لما رأته من أمانته، وما آنسته من التوفيق الذى صادفه.

وقد ورد فى التاريخ زيادة على هذا أنه كان من القوة الجسدية

من مختلف الأعاليل ، أن ينالوا من شخصيته الفذة ، فان ما أثمرته من الثمرات مما لم يتسن مثله لمصلح بل ولا لرسول قبله ، تدحض كل فرية تلفق للحط من قدرها ، وتبنى لصاحبها صرحا من المجد جديداً . وتوحى الى الذائدين عن كرامته أدلة تجعل ما لفقه خصومه هشيما تذروه الرياح .

فى الفصل الآتى ننظر فى الشبهة الثالثة ان شاء الله .

هل كان محمد قاسيا وغادرا ؟

من متممات رسالة النبى صلى الله عليه وسلم تأسيس دولة إسلامية تحدث فى العالم انقلابا هو فى حاجة اليه ، ليبعث الأمم من سباتها الذى كانت وقعت فيه بعلل شتى ، ومؤسسو الدول لامعدل لهم عن الاعتماد على القوة فى قمع من يثور من الأفراد ، ومكافحة من يقف فى سبيلهم من الجماعات . وهذه الخطة تمس القسوة ، ويشتبه بعض أمورها بالغدر ، فيسهل على كل مرجف أن يصم كل قائد ومؤسس مملكة بهذين الوصفين ، كما فعل مؤلف كتاب (مسائل فى الدين) . وقد يجد ما يستدل به عليهما ولو تعسفا . ولكن المدار على ما يدونه التاريخ الصحيح فى صحيفة كل عامل يستحق أن يشغل مكانا فيه . وقد كلف الناس بنقد سير السلاطين والقادة ، والذهاب فى المغالاة بصغريات أعمالهم وكبرياتها كل مذهب .

وقد غرى كثير من الفاتحين ومؤسسى الدول بأن يعرفوا بالقسوة ، وشدة الوطأة ، ليلقوا الرعب فى قلوب الشعوب ، ويكون اسمهم مقرونا بالشر المستطير . ومنهم من كان يباهى بذلك على رءوس الأشهاد .

فكان (اتيلا) ملك الهونيين مخرب ملك الرومانيين يتمدح قائلا : إن العشب الأخضر لا ينبت حيث يطأ جواده .

وقد حفظ التاريخ لكبارهم من حوادث القسوة والغدر ، وغلظ الأكباد ، مالا يكاد يصدقه العقل . فقد غزا بختنصر بيت المقدس وأحرق كل ما وصلت اليه يده فيه، ولم يحترم المعابد والهياكل ، وأعمل السيف فى أهلها، ثم اقتادمعه من بقى من اليهود فرق شملهم فى الأرض كل ممزق .

وكان الفاتح المغولى تيمورلنك يدخل المدينة فلا يبقى فيها على نسمة . وقد تخيل أهل مدينة مرة أن يقابلوه بألوف من أطفالهم حاملين المصاحف ، استنزالا لعطفه . فلما شارفهم أمر بعض جنوده بأخذها من أيديهم ، ثم أوعز لفرقة من خيالته أن يوطئوهم سنابك الخيل ، ففعلوا ، وقتلهم على تلك الصورة . وكثيراً ما كان يقيم مآذن فى البلاد التى يفتحها من جماجم قتلاه،أو يبنى أسراه وهم أحياء فى أسوار المدن كأنهم بعض الأحجار !

هذا غيض من فيض من سير كبار الفاتحين ومؤسسى الدول .

أما ماروى عن القادة المتمدنين ، على تورعهم من أعمال القسوة، وتوقيهم من سوء القالة ، فلا يمكن حصره ، ولا نضرب لك الأمثال تفاديا من جرح عواطف الأمم .

انفرد محمد صلى الله عليه وسلم عن جميع القادة والفاتحين ومؤسسى الممالك باقتران اسمه بالرحمة فى نص لا يحتمل تأويلا ، فقد قال الله تعالى فيه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وقال : « فبما رحمة من الله لنت لهم ،

ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ». وقال : « وإنك لعلى خلق عظيم » . وقد نحله الله من صفاته صفتين لم ينحلهما بشراً قبله ولا بعده ، فوصفه بأنه رءوف رحيم.

وقد أكثر هو نفسه من نشر خصلة الرحمة فى أشياعه ، فكان يكثر من قوله : « الراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ». وقال: « إن الله رفيق يحب الرفق». وقال: « أتدرون من يحرم على النار يوم القيامة ؟ كل هين لين سهل قريب » .

وقد عرف صلى الله عليه وسلم بالرفق والرحمة فى جميع مواقفه الخاصة والعامة . فأما فى بيته فقد كان من الوداعة والرفق بحيث لم يؤنب خادما قط على إهمال . قال أنس بن مالك: خدمت رسول الله ثمانى سنين فما قال لى قط لشىء عملته : لم عملته ، ولا لشىء تركته لم تركته .

ومن آيات رحمته ورقة قلبه أنه كان يسمع بكاء الطفل وهو يصلى فيسرع فى صلاته ليرى ماذا يؤذيه .

وقد امتدت رحمته على مخالفيه فى الدين مع إصرارهم على مخالفتهم فقال : « تصدقوا على أهل الأديان كلها » .

وقد شملت رحمته الحيوانات العجم، فقال « اركبوها صالحة واعتملوها صالحة واذبحوها صالحة » أى غير مريضة ولا هزيلة . فكان بهذا الحديث أسبق الناس بمئات من السنين الى تقرير المراقبات الصحية على الحيوانات المعدة للركوب والاعتمال والذبح ، والى تأسيس جمعيات الرفق بالحيوان . وقد شدد فى النهى عن عدم الاكتراث بأحوال الحيوانات فقال: « لا تتخذوا ظهور دوابكم مجالس » . أى لا تمضوا امدة

فى الحديث وأنتم ممتطون صهواتها لا تبالون بتعبها .

وأشد من هـذا فى الرحمة بالحيوان قوله : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » أى من حشراتها . وهذا أبلغ ماسمع من مصلح فى وجوب حفظ حقوق الحيوان والاحسان فى معاملته .

أما فى حياته العامة ، وقيادته للجنود ، ومزاحفته للعدو ، فقد كان مثالا للرحمة والرفق ، فانه سن للحروب سننا لم تكن معروفة من قبله ، فأوجب إعلانهم الحرب ، وحرم على جيوشه أن تتبع المهزومين ، وأن تجهز على المجروحين ، وأن تقتل طفلا أو امرأة أو واحداً من رجال الدين أو متعبدا فى صومعة أو شيخاً فانياً . وشدد عليهم النكير أن يحرقوا شجراً أو يهدموا بناء أو يسيئوا الى أسير . بل أمرهم أن يكرموا أسراهم فقال: « استوصوا بأسراكم خيراً »،فكان الرجل يكتفى فى غدائه بالتمر ويخص أسيره بالخبز .

وكان يحفظ العهود ويراعى شرائطها ، ويأمر رجاله أن يفعلوا مثل فعله ، ائتماراً بقول الكتاب : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » وقوله : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » .وقوله فى صفة المؤمنين : « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا » .

فلم يعرف عن النبى صلى الله عليـه وسلم قسوة ولا غدر فى سلم ولا حرب . ولو كان قاسياً غداراً لخالف بفعله صريح الكتاب من النهى عن العدوان ، والأمر باتباع العدل، فى قوله تعالى : « ولا تعتدوا لن الله لايحب المعتدين » وقوله : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن

لاتعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » أى ولا تحملكم كراهتكم لقوم على أن لاتعدلوا فى معاملتهم .

أما كراهته لاراقة الدماء بغير حق فيما تضرب به الأمثال ، فانه طلب اليه إزالة وثنية منحطة كانت ناشبة أظفارها فى شعب برمته فوقفته جامدا متحجراً آمادا طويلة ، وكانت انتهت الى حالة من الخسة والاباحة لاتطاق . وهـذه خطة يعجز عنها كل مصلح . فاستخدم أولا الدعوة السلمية حتى ألف دولة ، ثم عمل على الاجبار ، والاجبار مشروع فى كل ملة لازالة الوثنية حتى فى المسيحية نفسها ، فقد حمل الامبراطور قسطنطين الرومانيين على التنصر بالحديد والنار . واستخدمت الكنيسة القوة ضد شعوب كثيرة الى أن باد بعضها . فلم يكن دين محمد بدعا من الأديان فى هذا الباب ، إلا أنه أحاطه من ضروب القيود بما ينم على عراقته فى الرحمة ، وعلى أنه خلق مثالا لكل عمل إنسانى تقوم به الأجيال التى تأتى بعده . وقد رأيت الشرائط الحربية التى ذكرناها ، وزادها تأكيداً بوجوب احترام حياة من يقبل الاسلام ولو هربا من القتل . فقد قتل بعض أصحابه من نطق بالشهادة والسيف يهوى على رأسه ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه ذلك وتبرأ الى الله من عمل صاحبه . فقال له يارسول الله : إنهم يفعلون ذلك ظاهرا ليتقوا القتل حين لا مناص منه ، ثم يعودون الى قتالنا . فقال له : قد يكون ذلك ، ولكنا أمرنا أن نأخذ بالظاهر . ولا نظن أن قائد جيش ، أو متصديا لتأسيس مملكة ، يتورع من سفك مثل هذه الدماء .

هذا ما يمكن أن يقال فى الشبهة الثالثة . وفى الفصل التالى نحل الشبهة

الرابعة إن شاء الله .

• هل الاسلام دين حربي تعوزه اللطافة والرقة ؟

إذا قيل إن الاسلام فرض على رسوله والمؤمنين الأولين الحرب للدفاع عن أنفسهم ، وإزالة الوثنية من جزيرة العرب ، وإنه لكونه ديناً عملياً ماشياً لسنن الوجود وتطورات الانسانية،أباح لذويه الحرب اذا دعت اليها ضرورة الاجتماع ، وهي لا تزال داعية اليها ، فهذا صحيح ، وليس عليه منه ذام ، وأشهر الأديان العالمية تشاطره هذه الصفة ، وتزيد عليه فيها شدة بنسبة تقدمها فى الظهور .

فاليهودية فرضت على أهلها الحرب حفظاً لوجودهم ، وللتمكن فى الأرض ، والتبسط فى الفتح . والمسيحية اضطرت فى القرن الرابع أى بعد أن أصبح لها دولة تحت قيادة الامبراطور قسطنطين الرومانى أن تستأصل شأفة الوثنية من المملكة الرومانية بالحديد والنار .

ثم لما حصلت الكنيسة على السلطة الزمنية ، جعلت الحرب من وسائلها ، فاتخذت الجيوش والأساطيل، وتوسعت فى ذلك إلى أبعد حد . وهل يغيب عن ذاكرة أحد ماقرأه فى التاريخ عن الحروب المسماة بالصليبية التى أعلنتها المسيحية على الاسلام للاستيلاء على بيت المقدس ؟ أما كان رجالها يطوفون البلاد يدعون الناس للحرب المقدسة ،فشبوها نارا تلظى ، بقيت نحو قرنين ، أكلت فيها مئات الألوف من الكماة المغاوير من هنا وهناك ؟

وقد وردت في الكتب المقدسة السابقة على القرآن أوامر تعتبر

غاية فى التشديد تطالب بقهر الوثنيين وإبادتهم . جاء فى الكتاب الخامس من الزبور قوله :

« إذا أدخلك ربك فى أرض لتملكها ، وقد أباد أمما كثيرة من قبلك ، فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ، ولا تعطهم عهداً ، ولا تأخذنك عليهم شفقة أبداً » .

وكذلك أمر الله اسرائيل باستئصال سكان المدائن التى اختص بها بنى اسرائيل دون أهلها الأصليين .

فالاسلام لم ينفرد كما رأيت بأنه دين حربى بالمعنى الذى ذكرناه ، ولكنه انفرد ، كعادته ، بتلطيف هذه المجازر الانسانية الى آخر حد يمكن الوصول اليه بدون إخلال بسلامة الحوزة . فوضع للحرب حدوداً وشرط على الغزاة شروطاً ، كلها ترمى الى احترام الدماء البشرية ، والعمل بأرقى ضروب العطف على الانسانية ، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه قد يجىء وقت تعتبر فيه الحرب من الوسائل الوحشية ، عند ما تصل الانسانية الى درجة من الرقى تسمح للمتخاصمين أن يحلوا منازعاتهم بالتحكيم ، تقززا من اللجوء إلى إزهاق الأرواح البشرية ، فأمر ذويه بالدخول فى هذا التطور الجديد ، واحترام رأى العالم فيه ، فقال : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

أنا فى هذا المقام مضطر أن أقيم الدليل على ما أقول ، ولا دليل أوقع فى النفس ، وأدل على الحق ، من شهادة رجال لا يمتون إلى الاسلام بصلة ، وإنما هم مؤرخون أو علماء اجتماعيون ، يعطون الحوادث الانسانية حقها من الرواية والتحليل :

قال المسيو (هنرى دوكاسترى) أحد حكام الجزائر السابقين فى كتابه (الاسلام — تأثرات ومباحث) :

« بعد أن دان العرب للاسلام واستنارت قلوبهم بهذا الدين ، برزوا فى حال جديدة أمام أهل الأرض كافة ، هو حال المسالمة وحرية الأفكار فى المعاملات ، ائتمارا منهم بما ورد فى القرآن من الايصاء بمحاسنة الناس ، بعد تلك الآيات التى كانت تنذر القبائل المارقة ، كقول الكتاب : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . وقوله : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » وقوله : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا » . وقوله : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

« هكذا كانت تعاليم النبى بعد أن دخل العرب فى الاسلام . وقد اقتفى أثره فيها خلفاؤه من بعده ، وذلك يضطرنا إلى القول بما قاله قبلنا (روبنسون) : إن شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين محاسنة الأجانب ومحبة انتشار دينهم . هذه العاطفة هى التى دفعتهم فى سبيل الفتح ، وهو سبب لاحرج فيه ، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه الظافرة إذ أغاروا على الشام ، وانقضوا انقضاض الصواعق على أفريقيا الشمالية من البحر الأحمر إلى المحيط الاطلانطيق ، ولم يتركوا أثر للعسف فى طريقهم (تأمل) ، إلا ما كان لابد منه فى كل حرب . فلم يبيدوا قط أمة أبت الاسلام » .

ثم قارن المسيو (هنرى دوكاسترى) بين هذا اللين والعطف

من الاسلام وبين الشدة والروح الحربية فى الأديان التى تقدمته .
ونحن نعذرها فى ذلك مراعاة لقانون التطور ، فقد كان زمانها غير الزمان الذى نزل فيه القرآن . فنقل عن الكتاب الخامس من الزبور قوله : « إذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الايمان ، فان قبلته فقد سلم كل من فيها ، وإن أبت وبادأتك بالعدوان فشدد الحصار عليها ، ومتى وفقك الله للظفر بها فاحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام »

ثم قال المسيو (هنرى دوكاسترى) :

« فكان من وراء محاسنة المسلمين للأمم المقهورة أن انتشر الاسلام بسرعة ، وعلا قدر رجاله الفاتحين ، لما سبقه من ظلم براطرة المملكة الرومانية الشرقية (وهى مسيحية) التى أبغضها الناس وكرهوا الحياة فى ظلها . هذا واذا انتقلنا من الفتح الأول للاسلام إلى حين استقراره رأيناه أكثر محاسنة ، وأكرم معاملة لمسيحي الشرق كله . فما عارض العرب أبدا شعائر الدين المسيحى ، بل بقيت رومية نفسها حرة فى مراسلة الأساقفة فى مختلف البلاد الاسلامية » .

إلى أن قال :

« وهذه المحاسنة العظيمة من جهة المنتصر للمقهور ، هى التى ضعضعت الديانة النصرانية جدا ، ثم زالت بالمرة من شمال أفريقيا . على أن الاسلام لم يكن له دعاة يقومون بنشره ، فلم يكره على الأخذ به أحداً بالسيف ولا باللسان . بل دخل القلوب عن حب واختيار . وكان هذا من آثار ما أودع فى القرآن من صفات التأثير والأخذ بالألباب » .

إلى أن قال :

« ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الأندلس حتى صاروا فى حالة أهنأ من التى كانو عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم (الوزيجو).

« ويقول دوزى العالم الكبير: إن هذا الفتح لم يكن ضاراً بأسبانيا، وما حدث من الهرج والمرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة الاسلامية فى تلك البلاد، وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم، وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء. وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل (سيد). وقد تولد من هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية الى المسلمين، وحصل بينهم تزاوج كثير» انتهى كلام المسيو دوكاسترى.

نقول: إن شأن الاسلام فى جميع أحوال الاجتماع، بجيئه بأصول أرقى مما كانت عليه الأديان التى تقدمته، سواء فى الحرب أم فى السياسة. وهذا التطور يشاهد محسوساً من المقابلة بين تاريخ المسلمين وتاريخ من سبقهم من جميع الملل.

قال الأستاذ العلامة (دريبر) المدرس بجامعة نيويورك بالولايات المتحدة فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين):

« عامل العرب اليهود فى الأندلس فى ظل الحكومة الاسلامية أحسن معاملة حتى أثروا وأصبحوا ذوى مكانة عالية فى الأدب والفلسفة، فلما تغلب المسيحيون على الأندلس لم يطيقوا اليهود، وأخذوا يتهمونهم باختطاف أولادهم. وفى سنة ١٤٨٧ شكلت لهم محكمة تفتيش فأحرقوا فى سنتها الأولى ألفى يهودى، ودفنوا عدة آلاف أخرى،

وحكموا على سبعة عشر ألفا منهم بالغرامات والسجن المؤبد ، وقد حصى الذين قتلتهم هذه المحكمة فى مدى عشر سنين فبلغوا عشرة آلاف وثمانمائة وستين نسمة . وبلغ عدد الذين أمرت بتعذيبهم منهم سبعة وثمانين ألفا ، وأحرقوا نسخ التوراة وكتبهم الأدبية والفلسفية الخ الخ . ثم طردوهم من البلاد كما طردوا العرب قبلهم ، فهلك منهم ألوف مؤلفة جوعا وعطشاً » .

هذا قول عالم أمريكى من أشهر العلماء الاجتماعيين ، فانظر بعد ذلك إلى تعسف وجهل مؤلف كتاب (مسائل فى الدين) كيف غمط حق المسلمين ، ووصمهم بالروح الحربيـة ، وبأن دينهم تنقصه المحاسنة والرقة ، مع أنهم أتوا العالم بأصول جديدة فى هذا الباب لم تصل إلى مثله أوروبا إلى اليوم . فلم يسمع عن قوم قط أنهم فضلوا قاهريهم على حكوماتهم الوطنية غير ما سمعناه عن الشعوب التى أخضعتها العرب ، وذلك لسمو المبادىء التى أدخلوها على الاستعمار ، حتى جعلوه سائغا لدى الشعوب التى تمنى به . وهذا لعمرى مجد عظيم لا يستطيع ألوف مؤلفة من المرجفين أن يهدموه ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . وكلما تقادم عليه العهد ازداد ظهوراً ، وتلألأ نوراً « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره » .

فى الفصل التالى ننظر فى الشبهة الخامسة إن شاء الله

ألم يثبت الاسلام أنه دين ترق ؟

من أشد التهم التى يوجهها بعضهم إلى الاسلام بعداً عن الحقيقة ،

ومخالفة للبدهيات التاريخية والاجتماعية ، قولهم إن الاسلام لم يثبت أنه دين ترق ، متظاهرين بنكران تلك الانقلابات الضخام التى أوجدها فى الاجتماع والعلم والفنون والسياسة، مما لم يجسر على نكرانها مؤرخ من أى نحلة كانت ، ولم يجرؤ على إغفال ذكرها عالم اجتماعى من أى مذهب كان ، لاشتراك العالم كله فى التأثر بها على أقدار شتى . فاذا ساغ لكاتب أن ينكر شيئا فى الاسلام ، فلا يصح له أن ينكر هذا الأثر الجلل الذى لهذا الدين ، لا أقول فى حماية العلوم والفنون ، ولكنى أقول فى حفظ تراث العالم الانسانى جميعه منها ، بعد ما كادت تلعب بها أيدى الاهمال ، ثم الذهاب بها إلى حد بعيد من الترقى ، والقيام بنشرها فى الخافقين ،حتى أن إبلال أوربا من داء التحجر الشنيع كان بسبب مانشره الاسلام فى أرجائها من أشعتها المحيية . وكيف لا يكون ما أوجده الاسلام انقلابات حقيقية ، وهو قد أشاد بذكر العلم حتى جعله مناط السعادة فى الدنيا والآخرة،فقال تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟ وقال : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » بكسر اللام . وقال : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . وقال : « وقل رب زدنى علماً » .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» . وقال: «خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت» . وقال : « من علم علما فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » . إلى آيات وأحاديث لا ينالها العد ، فهل من عجب بعد هذا إذا اندفع المسلمون وراء تحصيل العلم اندفاعا لا يوجد فى تاريخ الجماعات

ما يشبهه، حتى أصبحت عواصمهم بعد ردح من الزمن عواصم للعلوم والفنون، ورجالهم أئمة للآراء والمذاهب؟

يحسن بى بعد هذا أن أستشهد ثقات المؤرخين، والعلماء الاجتماعيين من الأوربيين والامريكيين، ليكون الدليل أشد وقعاً وأدعى للتسليم، فأقول:

قال العلامة (دريبر) المدرس فى جامعة نيويورك فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين):

«إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة (٦٣٨) ميلادية أى بعد موت محمد بست سنين، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية وقدروها قدرها الصحيح.

إلى أن قال:

«ولما ولى الخلافة أبو جعفر المنصور من سنة (٧٥٣ إلى ٧٧٥) م، نقل عاصمة الملك إلى بغداد وجعلها عاصمة فخمة، فلم يأل جهدا فى بذل الوسع فى نشر العلوم الفلكية، وتأسيس مدارس الطب والشريعة. ولما تولى حفيده هرون الرشيد سنة (٧٨٦) م، اتبع أثر جده فى هذه الفتوحات العلمية، وأمر باضافة مدرسة إلى كل مسجد فى جميع أرجاء ملكه. ولكن عصر العلم الزاهر فى القارة الأسيوية لم يشرق الا فى خلافة المأمون الذى تولى الخلافة من سنة (٨١٣ إلى ٨٣٢) م، فانه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى، وجمع اليها كتبا لا تحصى، وقرب اليه العلماء، وبالغ فى الحفاوة بهم.

« هذا المركز الذى اكتسبه العرب ، وهذا الذوق السليم فى العلم استمر لديهم حتى بعد أن انقسمت مملكتهم الى ثلاثة أقسام . فان العباسيين فى آسيا والفاطميين فى مصر والأمويين فى اسبانيا، لم يكونوا متناظرين متنافسين على الحكومة فقط ، بل كانوا كذلك فى الآداب والعلوم أيضاً .

« ذاق العرب فى الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحد القريحة ويصقل الذهن ، وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الأمم كلها مجتمعة . أما فى العلوم فقد كان تفوقهم فيها ناشئاً من الأسلوب الذى توخوه فى المباحث، وهو أسلوب أخذوه عن فلاسفة اليونان الأوربيين ، فانهم قد تحققوا أن الأسلوب العقلى النظرى لا يؤدى الى التقدم ، وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها ، ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم الأسلوب التجريبى والدستور العملى الحسى ، وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات ومعدات لعلم المنطق . وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا والايدروستاتيك (علم توازن السوائل وضغطها على جدران أوعيتها) ونظريات الضوء والابصار، أنهم قد اهتدوا الى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات .

« هذا هو الذى قاد العرب الى أن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمستكشفين لعدة آلات للتقطير والتصعيد والاسالة (إسالة الجوامد) والتصفية الخ ، وهذا بعينه أيضا هو الذى جعلهم يستعملون فى أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة

والاسطرلابات (هى آلات لقياس أبعاد الكواكب) ، وهو أيضاً الذى بعثهم لاستخدام الميزان فى العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته ، وهو الذى هداهم لعمل الجداول عن الأوزان النوعية للأجسام والأزياج الفلكية (هى جداول تعرف منها حركات الكواكب) مثل التى كانت فى بغداد وقرطبة وسمرقند . وهو أيضاً الذى أوجد لهم هذا الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات ، وهو أيضا الذى هو بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية ، هذا هو ثمرة تفضيلهم لأسلوب أرسطو الاستدلالى على مقالات أفلاطون الاستنتاجية .

« ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منتظمة لأجل أن يتصلوا الى تكوين المكاتب التى تكلمت عنها . الى أن قال : « وقد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس على ستمائة ألف مجلد ، وكانت قائمة أسمائها وحدها واقعة فى أربعة وأربعين مجلدا ، وغير هذا فقد كان بالأندلس سبعون مكتبة عامة ، وكثير من المكتبات الخاصة »

الى أن قال دريبر نفسه :

« أما المؤلفات الحديثة فقد كان من عادة أساتذة الجامعة أن يؤلفوا كتبا فى الفروع العلمية التى تطلب منهم . وكان لكل خليفة مؤرخ خاص يكتب تاريخه .

« ولقد كتبوا فى كل فن وفى كل علم كالتاريخ والشريعة والسياسة والفلسفة وتراجم الرجال وتراجم الخيول والابل، وكل هذه المؤلفات كانت تنشر بدون رقابة ولا حجر . وما يعلم من المراقبة على الكتب

اللاهوتية فقد حدث فيما بعد هذا التاريخ . وقد كانت الكتب الزاخرة بالمعلومات التى تصلح لأن تتخذ مادة ، كثيرة جداً ، فى الجغرافيا والاحصاءات والطب والتاريخ وقواميس اللغة . وكان لديهم دائرة معارف علمية ألفها محمد أبو عبد الله . وكان للعرب ذوق دقيق فى صنع الورق النظيف الناصع البياض ، وفى إعطاء المداد الألوان المختلفة ، وفى زخرفة وجوه الكتب بتشبيك تلك الألوان المختلفة من المداد ، والابداع فى تنسيقها وتذهيبها على صور شتى .

« كان الملك الاسلامى العربى يغص بالمدارس والمكتبات ، وكانت بلاد المغول والتتار ومراكش والأندلس حاصلة على عدد عديد منها . وكان فى طرف من أطراف هذه المملكة الواسعة ، التى فاقت المملكة الرومانية كثيرا ، مرصد فى سمرقند لرصد الكواكب ، وكان يقابله فى الطرف الآخر مرصد جيرالد فى الأندلس .

« ولو أردنا أن نستقصى كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى ، لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فانهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا (تأمل) ، وأوجدوا علوما جديدة لم تكن معروفة قبلهم » ثم قال :

« الفلكيون من العرب قد اهتموا أيضاً بتحسين آلات الارصاد وتهذيبها ، وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة الأشكال ، والساعات المائية . والسطوح المدرجة الشمسية . وهم أول من استعمل البندول (الرقاص) لهذا الغرض .

« أما فى عالم العلوم التجريبية فقد اكتشفوا الكيمياء وبعضاً

من محللاتها الشهيرة: حمض الكبريتيك وحمض النتريك والكحول .

« استخدم العرب علم الكيمياء فى الطب ، لأنهم أول من نشر علم تحضير العلاجات والاقرباذينات واستخراج الجواهر المعدنية .

« أما فى علم الميكانيكا فانهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام . وكانوا عارفين كل المعرفة بعلم الحركة .

« أما فى الايدروستاتيك فقد كانوا أول من عمل الجداول المبينة لضروب الأوزان النوعية ، وكتبوا أبحاثا عن الأجسام السابحة والغائصة تحت الماء .

« أما فى نظريات الضوء والابصار فقد غيروا الرأى اليونانى الذى مقتضاه أن الابصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئى، وقالوا بعكس ذلك ، أى أن الابصار يحصل بوصول شعاع من المرئى الى العين ، وكانوا يعرفون نظريات انعكاس الأشعة وانكسارها ، وقد اكتشف الحسن الشكل المنحنى الذى يأخذه الشعاع فى سيره فى الجو ، وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة فى الأفق ، وكذلك نراهما فى الغرب بعد أن يغيبا بقليل .

« إن نتائج هذه الحركة العملية تظهر جليا بالتقدم الباهر الذى نالته الصنائع فى عصرهم ، فقد استفادت منها فنون الزراعة فى أساليب الرى والتسميد وتربية الحيوانات، وسن النظامات الزراعية الحكيمة، وإدخال زراعة الأرز والسكر والبن، وقد انتشرت المعامل والصنائع لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن . وكانوا يذيبون المعادن ويجرون فى عملها على ما حسنوه وهذبوه من صنعها وسبكها .

«وإننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر ، ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهباً حديثاً ،كان يدرس فى مدارسهم . وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا اليه ، وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن أيضاً » انتهى كلام (دريبر) .

وقال العلامة الدكتور (جوستاف لوبون) الفرنسى فى كتابه (تمدن العرب) :

«العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع . فقد أكسبت علومهم لصنائعهم جودة عظيمة جداً ، وإننا وإن كنا لم نزل نجهل أكثر الطرائق التى سلكوها لذلك ، إلا أننا نعرف نتائجها وآثارها ، فنعرف مثلا أنهم احتفروا المناجم واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب ، وأنهم برعوا جداً فى الصباغة ، ومهروا فى صقل الفولاذ مهارة بعيدة المدى ، وأنهم فى كثير من فنون الصنائع قد برعوا براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن » (تأمل) .

وقال العلامة (جيبون) المؤرخ الانجليزى المشهور عند ذكره الحماية والرعاية التى بذلها المسلمون للعلوم :

«كان من أثر تنشيط الأمراء المسلمين للعلم أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة التى بين سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة ، ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتى ألف دينار لتأسيس كلية علمية فى بغداد ، ووقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنوياً ، وكان

عدد طلبتها ستة آلاف لا فرق فيهم بين غنى وفقير » الخ الخ .

وبعد فأقول: لو أردت نقل مايقع تحت يدى من أقوال المؤرخين والعلماء الاجتماعيين فى هذا الباب لملأت مجلدات ضخمة ، فلأكتف بما قدمت فانه يكفى فى دحض قولهم إن الاسلام لم يثبت أنه دين ترق.

المرأة والرق فى الاسلام

قال صاحب كتاب (مسائل فى الدين) فى معرض انتقاده الاسلام: إنه يجيز الرق وتعدد الزوجات ويسهل الطلاق للرجل ، وإن ما تعانيه المرأة المسلمة من حالتها السيئة يعود اليه . فنرد على هذه الشبهات على حسب ترتيبها فنقول :

وجد الاسترقاق منذ وجد الانسان ، فان القوى يغلب الضعيف ويستعبده . وقد شوهد الاسترقاق لدى بعض طوائف الحيوانات وأخصها النمل ، فان بعض أنواعه يأسر البعض الآخر عقب إغارته عليه ويستخدمه .

وقد كان المصريون الأقدمون والبابليون والبراهمة الهنديون والفرس يتخذون الرقيق ويعاملونه بقسوة .

وكان اليونانيون يتخذونه أيضاً ، وقد أقره أرسطو وأفلاطون وغيرهما من كبار الفلاسفة الاغريق الأولين .

أما الرومانيون فقد توسعوا فى الاسترقاق إلى حد بعيد . واتفقت جميع الأمم القديمة على معاملة الأرقاء بأشد ضروب القسوة، وعلى الحصول

على الرقيق بكل الوسائل الممكنة، لا فرق بين مشروع وغير مشروع
وقد أقر الاسرائيليون الاسترقاق على ما كان عليه ولم يتناولوه بأقل تغيير .

ولما جاءت الديانة المسيحية أقرت الاسترقاق وعدته شرعياً . جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر فى صفحة ٨٦٥ من المجلد السابع:

« الديانة المسيحية لم تستنكر الاسترقاق فى ذاته ، ولم تعمل على إبطاله ، فان شرعيته لم تكن قط لديهم موضعاً للبحث » انتهى .

ولدينا نصوص عن بعض القديسين يشيرون فيها على العبيد بوجوب إطاعة ساداتهم والصبر على حالاتهم ، ويذكرون لهم بأن استرقاقهم مستند إلى أصول إلهية .

وقد ذكر العلامة دريبر الأستاذ بجامعة نيويرك بأمريكا أن آباء الكنيسة كانوا يكاثرون الكونتات فى اقتناء الأرقاء .

وأول قانون صدر لتخفيف ويلات الاسترقاق كان قانون الامبراطور بترونيا الرومانى ، وهو يحرم على السادة إلزام أرقائهم بمقاتلة الوحوش إلا باذن من القاضى .

وفى عهد الامبراطور انتونان الرومانى صدر أمر يقضى بأن من يقتل عبده يعاقب بغرامة .

ثم صدر قانون على عهد الامبراطور كلوبوس يعتبر فيه قاتل العبد مرتكباً لجناية القتل ، ومات هذا القانون بموته .

وأول قانون صدر فى شأنهم بعد القرون الوسطى كان سنة (١٦٨٥) وقد نص فيه على أنه إذا اعتدى أحد الزنوج بأقل إكراه على سيده

أو أحد الأحرار أو ارتكب أخف السرقات فان جزاءه القتل .

وقد أصدر الانجليز فى ذلك العهد قانونا بأن العبد إذا أبق واستمر فى إباقه أكثر من ستة أشهر فجزاؤه القتل .

وصدر فى عهد الملك لويز الرابع عشر الفرنسى أى فى القرن الثامن عشر قانون جاء فيه هذه العبارة : « إن من توفية حق النظام أن لا نتنازل عن احتقار الجنس الأسود مهما كانت منزلته ، وقد حصل التصميم على إبقاء الحكم الاعتبارى الذى يحرم ذوى الألوان وذريتهم من مزايا الجنس الأبيض إلى أبد الآبيد » .

هذا كله كان حاصلا فى أوربا وأمريكا حتى سنة (١٧٨٠) ثم استمر لى سنة (١٨٨٠) حيث قامت انجلترا بحملتها لأبطال الاسترقاق .

أما الاسلام فقد كان مجيئه عهداً ميموناً للأرقاء ، كما كان عهداً ميموناً للعالم كله . فهو لم يكتف بالتوصية بهم والتلطف فى معاملتهم ، ولكنه ساواهم بالأحرار ، وقرر أن من قتل عبداً قتل به ، وجعل للأرقاء حقوقاً فى مستوى حقوق الأحرار .

صدور مثل هذا التشريع فى جزيرة العرب ، وناهيك بتغلغلها فى الاسترقاق وامتهان الأرقاء ، يعتبر من أدل الدلائل على سماوية الاسلام . فلا القرن الذى أنزل فيه ، ولا عادة العرب فى ذلك العهد ، ولا الرأى العالمي العام فى الاستخفاف بالعبيد ، كان مما يسهل صدور نصوص فى شريعة كالشريعة الاسلامية تخالف هذا الاجماع المحبوك الأطراف ، وتهب للأسرى الذين ليس لهم من يطالب بحقوقهم الضائعة حقوقاً لم يمثلها مشترع إلى اليوم !

اعترف الاسلام قبل كل شيء بأن الأبيض والأسود سواء، كما أن العربى والأعجمى سواء كذلك أمام القانون ، فقال عليه الصلاة والسلام: « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ، فهدم بهذا الأصل الأصيل حوائل الألوان التى كانت تحول دون إقرار العدل فى نصابه فى جميع البلدان .

ثم قرر للأرقاء الحقوق نفسها التى للأحرار ، بل جعل للأرقاء — وهو أمر مدهش ودال على غاية التلطف بالضعفاء — مزايا ليست للأحرار ، وذلك أن العبد إذا ارتكب جريمة فعليه نصف ما على الحر من العقاب .

نعم أقر الاسلام الاسترقاق، وهو بذلك قد سلك طريقته فى أخذ الأمور الاجتماعية بسنة التدريج ، لأنه كان لا يستطيع إبطال أمر أجمعت عليه الأمم كافة كأساس من أسس العمران ، وارتضته جميع الأديان ، وكان متأصلا فى الأمة العربية إلى حد بعيد ، ولكنه حيال هذا الاقرار عمد إلى تأصيل أصول تعتبر مهيئة لالغائه بدون حرج ، حين يقتضى نظام الاجتماع ذلك . وهى(أولا)إيصاؤه بهم فى مواطن كثيرة من الكتاب والسنة ، فقال تعالى : « وبالوالدين إحساناً ، إلى قوله : وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً » .

وقد بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الايصاء بهم حتى قال وهو يجود بنفسه : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

(ثانياً): مساواتهم بالأحرار ، ورفع ما بينهم من التمايز فى الحقوق، وحكمه بأخوتهم الانسانية لساداتهم ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« إخوانكم خولكم (أى أن أرقاءكم الذين يتخولونكم بالخدمة إخوانكم) جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس » .

وبما أنهم أصبحوا للأحرار إخوانا بحكم هذه الشريعة الألهية ، فلا يصح أن يدعو السيد رقيقه عبداً ولا رقيقته أمة،فقال عليه الصلاة والسلام : « لا يقل أحدكم عبدى ولا أمتى ولكن ليقل فتاى وفتاتى وغلامى » .

وزاد النبى صلى الله عليه وسلم الأرقاء إيصاء بهم ، لحسن للناس تعليمهم وتزويجهم ، فقال : « من كانت له جارية فعلمها وأحسن اليها وزوجها كان له أجران »

سرت هذه التعاليم فى المسلمين الأولين ، وجرى عليها النبى صلى الله عليه وسلم بالعمل، فولى بلالا، وأصله رقيق حبشى ، المدينة، وفيها وجوه العرب وساداتهم . وولى مولاه أسامة بن زيد قيادة الجيش وفيه أبو بكر وعمر .

ورأى أبو هريرة رجلا على دابته وغلامه يسعى خلفه فقال له : « احمله خلفك ياعبد الله ، فانما هو أخوك وروحه مثل روحك » .

ولما ذهب أمير المؤمنين عمر إلى الشام ليبرم معاهدة مع أهل دمشق استصحب رقيقاً له ، فكان يركب هو مرحلة ، ثم ينزل ويأمر رقيقه بالركوب ويمشى خلفه . ولما وصل الى دمشق كان الدور فى الركوب لغلامه ، فقابل الناس على هذه الصورة .

وقد أرسل أبو عبيدة القائد العام لجيش أبى بكر فى الشام جنوداً

لفتح مدينة وجعل قائدهم زنجياً، تأسيا بما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعث عمرو بن العاص إلى المقوقس، عظيم القبط فى مصر، وفداً ليتخابر معه فى أمر الصلح على رأسه عبادة بن الصامت وهو زنجى أسود، فلما وقعت عين كبير القبط عليه، قال نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره. فقالوا جميعاً: «إن هذا أفضلنا رأيا وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا».

وقد وصل الأرقاء لدى المسلمين إلى أعلى المناصب، فكانوا وزراء للدولة، وتولوا الملك أيضاً.

علمنا كل هذا، وهو أغرب ما نرويه فى تاريخ الاسترقاق، فهل عمل الاسلام على حصر دائرته، وهيأ العوامل لابطاله، حين يصبح فى عرف الاجتماع امراً مستنكراً؟

نعم: فانه حصره فى دائرة الحروب المشروعة، وعلق أمره بولى الأمر، ومعنى هذا أن لا استرقاق إلا فى حرب. أما ما يجتلب بوساطة النخاسين من طريق الاختطاف والتصيد، فلا يجيزه الشرع الاسلامى ولا يعتبره، حتى أن أحد العلماء العاملين أراد فى القرون الأخيرة أن يشترى عبداً فأعوزه، لعدم انطباق ما لديه من نصوص الشريعة على من قدموا إليه بدعوى أنهم أرقاء وما هم إلا مختطفون من أحضان أهليهم.

وقد جعل الاسلام أمر الاسترقاق فى يد حاكم المسلمين، تذرعاً لبطلانه حين تستعد الشعوب لذلك. فان للحاكم أن يتخذ الأسرى، وأن يقبل منهم الفدية، وأن يمن عليهم بالحرية بعد أن تضع الحرب

أوزارها . فليس هنالك تحتيم فى استرقاقهم ، فان وصل الناس إلى مستوى من الشعور يستنكرون فيه الاسترقاق فما على حاكم المسلمين إلا الامتناع عن إجازته . فيبطل، كما حصل منذ أن عمت الدعوة بالكف عنه ، فان المسلمين قابلوا هذه الدعوة بقبول حسن ، ولم يروا فيها منافاة للشريعة ، شأنهم فى كل تجديد يراد به خير الانسانية .

هذا كله يعتبر من الانقلابات التشريعية التى لم تطف بخيال أكبر المشترعين ، ولا أجل الفلاسفة فى عصر من العصور . فهل يصح بمؤلف أن يقلب هذه الحقائق الضخمة فيصم الدين الذى مصدره هذا النور الباهر بأنه كان يؤيد الاسترقاق ويعمل على نشره ، وقد أريتك من سيرته حياله ما يصغر فى عينيك كل عظيم فى العالم الانسانى لم يفكر فى مثل ما فكر فيه خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وحده ؟

الطلاق وحقوق النساء فى الاسلام

ليس فى تاريخ التطورات التشريعية ما هو أعجب مما أحدثه الاسلام فى الشئون النسوية ، فقد أوجد فى حالتها انقلاباً لا يزال بينه وبين أرقى الأمم بون بعيد .

ماذا كانت حالة المرأة فى القرن السابع للميلاد ، وهو العهد الذى بعث فيه خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ؟

كانت المرأة مستعبدة فى كل مكان ، وليت ذلك كان بالمعنى المعروف للعالم اليوم ، ولكنها كانت ضحية للغطرسة والقسوة الى أبعد الحدود .

فلا أقول إنها كانت محرومة من جميع الحقوق الطبيعية ، وكانت مملوكة لزوجها الخ الخ . فهذه كلها عبارات لا تؤدى ما كانت عليه المرأة فى أوروبا وفى العالم كله . إنها إذ ذاك كانت أقل من أن يؤتى بجانب اسمها بكلمة حقوق ولو فى معرض النفى ، لأنها كانت معتبرة جسداً لا روح له !

نعم : إنه قد اجتمع مجمع كبير فى رومية وبحث فى شئون المرأة فقرر أنها كائن لا نفس له ، وأنها لن ترث الحياة الأخروية لهذه العلة ، وأنها رجس يجب أن لا تأكل اللحم ، وأن لا تضحك ، بل ولا أن تتكلم ، وعليها أن تمضى جميع أوقاتها فى الصلاة والعبادة والخدمة .

ولأجل أن يمنعوها الكلام جعلوا على فمها قفلا كانوا يسمونه موزلير (Muselière) ، فكانت المرأة من أعلى الأسر وأدناها تسير فى الطرقات وفى فمها قفل ، وتروح وتغدو فى دارها وفى فمها قفل، قفل من حديد ! وهذا غير العقوبات البدنية التى كانت تعرض لها المرأة باعتبار أنها أداة الاغواء ، وآلة التسويل،يستخدمها الشيطان لافساد القلوب ، (راجع المجلد الحادى عشر من مجلة المجلات الفرنسية) .

أما فى بلاد العرب فكانت المرأة فى عداد البهائم ، تورث مع ماشية زوجها وتصبح ملكا لورثته ، وكانت تجبر على الفسق والتهتك لتزيد فى ثروة المسيطر عليها ، وكان للرجل أن يختار من النساء العدد الذى يرضاه لنفسه بلا تحديد .

وهل كان لها حق من الحقوق المعروفة الآن ؟ لا ، حتى ولا فى وراثة أبويها ، وهل ترث بهيمة مجردة من الروح ؟!

نعم رويت عن العرب أشعار فى الغزل والتشبيب، ولكن هذا كان لا يعدو المناطق البهيمية من النفس ، وقد كان العربى يتغنى بفضائل ناقته وحصانه ، وهذا ما كان ليمنعه أن يطلق سراحهما ليموتا جوعا متى بلغا الدور الذى لا ينفعانه فيه .

جاء الاسلام والعالم على ماوصفت لك ، فكان مجيئه عهدانقلاب فى تاريخ المرأة لم يسبق له مثيل فى أطوار أمة من الأمم.

نعم : أدرك نساء روميه عهداً فى أواخر عهدها بالوجود يحتمل أن يعده بعضهم عهدا ذهبياً لهن ، والواقع أنه كان من أتعس العهود عليهن وعلى دولتهن . فقد كانت فسدت نفوس الرومانيين فى ذلك العهد بطرا من سعة السلطان الذى أوتوه ، الى حد أنهم أصبحوا لا يحلمون فيه بغير المتع الجسدية ، واللذات البهيمية، فأطلقوا للنساء العنان لاليكن نساء كاملات يقمن على أحكم الأصول ، ويربين أولادهن على أرقى المبـــادىء ، لا ، ولكن ليكن آلات شهوات ، وأدوات بذخ وخلاعة . قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر :

«فى الأيام الأولى من الجمهورية الرومانية كانت المرأة ملازمة بيتها تغزل فيه الصوف ، ولكن البذخ تسرب إلى روميه شيئا فشيئاً حتى قام (كاتون) ينذر بالخطر المحدق الذى سيلتهم كل شىء . وبعد ذلك بقليل لم يقف البذخ والترف عند حد» .

ثم أردفت دائرة المعارف ذلك بقولها : «إن كاتون لم ينجح فى دفاعه عن ذلك القانون ، (القانون المانع لتهتك المرأة) ، ولكن إنذاراته تحققت تماما» ، أى أن الدولة الرومانية زالت من الوجود

وانقلبت حالة المرأة، فدخلت فى دور من الأسر لازمها نحواً من ألف سنة، حتى ولد العلم فعمل على إنقاذها منه يسيراً يسيرا، حتى تم لها ما يراها الناس عليه اليوم.

ولكن الاسلام أحدث انقلابا فى حالة النساء لا من ناحية اتخاذهن آلات للشهوات، ولكن من ناحية إحياء حقوقهن الطبيعية، وإحلالهن من المجتمع فى المكان اللائق بهن، حيث تظهر خصائصهن وتشرق مزاياهن، ليتم للمجتمع جميع عوامل التكمل والوصول إلى أبعد غايات الترقيات الاجتماعية، فأصل لبلوغ هذه الغاية أصولا جعلها فى مستوى العقائد الأولية. منها أن المرأة والرجل عضوان متكاملان خلقا ليؤلفا الأسرة، ويعيشا على أكمل حال من التواد والتعاطف، فقال تعالى: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها، وجعل بينكم مودة ورحمة».

وبما أن هذا الجنس من أنفسنا أى منا، كان جديراً أن يكون له ما لنا وعليه ما علينا: «من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون».

نعم وقد راعى الشرع الاسلامى ذلك، فجعل لهن حقاً فى الميراث ووهبهن جميع الحقوق المدنية التى للرجال، حتى حق التملك والتعامل على ضروبه كافة، وفتح لهن جميع باحات العمل من تجارة وصناعة الخ، ولم يوصد فى وجوههن باباً من أبواب الحياة، غير باب التبرج والتهتك. وليس فى العالم من يلومه على ذلك، ولا نظن أنه يأتى جيل يلومه عليه، مهما توسعت الانسانية فى محاباة المرأة.

إذا كانت الديانة الاسلاميـــة اعتبرت المرأة إنسانا فى مستوى الرجل ، فهل أباحت لها ترقية مواهبها العقلية ، أم وضعت أمامها حداً لاتتعداه ، كما فعل العالم كله إلى ماقبل قرن واحد فقط ؟ أليست كانت الامم تحرم عليها دخول الجامعات ، وتوصد فى وجهها باب التعليم العالى فى كل مكان ؟

نعم : أباحت الشريعة الاسلامية للمرأة التعلم ، بل جعلته فريضة عليها ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» ، بهذا النص صار الاسلام أول من قرر تعميم التعليم بين الجنسين على السواء ، وكان التعليم قبله محصوراً فى طبقة الأغنياء والمستبدين بالشعوب ، ولم تجعل الشريعة له حدا . فللمرأة أن تبلغ منه الحد الذى تريده ، وقد وصل بعض النساء إلى أعلى الدرجات فيه

أليس من المدهش أن يكون الاسلام قد أباح للمرأة ، متى وصلت إلى حد بعيد من العلم ، أن تكون قاضية ومفتية ، وأن تتولى التعليم العالى ؟

نعم كل هذا كان فى الاسلام ، وأشد منه موجباً للدهش ، أنه أمر بأن تشهد المسلمات الصلوات فى المساجد . وشئون المسلمين العامة التى كانوا يجتمعون فيها بدعوة أمرائهم لتقرير التدابير الضرورية ، حيال أى طارئ من الطوارىء الاجتماعية ، أو لأخذ رأى الناس فى سن سنة جديدة للمجتمع . لذلك كن يحضرن فى تلك المجامع ، وقد حدث مرة أن رأى أمير المؤمنين عمر أن يستشير النــاس فى تحديد صداق النساء للحيلولة دون المغالاة فيه . فلما أفضى برأيه إلى الناس وهو على المنبر ، تصدت له امرأة وناقشته فيه ، فعدل عن رأيه إلى رأيها .

أفلا يمكن أن تعد هذه سابقة فى الاسلام إذا دعانا داعى التطور الاجتماعى فى يوم من الأيام أن نمنح نساءنا حقوق الانتخاب والحصول على النيابة فى الهيئات التشريعية ؟

ومما اختص به الاسلام الذهاب فى احترام الحقوق الطبيعية للمرأة إلى حدود لم تدر فى خيال مشترع مدنى الى اليوم .

فالاسلام لم يكلف المرأة ، وهى زوجة ، بأى حق تؤديه للرجل غير حفظ عرضه ، وطاعته فى المعروف باعتبار أنه الرئيس الطبيعى للأسرة . فلم تكلفها الشريعة الاسلامية بخدمته ، ولا بخدمة أولادها ولا بخدمة نفسها أيضاً ، بل ولا بارضاع أولادها ولا حضانتهم ، ولكن الزوج ملزم بأن يوجد لها من يخدمها ، فان كان فقيراً تولى هو القيام بحاجاتها . فان ولد لهما طفل فعليه أن يستأجر له مرضعاً وحاضنة . فان قبلت والدته أن ترضعه وتحتضنه كان لهـــا على ذلك أجران : أجر الارضاع ، وأجر الحضانة ، إلا إذا كان الزوج فقيراً فيتسامح له الشرع فى أمر هذا الحق بضرورة الحال .

والمرأة المسلمة بتزوجها لا تفقد من استقلالها المالى شيئاً ، فتظل على حريتها فى التصرف بمالها وأملاكها ، وليس عليها أن تتقيد برأى زوجها فى معاملاتها الاقتصادية ، فتبيع أملاكها أو تؤجرها أوترهنها لا تصدر فى ذلك كله إلا عن إرادتها الشخصية .

هذا الحق لم تنله المرأة الغربية إلى اليوم ، فانها بزواجها تقع ، من ناحية تصرفاتها الاقتصادية، تحت وصاية زوجها ، فلا تستطيع أن تبيع وتشترى أو ترهن شيئاً من أملاكها إلا بتصديق زوجها . فان القانون

يهبه حقاً على أملاكها ليس لأبويها ولا لأحد أقربائها ، ولا شك فى أن هذا بقية من بقايا أسر المرأة فى الأزمنة المظلمة .

هذه الحقوق الممنوحة للمرأة المسلمة لم تحلم بها أية فلسفة إلى اليوم ، وقد منحها الاسلام للمرأة لا جزافا ولكن لرفع نير العبودية عنها ، وهو النير الذى لا تزال تحمله جميع نساء العالم إلى اليوم ، وبقصد وضع حقوقها الطبيعية موضعاً شرعياً لا يمكن نقله ولا تأويله .

فلو كان الاسلام يعتبر المرأة رقيقة لزوجها ، أو لو كان لا يعتد بحقوقها من ناحية عملية ، لما قرر فى أمرها هذه الأصول التى لا يوجد فى العالم الاسلامى من ينكرها أو يتأول فيها ، وقد أجمعت المذاهب الفقهية عليها إجماعا لا يتطرق اليه الضعف من أية ناحية .

إن الفيلسوف ليتولاه العجب ، وتأخذ منه الحيرة كل مأخذ ، إذا نظر إلى هذه الحقوق النسوية نظرة تشريعية واجتماعية محضة ، وعلم أن مصدرها بلاد العرب ، تلك البلاد التى كانت تمتهن فيها المرأة امتهاناً لا مذهب بعده . فلا حالة المرأة فى العالم كله ، ولا حالتها فى البلاد التى صدرت منها هذه الشريعة ، كانت فى القرن الذى أنزل فيه الاسلام توحى إلى أى مشترع ، حتى فى الأمم التى دخلت فى أرقى الأدوار التشريعية ، إصدار مثل هذه الأصول التى لم تصل اليها المرأة من أية نحلة كانت إلى عهدنا هذا .

لاجرم أن هذا من أدل دلائل الوحى الالهى ، لأن العقل المجرد لايستطيع أن يتعدى المناطق التى رسمتها له الحوادث ، وحدتها الأحوال المحيطة به .

بقيت مسألتا الطلاق وتعدد الزوجات، ندخرهما للفصل التالى إن شاء الله.

الطلاق وتعدد الزوجات فى الاسلام

الاسلام لم يوجد الطلاق، ولـكنه جاء فألفى العالم كله عليه منذ القدم، الا أمة أو أمتين فقط . فكان الرجل إذا غضب على إحدى نسائه طردها من داره لتذهب حيث تشاء دون أن يجد نفسه مطالباً حيالها بأى حق.

ولما نبه ذكر الأمة اليونانية، وازدهرت حضارتها، كان الطلاق شائعاً فيها بلا قيد ولا شرط.

وكان الطلاق لدى الرومانيين معتبرا من كيان الزواج نفسه. حتى أن القضاة كانوا يحكمون ببطلان الزواج إن اشترط كلا الطرفين عدم الطلاق فيه.

وكان الزواج الدينى لدى الاجيال الأولى للرومانيين يحرم الطلاق. ولـكنه فى مقابل ذلك كان يمنح الزوج على امرأته سلطاناً لاحد له. فيبيح له أن يقتلها إن فجرت، أو إن قتلت بعض أولادها، أو قلدت مفاتيح الدار، أو أدمنت الخمر. ثم رجعت دياناتهم فأباحت الطلاق، كما كان مباحا أمام القانون المدنى.

لما جاءت الديانة الموسوية حسنت من حالة الزوجة. ولـكنها أباحت الطلاق وتوسعت فى إباحته، وكان الزوج يجبر شرعا على أن يطلق امرأته إن ثبتت عليها جريمة الفسق، حتى ولو غفر لها هو تلك الجريمة. وكان

القانون يجبره أيضا على أن يطلق امرأته إن لبثت معه عشر سنين ولم تأته بذرية ؛ حتى ولو كان يؤثر البقاء معها .

أما المسيحية فقررت عدم جواز الطلاق إلا بسبب ثبوت جريمة الفسق ، أو طلبا للنسل فى حالة ثبوت العقم .

فلما شرع الاسلام ، أقر إمكان الطلاق مع التكريه فيه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . وهو إنما أباحه إذا وصل الزوجان إلى درجة من التباغض لا تمكن معها المعاشرة ، راميا بذلك إلى ضرورة سيادة التواد والتراحم فى الأسرة ، معترفا بأن فى الحياة منازعات لا يحسمها غير الفراق .ولكنه فى حالة الطلاق حاط المرأة بكل ما يعقل من ضروب الحماية ، فجعل من واجبات الزوج أن يسرحها باحسان ، وأن لا يرهقها أو يسلبها أمتعتها،وعليه أن يوفيها بمؤخر صداقها، وعليه أن ينفق عليها حتى تنقضى عدتها ، ولا يكون لديها مانع من التزوج بسواه . فان ادعت أنها لم تر الطمث كان على الزوج أن ينفق عليها حتى تعترف بأنها رأته ، ولو لبثت على إنكارها سنين ، كما هو مؤدى مذهب أبى حنيفة . وهذا ضرب من ضروب الحماية للمرأة . لم يسبق له مثيل فى ملة من الملل ، والغرض منه كبح الرعونة الرجلية عن الاستخفاف بأمر الزوجية ، واللعب باباحة الطلاق على ما يمليه الهوى .

وقد أوصى الاسلام قبل إيقاع الطلاق أن يلجأ الزوجان إلى التحكيم لاصلاح ذات البين ، فان لم يتسن للحكمين التوفيق بينهما عمدا إلى الطلاق باعتبار أنه المخرج الوحيد من الحرج بين الزوجين ،

فالطلاق فى الأسلام كما ترى مضيق عليه من الوجهة الشرعية، ناهيك أن آتيه يعتبر فى نظر الناس آتيا لأبغض الحلال إلى الله .

وإذا كان الاسلام قد اعترف بأن الطلاق أبغض الحلال، فهلا كان حرمه كما حرمته الديانة المسيحية قبله ؟

لا ، فان تحريمه يفضى إلى حرج شديد بين نفسين خلقتا لتعيشا مهنأتين غير منغصتين . والنزاع فى الحياة الزوجية مجلبة لكل ضروب الشرور ، وموحى الاسلام كان يعلم بأن الأمم المحرمة له بعد أن تبلغ رشدها ستضطر إلى إباحته ، غير معتدة بأوامر دينها ، وهو الأمر الذى حدث ، فان أكثر الأمم عمدت إلى إباحته فى القرن التاسع عشر، ومنذ ذلك الحين أخذ الطلاق فى الانتشار إلى حد لا يكاد يتصور ، وخاصة بالولايات المتحدة الأمريكية ، ولم يدر فى خلد أحد من المصلحين هنالك ولا فى أوربا أن يسعى فى إبطاله ، لأن الحياة المدنية لا يمكن أن تستقيم بدونه .

فالاسلام باباحته للطلاق والحالة هذه . وهو دين على أساسه مماشاة التطورات البشرية ، ومسايرة الانقلابات المدنية ، لتعديل مزاجها ، وتلطيف خشونتها ، لم يرد أن يكون دينا خياليا يقصره على المعابد ، ويكون بين الناس وبين العمل به عقبات لا يمكن تذليلها .

هنا يمكن أن يقول قائل : كيف يتفق أن يكون الاسلام قد أسبغ على المرأة حقوقا لم تنلها امرأة غيرها فى العالم ، كما تقولون ، وقد أعطى للرجل حقا صريحا فى تطليقها وهدم حياتها الزوجية فى أى وقت يريد؟

نقول : نعم ، إن الطلاق هذا كان يمكن أن يعتبر من الأمور الحائطة من كرامة المرأة المسلمة إذا كان الاســـلام لم يساوها بالرجل فيه .

فهذا الدين لم يمنح الرجل وحده حق الطلاق، ولكنه آسى بين الذكر والأنثى فيه، فقرر أن للمرأة أن تشترط فى عقد الزواج أن يكون حق الطلاق لها دون الرجل، فتصبح عقدة الزوجية فى يدها تحلها فى أى وقت تشاء. وقد استفادت كثير من النسوة من هذا الحق، فجعلن عصمتهن بأيديهن؛ وبقين مع أزواجهن على هذه الحالة، أو طلقنهم عند ما رأين أن الصواب فى الانفصال عنهم. وكل مأذون شرعى وكل محكمة شرعية تقبل هذا النوع من الزواج بدون قيد ولا شرط.

وفوق هذا فانه أباح للمرأة حق الاشتراط على زوجها فى حالة تزوجه عليها أو تطليقها، بأن يدفع لها تعويضاً ماليا أو غير ذلك. فاذا كان المسلمون قد أهملوا الاستفادة من هذه الحقوق الشرعية، ورضوا أن يجعلوا بناتهم تحت سيطرة الرجال، فلا يعيب شريعتهم ذلك، ولكن يصمهم هم بالتفريط فى حقوق بناتهم. ويخيل لى أنه لن يمضى وقت طويل حتى يتنبه الناس لهذه الحقوق فيستفيدوا منها، وبذلك تصبح الحماية التى يهبها الاسلام للنساء مضرب الأمثال فى مشارق الأرض ومغاربها.

هذا من أمر الطلاق. أما مسألة تعدد الزوجات فان الاسلام لم يوجدها أيضا، ولكنه جاء فوجد الناس كلهم معددين إلا الأمة المسيحية. وكان العرب فى جاهليتهم من أكثر الأمم تعديدا للزوجات؛ فرأى الاسلام أن يتوسط فى الأمر، فجعل للتعديد حدا لا يتعداه. وقرر أن من أقدم على هذا الأمر لزمه العدل بين الزوجات، حتى قال الله تعالى: « فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة »، وقال النبى صلى الله عليه وسلم: « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما بعث يوم القيامة وشقه ساقط »

على أن للاسلام من إقراره مبدأ التعدد غرضا بعيد الغور فى الاصلاح الاجتماعى لا يدركه إلا نافذو البصر فى العلم، وهو أنه علم أن من الرجال من لا يمكن أن يردعهم عن المضى فى شهواتهم رادع، وأن العقوبات المشددة والنصائح المؤكدة، لا تكفى فى كبح اندفاعاتهم الجسدانية، فأباح لهم التعدد لا ليجد هؤلاء لهم مخرجا من الحرج فقط، ولكن ليحمى المرأة من شر مستطير وقعت فى مضايقه المرأة الغربية، ولقيت فيه من العنت ومرارة العيش ما لقيت.

نعم: لأن أمثال أولئك الرجال فى البيئات الغربية، حيث لا يسمح بتعدد الزوجات، يتخذون صواحبات يسمونهن (بالمتريسات)، ومهما أساغ المجتمع رؤية هؤلاء (المتريسات) والعلم بأمرهن، فانهن لم يخرجن فى اعتباره عن طبقة المتجرات بنفوسهن، والراضيات بعيشة الهون محرومات من جميع الحقوق النسوية.

ولكن الاسلام لم يرض للنساء هذه الدركة الساقطة من الحياة. ولم يشأ أن يراهن قط عاهرات، ولا فى حكم العاهرات، محرومات من كل ضروب الحماية والحقوق الشرعية، فرمى بشرعية إمكان تعديد الزوجات إلى أن لا تكون المرأة فى حالة من أحوالها محرومة من حقوق تطالب بها أمام القضاء، وإلى أن لا تسقط من أوج كرامتها الجنسية إلى حضيض النسوة المجردات من حقوقهن الاجتماعية.

نعم: إن فى أوروبا وأمريكا عشرات الملايين من النسوة يعشن على حالة (متريسات) أو شبه (متريسات)، وقد يرزقن بأولاد يحرمون هم أيضا من حقوق الوراثة، وقد تسببت من هذه الحالة مشاكل

اجتماعية لا تقف عند حد ، جعلتها الجمعيات النسوية من أدلتها فى وجوب إلحاق الأبناء الطبيعيين بآبائهم غير الشرعيين ، ولا يزلن إلى اليوم يجاهدن فى هذه السبيل ولم يصلن إلى شىء .

وبما أن غلبة الشهوات متأصلة فى طبيعة الكثيرين من الرجال ، وأن اتخاذ (المتريسات) لا مناص منه فى كثير من الأحوال ، فقد احتاط الاسلام لهذه الحالة باباحة تعدد الزوجات مع التكريه فيه كما رأيت ، لا ليشبع الغريزة البهيمية للرجال ، ولكن ليحمى المرأة من الوقوع فى حالة بؤس تتجرد فيها من جميع الضمانات الاجتماعية، وتبرز للمجتمع فى عداد النسوة الساقطات . فهو يريد أن تعامل المرأة فى جميع الأحوال باعتبار أنها زوجة شرعية ذات حقوق ، لا باعتبار أنها ساقطة من كل حماية من القانون .

فمسألة التعدد لو نظر اليها من هذه الناحية ، تصبح فى نظر العارفين بأدواء الاجتماع وطبائع الانسان، من النظم العادلة الموضوعة لتدارك مشاكل اجتماعية غاية فى التعقد وسوء المنقلب ، وهو يشكر على إساغتها على كراهيته لها ، من باب بعض الشر أهون من بعض .

فأى الحالتين أجدى على المرأة وأحفظ لكرامتها : أن تصبح زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة لرجل تستطيع أن تطالبه بنفقتها ونفقة أولادها ، وترثه إذا مات ويرثه أولادها منه ، أو تضحى فى عداد المبتذلات لا حق لها ضده ، ولا ترثه إذا مات ولا يرثه أولادها منه ، فتمشى هى وهم فى حالة من البؤس يصيرون فيها عالة على الناس ، مجردين من الكرامة فى نظر العشراء والخلطاء ؟!

إن العالم الاجتماعى إذا تأمل فى هذا التشريع يأخذه العجب،وتلم به الحيرة ، من صدور هذه الحكم الباهرة من رجل أمى كان يعيش فى القرن السابع للميلاد ، فلا يتمالك نفسه من الاعتراف بأن هذا نور وصل اليه من السماء ، لا سيما وأحوال العالم كانت لاتقتضى مثل هذا التجديد الذى لم يحلم بمثله فلاسفة اليونان المقدمون ، ولامشترعو الرومان الأولون ، بل ولا الاجتماعيون المعاصرون .

هذا ماعن لنا كتابته فى هذا الباب . وفى الفصل التالى ننظر فى بقية ما أتى به مؤلف كتاب (مسائل فى الدين) من الشبه ضد الاسلام إن شاء الله .

علاج الفقر فى الاسلام

يقول صاحب كتاب (مسائل فى الدين) فى شبهته التاسعة : إن محمداً لنشوئه فى الحرمان والفقر كان يفكر فى الفقراء،فأوصى بالتصدق عليهم ، وإلى ذلك تعزى كثرة المتسولين حيث تدرس تعاليم الاسلام

وهذه فى الواقع ليست بشبهة ، ولكنها تنطوى على معجزة اقتصادية لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، لمن يتذوق الأمور الاجتماعية، ويفهم مكان العوامل الاقتصادية منها .

فلو كان يعلم مؤلف ذلك الكتاب أنه ستخلق فى القرن التاسع عشر مسألة تضطرب لذكرها أعصاب العالم ، وتجتمع لها المؤتمرات تتلوها المؤتمرات ، وتقوم من أجلها حرب عوان لا يخمد لها أوار بين العمل ورأس المال ، وتحترق فى سبيل حلها مخاخ لرجال

ممتازين ، تسمى (مسألة الفقر) ويشار اليها فى عرف الاجتماعيين بكلمة (Paupérisme) ، قلنا لو كان يعلم ذلك لأضرب عن ذكرها،لأنها تثبت لخاتم النبيين معجزة من أكبر المعجزات الاجتماعية . أليس تفكيره فيما كان لا يفكر فيه الناس على عهده ، وكثرة تقليبه لمسألة لم يشعر الناس بخطرها ، وإن كانت من أكبر عوامل الانحلال الاجتماعى فى كل مجتمع . يعتبر من أعجب الأمور ، ويدل على أن دينه جعل ليبقى دين البشرية ما بقى الانسان ؟

فاصغ إلى أحدثك عن تاريخ مسأله الفقر . وما آلت اليه ؛ وما عولجت به ، مستهديا بمقررات علم الاجتماع ، فأقول :

فى أية أمة قديمة أجال الباحث نظره ، وجد طبقتين من الناس لاثالثة لهما: الطبقة الموسرة ، والطبقة المعسرة ، ووجد بازاء هذا أمراً جديراً بالملاحظة ، وهو أن الطبقة الموسرة تتضخم إلى غير حد ، والطبقة المعسرة لاتفتأ تهزل حتى تلتصق بأديم الأرض معييه رازحة ، فيتداعى البناء الاجتماعى لوهن أساسه ، وقد لايدرى المترفون من أى النواحى خر عليهم السقف !

كانت مصر فى عهدها القديم جنة الله فى الأرض ، وكانت تنبت من الخيرات ما يكفى أضعاف أهلها عدداً ، ولكن الطبقة الفقيرة فيها كانت لا تجد ما تأكله . . . لأن الطبقة الموسرة كانت لا تترك لهم شيئا غير حثالة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فلما أصابتها المجاعة على عهد الأسرة الثامنة عشرة ، باع الفقراء أنفسهم للأغنياء،فساموهم الخسف، وأذاقوهم عذاب الهون .

وفى مملكة بابل ونينوى ، كان الأمر على ما كان عليه فى مصر ، لاحظ للفقراء من ثمرات بلادهم ، على أنها كانت تسامى بلاد الفراعنة نماء وخصوبة ، وكانت تجرى مجراها فارس .

أما لدى الأغارقة الأقدمين ، فكان الأمر لا يعدو ما تقدم ، بل تروى عن بعض ممالكهم أمور تقشعر من هولها الجلود . فقد كانوا يسوقون الفقراء بالسياط إلى أقذر الأعمال ، ويذبحونهم لأقل الهفوات ذبح الأغنام .

أما فى اسبارطا من ممالكهم ، فقد كان الموسرون تركوا للمعسرين الأرض التى لاتصلح للانبات . فذاقوا ألوان الفاقة كلها غير مرحومين

وكان الأغنياء فى أثينا يتحكمون فى الفقراء إلى حد أنهم كانوا يبيعونهم بيع العبدان إذا لم يؤدوا لهم ما كانوا يفرضونه عليهم من الأتاوات .

أما فى رومية منبع الشرائع والقوانين،ووطن الفقهاء والأصوليين فقد كان الموسرون مستولين على العامة ، ومتميزين عنهم تميزاً يجعل العامة بازائهم كالطائفة المنبوذة لدى الهنديين ، وما كانوا يرضخون لهم بصبابة إلا بعد أن ينال منهم الاعياء ، فيهجرون المدن ، ويقاطعون الجماعة مرغمين .

قال العلامة المؤرخ « ميشليه » فى المملكة الرومانية من هذه الناحية :

«كان فيها الفقراء يزدادون كل يوم فقراً،والأغنياء يزدادون غنى، وكانوا يقولون : ليهلك الوطن وليمت جوعا إذا لم يستطع أن يذهب

إلى ساحات القتال »

فلما زالت الدولة الرومانية وقامت على أنقاضها الممالك الأوربية ازدادت حالة الفقراء سوءاً . فكانوا فى جميع أصقاعها يباعون كالماشية مع أراضيهم .

فلما هل القرن التاسع عشر وولدت العلوم الاجتماعية ، وتنبهت العقول لعوامل التأليف والتفريق فى الأمم ، شعر الكافة بفداحة داء الفقر ، وأدركوا أنه هو الذى ينخر عظم الجماعات ويفسد كيانها العام

فارتأى بعضهم أن يحث الأغنياء على التصدق على الفقراء. فاعترض عليهم بأن هذا يفضى الى التواكل والتكاسل ، فيخسر المجتمع جهود عماله ونشاطهم .

واستحسن بعضهم أن تفتح لهم أبواب المهاجرة. وأن يدعوا اليها، فاعترض عليهم بأن هذا يفضى إلى نزوح الفئات النشطة إلى الخارج، وفيه خطر شديد .

فاهتدى أخيراً إلى تأليف الجمعيات التعاونية ، فأثمرت خير الثمرات ، فان هذه الجمعيات استطاعت أن تدرك حاجات العاملين وجهات ضعفهم ، وأن ترفع أمورهم للحكومات ، باذلة السعى فى استصدار تشريعات مفيدة لوجودهم، ومحسنة لأجورهم، وإن كانت كثيرا ماتثير القلاقل وتمخض مجتمعاتها مخضاً عنيفاً . وهذه المسألة أكبر المسائل الاجتماعية خطرا ، وأشدها شغلا لأذهان الناس : ناهيك أنه قد أصبح اليوم فى الأرض نحو من ثلاثين مليوناً من العمال فى حالة عطل مطلق ، لا يجدون ما يعملون ولا ما يأكلون . وقد اضطرت الحكومات أن تنفق عليهم

من مال الأمة ، فهل يعد مؤلف كتاب (مسائل فى الدين) هذه الاعانة صدقة تغرى بالكسل وتكثر المتسولين ، حيث تنتشر تعاليم هذه المدنية الساحرة ؟ !

لهذا السبب كان يهتم خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم بأمر الفقر والفقراء ، فانه قدر الفقر أحسن تقدير فقال : «كاد الفقر أن يكون كفرا» وقال : «اللهم إنى أعوذ بك من الفقر» . ألا ترى كيف أن هذا الفقر يهدد اليوم أكبر مدنية أنتجتها الجهود البشرية بالتحطيم ويتوعدها بالمحق ؟ إن من لا يريد أن يرى هذا الأمر فهو يريد أن ينكر الشمس وهى فى كبد السماء .

فماذا فعل الاسلام حيال هذه المسألة الخطيرة ؟ أوجد نظاماً اقتصادياً استوعب فيه جميع الأصول العمرانية المزيلة من خطر الفقر، والمنجية من آثاره ، فأجبر الأغنياء على دفع صدقة عن أموالهم ، والصدقة فى عرفه هى الزكاة ، والزكاة ضريبة إجبارية على كل ذى مال تجبى منه باعتبار أنها أموال حكومية لأغراض اجتماعية ، فهى غير الصدقة التى تثبط الهمم وتغرى بالكسل . وقد جعل الاسلام أمر التصرف فى هذه الأموال للحكومة ، فهى التى تعمل بما تمليه عليها الحاجة الوقتية والحالة الاجتماعية . ومثل هذا الأخذ من الأغنياء قد لجأت اليه الأمم الغربية قاطبة اليوم باسم الضرائب على رءوس الأموال وعلى الدخل وعلى المواريث ، والغرض منها كلها تدارك حاجات الفقراء ، وقد بزهم الاسلام جميعاً وسبقهم بثلاثة عشر قرناً بتقريره نظام الزكاة . وقد قصد من ذلك إحداث رد فعل إزاء تضخم الأغنياء .

أما قول (ميشليه) إن الأغنياء فى كل مجتمع كانوا يزدادون غنى ، والفقراء فقرا ، فهذه الحركة الاندفاعية المستمرة من الأغنياء لا بد لها من حركة عكسية مستمرة مثلها ، ليحفظ التوازن من تعاكسهما . فما قرره الاســـلام من الزكاة يمنع من تركز المال فى أيدى رجال معدودين ، وحرمان الكافة منه حرماناً مطلقاً .

ولم يهمل الاسلام إزاء هذا الحل بقية الأصول العمرانية المخففة للفاقة ، فندب إلى المهاجرة ، فقال تعالى : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعة » .

وعنى عناية خاصة بالحث على الاجتماع للتعاون ، فقال تعـالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

فالاسـلام كما ترى قد مزج الأصول المخففة للفـاقة ، وجعل من مجموعها نظاماً آلياً محكماً يعمل فى المجتمع عمـل الأداة المنظمة للحركة الاقتصـادية . فمنع بفرض الزكاة تركز المال كله فى أيدمعدودة ، ومن بالحث على المهاجرة تصريف العدد الزائد من المجتمع إلى البـــلاد الأخرى تخفيفاً للضغط عليه . وجعل من حثه على التعاون هيئة تصلح للتوفيق بين العمل ورأس المال .

وقد حث الاسلام بجانب هذا على الصدقه الاختيارية ، لحاكى فى ذلك جميع الأديان ومذاهب الأخلاق ، فهو لم يبتكر هذه الفضيلة ولكنه أيدها وحض عليها ، وأبى أن تكون هذه الصدقة سبباً فى تكاسل بعض طبقات المجتمع . والدليل على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا هاجر اليه أفراد من جهات بعيدة ولم يجدوا لهم مرتزقا ، والأمة

فى أول تكونها ، أمرهم أن يقيموا بالمسجد ، فما زالوا يكثرون حتى بلغ عددهم أربعمائة . فكانوا إذا طرأ قتال خرجوا معه ، فاذا عادوا أووا إلى المسجد ، وكان الناس يتولونهم بالنفقة . فلما تولى عمر الخلافة واتسعت مملكة العرب ، صرفهم من المسجد قائلا : لقد احتفظ النبى صلى الله عليه وسلم بكم فى عهد لم تكونوا تجدون فيه مرتزقا ، ولكن اليوم قد اتسعت فى وجوهكم أبوابه ، فامضوا لشأنكم واعملوا مع العاملين .

وقد أخطأ مؤلف كتاب (مسائل فى الدين) فى دعواه أن محمداً كان عائشاً فى أول أمره فى الحرمان ، ولذلك حث على الصدقة، فانه لما توفى والده كفله جده عبد المطلب سيد قريش الذى كانت داره مثابة للغادين والرائحين . فلما مات جده كفله عمه أبو طالب،وهو من أشهر سادات قريش . ولم يكن النبى نفسه عاطلا عن العمل ، بل بدأ عمله وهو صغير فى الرعاية ، فلما ترعرع واشتد تعاطى التجارة . وما زال بها حتى بعثه الله رسولا للعالم كافة . ولم ينقل أنه كان على فاقة ، أو أنه كان محروماً من خفض العيش .

أليس كل ما تقدم يثبت أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان أكبر بناة الأمم ، وأعظم صاغة الشعوب ، إذ فكر ، وهو يقيم صرحه الاجتماعى الضخم ، فى مسألة الطبقات الاجتماعية ، فجاء بنظام اقتصادى هو عينه الذى هديت اليه الأمم فى القرن العشرين . لتتقى به انحلال وحداتها ، وتداعى أركانها ؟

وهنا أسمح لنفسى أن أشكر مؤلف كتاب (مسائل فى الدين)

إذ هاجنى بشبهته هذه لبيان معجزة للنبي لم يلاحظها السواد الأعظم من الناس ، ولها فى العصر الراهن من القيمة ما ليس لغيرها ، لاشتغال المفكرين كافة فى تدارك أحوال الطبقات الفقيرة ، وهذا من أغرب ما اتفق للمتناظرين .

دفع شبهات عن القرآن الكريم

يقول صاحب كتاب (مسائل فى الدين) فى شبهته الأخيرة عن القرآن الكريم : إنه مشحون بأخبار المشاهد الروحانية البعيدة عن العقل ، وإنه ينقصه البيان والترتيب ، وهذا من أعظم علل الأملال والارتباك لهذا الكتاب مما جعله غذاء عقيما لذويه .

ونحن نطلق كلمة شبهة على مثل هذه العبارات تسامحاً ، لأن التهم فيها غير معينة تعييناً واضحاً . فكل كتاب سماوى أو إنسانى يمكن رميه بهذه الوصمات بحق أو بباطل ، والذى يتصدى للرد عليها يضطر أن يجلو عنها الغموض الذى يحيط بها أولا ثم يعنى بمناقشة قائلها .

فهل يعنى صاحب كتاب (مسائل فى الدين) بقوله إن القرآن مشحون بأخبار المشاهد الروحانية البعيدة عن العقل ، أنه يكثر من ذكر الملائكة والجن والوحي والثواب والعقاب الأخرويين الخ الخ ؟ إن كان يعنى هذا فكل الكتب المعتبرة أنها سماوية تذكر كل هذه الأمور ، ومنها ماتوسع فيها إلى حد بعيد ، إذ أثبتت أن لله جسداً وتحيزاً ، وأنه قابل بعض الأنبياء وجها لوجه وتحدث اليهم . وأن منهم من مسك به ولم يفلته حتى حباه بلقب جديد . وقد وصفت هذه الكتب

الخالق بأوصاف المخلوقين ، فأسندت إليه الضحك والبكاء والندم والمحاباة والقسوة الخ الخ . على حين أن الاسلام قد قرر أنه دين العقل، وأنه لا يذكر شيئا يصعب فهمه ، ولم يكلف الآخذ به إلا بما يعقله ويستطيع التدليل على صحته ، وهذه ميزة ليست لدين غيره . فقد زعم حفظة تلك الأديان أن فيها ما هو فوق العقل ، وأنه يجب على الآخذ بها إهمال مواهبه الادراكية فى الأمور الاعتقادية ، والبون لا حد له بين الفريقين .

فالأجدر بنا ، مادامت هذه الشبهة من الغموض بهذه المنزلة ، أن ندعها حتى يعين صاحبها مراده منها .

أما قوله إن القرآن ينقصه البيان ، فهذا من أغرب ما سمعناه من الشبهات على هذا الكتاب الكريم . فان ساغ لمنكر أن يرميه بكل ما يطوف بخياله من التهم ، فلا يسوغ له أن يرميه بالتجرد من البيان . أما بلغه أن هذا الكتاب قد اعتبره العرب معجزاً فى نظمه ومعناه معا ، وأنهم قد قصروا عن الاتيان بمثل سورة منه وقد تحداهم بذلك تحديا ، فقال تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » ، وقال تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »؟

وقد سلم العرب بايمانهم به بأنه معجز حقا . وقد ساد هذا الرأى حتى فى العهد الذى بلغت فيه البلاغة العربية أوجها الأعلى بدخول

الأساليب الفارسية واليونانية والهندية اليها فى القرن الثالث للهجرة ، وقد وضعت مؤلفات تكشف عن أسرار بلاغته من فحول البلاغة أنفسهم ، وكل ما ألفه المؤلفون فى علوم البيان والبديع والمعانى اعتمدوا فيه على أمثلة القرآن ، باعتبار أنه ينبوع لا ينضب معينه لجميع ضروب البلاغات اللفظية والمعنوية ، فهل مؤلف كتاب (مسائل فى الدين) يمزح بقذفنا بهذه الشبهة ، أم هو يقول ما يعتقده فيدلنا بذلك دلالة ناطقة على أنه لا يعرف العربية ، وأنه لا يحسن النقل عن المستشرقين الذين عرفوها ، وشهدوا للقرآن ببعض ما يستحقه من هذه الناحية ؟

بقى قوله إنه خال من الترتيب ، يريد بذلك أنه غير مرتب على فصول وأبواب كسائر الكتب ، فلم توضع أغراضه كل فى الفصل أو الباب الخاص به ، بل مزجت مزجا غير مراعى فيه نظام التأليف . قال: وهذا سبب الملل الذى يعترى سامعه وقارئه ، وعلة للارتباك فى فهمه مما جعله غذاء عقيما لذويه . وفاته أن هـذا الكتاب لو كان مختلقا لتوخي فيه مؤلفه الترتيب الذى يتطلبه صاحب كتاب (مسائل فى الدين) . فقد جرت العادة أن يجلس الذى يريد أن يضع كتابا إلى ناحية ويفكر فى نظامه وأغراضه ، فيجعل لكل طائفة من المواد فصلا ؛ ولكن القرآن ليس بكتاب وضعى ، ولكنه وحى نزل عند حدوث الحوادث وطروء الطوارىء ، فمنه آيات نزلت للدعوة إلى الدين ، وأخرى للرد على المنكرين ، وغيرها للاجابة على السائلين ، وسواها للفصل بين المتنازعين ، وطائفة للحث على الجهاد ، ومثلها

للحض على مكارم الأخلاق الخ الخ مما لا يكاد يحصى ، وكلها نزلت نجوما ومرتبة على الحوادث الوقتية . فلقد كان الوحى لدى الطائفة التى أخذت بالاسلام لأول عهدها بمنزلة العقل المدبر لها ، تستهدى به فى المشكلات ، وتسترشد به فى تذليل العقبات ، وتتحرك تحت إملائه نحو ما جل وما حقر من الأغراض ، إلا ماترك لارادتهم فى بعض الشئون ، تمرينا لهم على الاكتفاء بعقولهم متى استعدوا له بعد حين فهو مجموع إشراقات من الوحي اقتضتها الحوادث وقت حدوثها ، وهذه الحوادث تتكرر فى كل جيل ، وتتردد فى كل مجتمع ، وكثير من آيات القرآن نزلت فى إصلاح القلوب ، وتهذيب النفوس ، وتقويم الأخلاق ، وبعث الهمم إلى جلائل الأعمال ، وتثبيت العاملين فى جهادهم ، ونفث روح المثابرة فى كيانهم ، فهذا المجموع من إشراقات الوحي متى قرىء أو سمع استولى على جميع مآخذ النفوس ، وتسلط على كل مسارب العقول، وتحكم على جمهرة مواطن الاقتناع من الصدور ، فلا يجد تاليه أو سامعه محيصاً من الاذعان اليه، والاستخذاء له ، لأنه يحرك جميع الأوتار فى الروح الانسانى دفعة واحدة ، فيؤخذ سامعه به أخذاً ، كأنه قد غمرته موجة من السحر فلم تدع له متنفسا فى غيره من الأمور ، ولم تترك له متملصا إلى سواه من الشئون . وقد شعر بتأثير القرآن هذا كل من قرأه ومن سمعه، سواء أكان من أهل هذا الدين أم لم يكن ، فهل هذا التأثير السحرى هو الذى يعبر عنه صاحب كتاب (مسائل فى الدين) بأنه موجب للاملال . وباعث إلى الكلال ! إن كان هو هذا فيكون قد سمى

الشيء بغير اسمه ، وأطلق عليه على ما يدل على عكسه .

أما أنه غذاء عقيم للآخذين به ، والمعولين عليه ، فهذا من أعجب ضروب المنطق . فإن المعلوم بالضرورة أن هذا الكتاب نزل فى قبائل متفرقة الأهواء ، مشتتة الهموم ، موزعة الجهود ، متنافرة المطالب ، لا هم لها إلا التناحر والتناهب، ولا عهد لها بنظام اجتماعي، ولا بغرض سياسى ، ولا بوحدة اقتصادية ، ولا بنزعة عمرانية ، ولا بعاطفة علية ، فجمع متفرقها ، ووحد وجهتها وغايتها ، ونظم شئونها ؛ ثم رمى بها كتلة مندمجة الأجزاء ، حاصلة على جميع مقومات الحياة وعوامل التطور ، فى بهرة المجتمعات البشرية، حيث مزدحم المطامع وملتطم المصالح ، ومعترك الأهواء ، وحيث التناحر المعاشى يسوق الجماعات للتآخذ بالأيدى والمناكب ، وللترامى بالحديد والنار ، فلم تلبث أكثر من ثمانين سنة حتى أوجدت لنفسها ملكا لا تغرب عنه الشمس ، لم يتسن لأكبر الأمم الفاتحة مثله ولا الرومانيين ، ولا اتفق لأوسع الأمم المعاصرة استعماراً شبهه إلى اليوم ، فانتهت اليه خلافة الأرض فى العلم والفلسفة والفنون والسياسة ، وكانت سببا فى إنهاض العالم من كبوته ، وإقالة المدنية العالمية من عثرتها ، شهد لها بذلك الأقربون والأبعدون ، واعترف لها به الموالون والمعادون، فهل هذا أثر الغذاء العقيم الذى أتى به القرآن لذويه، كما يقول صاحب كتاب (مسائل فى الدين) ؟ وهل هو جاد أو هازل فيما يقول ؟

وبعد فاننا وقد انتهينا من رد هذه الشبهات، لانزال نرانا فى حاجة الى الكتابة ، لأنه يخيل الينا أن قوما يتوهمون أن الاسلام دين

يمكن هدمه ، وهذا جهل عظيم بماهيته ، لايتفق وتقدم المعارف فى هذا العصر ، لذلك نرى أن نأتى بفصول جديدة نبين بها أنه خاتمة الأديان، وأنه حاصل على جميع ضروب المناعة العلمية،وعلى كل عوامل البقاء والخلود ، وأن العالم كله سيتأدى اليه بعد أن تضعف عوامل التعصبات الدينية المذمومة ، وموعدنا بفاتحة هذا البحث الفصل التالى إن شاء الله .

المصحف المفسر

كان التفسير الى عهدنا وقفا على الذين تتسع أوقاتهم لقراءة المطولات ، ومشحوناتها بالمصطلحات الفنية التى تعلو عن متناول الأوساط، فرأينا أن نؤلف تفسيرا يسهل على التالين معرفة مدلولات ألفاظ القرآن ، ومعانيه ، وأسباب نزوله ، أثناء التلاوة ، بحيث لايقطعها على التالى ، وطبعناه طبعا أنيقا مأخوذا من خط الحافظ عثمان على ورق جيد ، وثمنه مجلدا خمسون قرشا ، وغير مجلد خمسة وأربعون قرشا .

فهرست

صفحة

صفحة

صفحة

مؤلفات مؤلف هذا الكتاب

(١) كنز العلوم واللغة ــ دائرة معارف كاملة للغة والعلم فى مجلد ضخم . نفدت طبعته الأولى ، وهو تحت الطبع للمرة الثانية

(٢) الاسلام فى عصر العلم ــ بحوث علمية وفلسفية لاثبات صحة الاسلام بالبراهين العصرية

مجلدان يطلبان من حضرة الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية بشارع محمد على

(٣) المرأة المسلمة ــ رد على من يقول برفع الحجاب بالأدلة العلمية . وفيه دراسات فلسفية وإحصاءات عن حالة النساء فى العالم

يطلب من أمين افندى هندية وثمنه ٥٠ مليما

(٤) المدنية والاسلام ــ دراسات إسلامية لاثبات أن الديانة الاسلامية لاتخالف أصول المدنيــة الفاضلة وأنها تدعو اليها . وهى بحوث فى كل نواحى هذه المسألة الخطيرة

ثمنه ٥٠ مليما . ويطلب من المكتبة التجارية بشارع محمد على

(٥) دائرة معارف القرن العشرين ــ وهى قاموس عام للغة والعلم يقع فى عشرة مجلدات ضخام . وثمنه خمسة جنيهات وأربعمائة مليم . وللطلبة بثلاثة جنيهات

(٦) مقدمة التفسير ــ كتاب يقع فى ١٤٣ صفحة من القطع الكبير جعله مؤلفه وقفاً على دراسة حكمة الاسلام فى كل منحى من المناحى

العلمية والاجتماعية . فهو يبين مذهب القرآن فى كل ما يعرض للبحث من هذه المسائل . ثمنه ١٠٠ مليم

(٧) نقد كتاب الشعر الجاهلى — هو رد على كتاب الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين بك ، وتحليل لجميع المسائل الأدبية التى حدث النزاع عليها فى ذلك الكتاب . ثمنه ١٠٠ مليم

(٨) الوجديات — هو مجموع مقامات كان يكتبها المؤلف لنشر الحكمة ، وبث اللغة وتقويم ملكة التعبير ، وقد جمعت فى كتاب واحد الآن . ثمنها ١٠٠ مليم

(٩) على أطلال المذهب المادى — كتاب وضعه المؤلف فى حقيقة العلم والفلسفة ، واعتراف أساطينها بالجهل عن بلوغ أقصى شأوهما ، واستعدادهم لتهذيب مدركاتهم عند ظهور ما يناقضها ، خلافا لادعياء العلم الذين يتخذون الظنيات منها تكأة للتكذيب بكل ماعداها

وفيه بيان شامل لما فتح على الناس من ثمرات المباحث النفسية فى التنويم المغناطيسى والمسائل الروحانيات وآراء كبار العلماء فيها .

وهو يقع فى أربعة مجلدات . ثمنها مجتمعة ٣٠٠ مليم

(١٠) دستور التغذى — هو كتاب مترجم عن كبار علماء الصحة فى ضروب الأغذية ومقاديرها الغذائية ونفعها أو ضررها بالبنية الانسانية ، ومبلغ ما يجوز أن يتعاطاه الانسان من كل منها

وفيه مقالات ضافية عن الأمراض وأسبابها وكيفية الوقاية منها ثمنه ٦٠ مليما

(١١) كتاب المعلين — شرح فيه المؤلف المواد الواردة فى المنهج الدراسى للمدارس الأولية . وقد نفدت طبعاته الآن

(١٢) شرح المنهاج الدراسي للمدارس الالزامية — وقد رمى المؤلف من اشتغاله لهذه المدارس أن يتولى تلك النفوس الناشئة بمعلومات تصلح لتقويم شخصياتهم الغضة

يقع فى مجلدين . ثمنهما معا ٢٠٠ مليم

